باجدوليون

أو

تحت ظلال الزيتون

تأليف

الكاتب الفرنسي الشهير

ألفونس كار

ملخصة بقلم المرحوم

مصطفى لطفي المنفلوطي

حقوق الطبع محفوظة

obeikandl.com

obeikandl.com

١

من ماجدولين إلى سوزان

سواء لدىَّ أقرأتِ كتابى هذا أم مزقتِه فهو خلوٌ من كل شىء يهمك العلم به أو النظر إليه .

كل ما يمكننى أن أطرفك به من الأخبار أن أقول لكِ إن أشجار الربيع قد بدأت تبتسم عن أزهارها ، وأن النسيم العليل يحمل إلىَّ فى غرفتى فى هذه الساعة التى أكتب إليك فيها شذى أول زهرة من زهرات البنفسج ، وأول عود من أعواد الزنبق .

ويمكننى أن أخبرك أيضاً ـ وإن كنتُ لا أعرف لمثل هذه الأخبار معنى ـ أن الغرفة التى كانت خالية فى الدور الأعلى من منزلنا قد سكنها اليوم فتى اسمه « أستيفن » غريب الأطوار فى وحشته ونفوره وانقباضه عن الناس حتى يكاد يظن الناظرُ إليه أنه بائس أو منكوب ، فهو ينزل فى صبيحة كل يوم إلى الحديقة وبيده كتاب واحد لا يغيِّره ، فإذا جلس للقراءة فيه علق نظرهُ بأول سطر يمرّ به ثم لا ينتقل عنه بعد ذلك ، فهو فى الحقيقة مُطرق إلى الأرض من حيث يظن الرائى أنه يقرأ فى كتاب ، فإذا رآنى مارّة أمامه رفع رأسه إلىَّ وحيانى تحية وجزة ، ثم انتقل من مكانه وانساب بين الأشجار ، أوصعد إلى غرفته ، لذلك لم تتصل بينى وبينه معرفة حتى اليوم ، وربما لا يقع شىء من ذلك فيما بعد ، لأنى لا ألتمس

السبيل إلى التعرّف به ولا أحسب أنه يلتمسه ، فإن كنتِ لابدّ سائلة عما يتساءل عنه النساء فى مثل هذا الموقف فأقول لكِ إن الفتى ليس بجميل ولا جذّاب ، بل إن فى منظره من الخشونة والجمود ما ينفّر نظر الناظر إليه ، وأحسن مافيه أنى سمعته ليلة وكانت نافذة غرفتى مفتوحة يغنى غناءً شجيا مؤثراً وإن كان لايجرى فيه على قاعدة من قواعد النغم فهو يُطرب البؤساء والمحزونين ، ولايعجب الموسيقيين المتفننين ؛ ولقد تمكن أبى من مجالسته هنيهة فحدّثنى عنه أنه من المتعلمين الأذكياء ، وبعدُ فأحسبُ أنى أملتك يا سوزان بحديث يتعلق أكثره بإنسان لا شأن لى ولا لكِ معه ، فلا تعتبى علىّ ، فهذا كل ماتستطيع أن تملأ به صفحاتِ كتابها فتاة تعيش فى قريتها الصغيرة عيشاً متشابه الصور والألوان ، لافرق بين ليله ونهاره ، وصبحه ومسائه ، لا تطلع الشمس فيه على مرأى جديد ، ولا تغرب عن منظر غريب .

٢

من ماجدولين إلى سوزان

الجوّ رائق ، والسماء مصحية ، وقرص الشمس يلتهب التهاباً ، والأرض تهتز فتنبت نباتاً حسنا ، والأشجار تنتفض عن أوراقها اللامعة الخضراء ، والهواء الفاتر يترقرق فيلبعث إلى الأجسام فيترك فيها أثراً هادئاً لذيذاً ، وكل ذلك لا قيمة له عندى ، ولا أثر له فى نفسى ، فإنى أشعر أن الحياة

مظلمة قاتمة ، وأن هذا الفضاء على سعته وانفراج مابين أطرافه أضيق فى عينىّ من كُفة الحابل ، وأن منظر العالم قد استحال إلى شىء غريب لا أعرفه ولا عهد لى بمثله ، فأظل أتنقل من مكان إلى مكان ، وأفر من الحديقة إلى المنزل ، ومن المنزل إلى الحديقة ، كأنى أفتش عن شىء ، وما أفتش إلا عن نفسى التى فقدتها ولا أزال أنشدها ، فإذا نال منى التعب أويتُ إلى أشجار الزيزفون فى الحديقة لأستريح فى ظلالها قليلا ، فلا يكاد يعلق نظرى بأول زهرة يروقنى منظرها من بين أزهارها حتى أشعر كأنى أنتقل من هذا العالم شيئاً فشيئاً إلى عالم جميل من عوالم الخيال ، فأتغلغل فيه كما يتغلغل الطائر المحلق فى غمار السحب ، وتمرّ بى على ذلك ساعات طوال لا أعود من بعدها إلى نفسى إلا إذا شعرت بسقوط الكتاب من يدى ، فإذا استفقتُ وجدتُنى لا أزال فى مكانى ، ولا يزال نظرى عالقاً بتلك الزهرة الجميلة التى وقفت عليها

يقولون إن فصل الربيع فصل الحب ، وإن العواطف تضطرم فيه اضطراما فتأنس النفوس بالنفوس ، وتقترب القلوب من القلوب ، وتمتلىء الحدائق والبساتين بجماعات الطير صادحة فوق زواهر الأغصان ، وجماعات الناس سانحة بين صفوف الأشجار ، أما أنا فلا أصدق من كل هذا شيئاً ، فإن أجهل الساعات عندى تلك الساعة التى أخلو فيها بنفسى فأناجيها بهمومى وأحزانى ، وأذرف من العبرات ما أبرّد به تلك الغُلة التى تعتلج فى صدرى

وأعجب ما أعجبُ له من أمر نفسى أننى أبكى على غير شىء ، وأحزن

لغير سبب ، وأجد بين جنبيّ من الهموم والأشجان مالا أعرف سبيله ولا مأتاه ؛ حتى يخيل إليّ أحيانا أن عارضاً من عوارض الجنون قد خالط عقلى فيشتد خوفى واضطرابى .

إن الذين يعرفون أسباب آلامهم وأحزانهم غير أشقياء ، لأنهم يعيشون بالأمل ويحيون بالرجاء ، أما أنا فشقية لأنى لا أعرف لى دواء فأعالجه ، ولا يوم شفاء فأرجوه .

كل أسباب العيش حاضرة لدىّ ، وأبى لا يعرف له سعادة فى الحياة غير سعادتى ، ولا هناء غير هنائى ، ولا يعجبه منظر من مناظر الجمال فى العالم سوى أن يرانى باسمة ، ويرى أزهار حديقته ضاحكة ، بل ربما أغفل أمر حديقته أحياناً حتى تذبُل أوراقها وتموت زهراتها فى سبيل قضاء مرافقى وحاجاتى ، فأنا إن شكوت فإنما أشكو بطراً وأشراً وكفراناً بأنعم الله التى يُسبغها علىّ ويسديها إلىّ ، فغفرانك اللهم ورحمتك ، فإنى ما اعترفت بجميلك ، ولا أحسنت القيام بشكر أياديك .

إنى لأذكر ياسوزان تلك الأيام التى قضيناها معاً ، وتلك السعادة التى كنا نهصر أغصانها ، ونجنى ثمارها ، ونطير فى سمائها بأجنحة من الآمال والأحلام ؛ فأندبها وأبكى عليها ، وأحنّ إليها حنينَ الليل إلى مطلع الفجر والجدب إلى ديمة القطر .

٣

من أدوار إلى استيفن

الآن عرفتُ أنك لا تثق بى ولا تعتمد علىّ ؛ وأنك لا تزال تنظر إلىّ بالعين التى تنظر بها إلى أولئك الذين آثرتَ مغاضبتهم والتبرُّم بهم من أفراد أسرتك ، فقد كتمت عنى ما كنت أرجو أن تفضى به إلىّ من ذات نفسك فيما اعتزمت عليه من رحلتك لأعرف ماذا تريد وأين تريد ، ولكنى لم أوثر أن أنزل بك فى الودّ إلى المنزلة التى نزلتَ بى إليها ، فلم أر بدّاً من أن أكتب إليك .

إنا نبتنا معاً يا استيفن فى تربة واحدة ، تحت سماء واحدة ، يغذونا ماء واحد ، وجوّ واحد ، وما زلنا كذلك حتى شببنا فاختلفنا كما تختلف الشجرتان المتجاورتان فى منبتهما ثمرة وشكلا : لذلك أنت تفر منى الفرار كله وتنقبض عنى ، ولا ترانى أسلك فجّاً من فجاج الأرض إلا سلكت فجّاً غيره ، لأنك أصبحت تسعد بحياة غير التى أسعد بها ، وتهنأ بعيش غير الذى أهنأ به ، وتطرب لنغمة غير التى تسمعها منى ، ولا تستطيع أن ترى فى وجهى تلك المرآة التى تحب أن ترى فيها صورتك واضحة جلية لا غموض فيها ولا إبهام .

إنك لا تبغضنى يا استيفن ، ولكنك لا تحب أن ترانى ؛ لأنك تعلم أن لى فى الحياة رأياً غير رأيك ، وطريقاً غير طريقك ، فأنت تخاف أن تسمع منى ما يفجعُك فى تصوراتك وأحلامك ، ويكدّر عليك لذائذك التى تجدها

فى العيش فى ذلك العالم الخيالى المظلم ، وتقنع بها فيه قناعة الشعراء المحزونين بالعيش بين أشباح خيالاتهم السوداء .

كن كما تشاء ، وعش كما تريد ، فستنقضى أيام شبابك وستنقضى بانقضائها أمانيك وأحلامك ، وهنالك تنزل من سمائك التى تطير فيها إلى أرضى التى أسكنها ؛ فنتعارف بعد التناكر ، ونتواصل بعد التقاطع ، ونلتقى كما كنا .

لابد أن نفترق اليوم لأننا غير متفقين ، ولابد أن نجتمع بعد اليوم لأننا سنتفق ، فلا بأس أن تكتب إلىّ وأكتب إليك ، وأن نتواصل على البعد إبقاء على تلك الصلة التى بيننا ، واحتفاظا بها ، ورعاية لها حتى يأتى ذلك اليوم الذى تجلو فيه عن نفسها ، وتبرز من مكمنها .

إن أهلك يعجبون لأمرك كثيراً ، ويرون أنك قد مكرت بهم ، وأضللتهم عن مقاصدك وأغراضك ، فسافرت خفية من حيث لا يعلمون بأمرك ولا بنيّتك التى أنتويتها ، ويقولون إنك ماسافرت على هذه الصورة إلا لأنك عدلت عن رأيك فى الزواج من تلك الفتاة التى أعدّوها لك ، وعندى أنهم أصابوا فيما يقولون ، وأنك مخطئ فيما فعلت ، لأنك تعلم أن والدك فقير لا يملك من المال أكثر مما يتسع لأيام حياته ؛ ولقد كان لك فى هذا الزواج من تلك الفتاة التى اختارها لك حظك من سعادة العيش وهنائه لولا أنك شاعر ، والشعراء يفهمون من معنى السعادة غير مايفهمه الناس جميعاً .

أخوك يحبك كثيراً ، ولا يزال يحدثنى عنك كما أحدثه ؛ فاذكرنا كما نذكرك ، واكتب إلينا بكل شيء .

٤

خواطر استيفن

مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق إلا أن تنفرج لِمّة الظلام عن جبين الفجر ، ولا أزال ساهراً قلق المضجع ، أطلب الراحة فلا أجدها ، وأهتف بالغمض فلا أعرف السبيل إليه .

إن إدوار يسخر منى فى كتابه ويهزأ بى ، وينذرنى بيوم أرى فيه أوهاماً كاذبة وأحلاماً باطلة : ما كنتُ أحسبه أمانىّ وآمالا ، ويرى أن جميع ما أقدره لنفسى من سعادة فى الحياة وهناء أشبه شىء بالخيالات الشعرية التى يسعد الشعراء بتصوّرها ، ولا يسعدون بوجودها ؛ فلئن كان حقا ما يقول فما أمرّ طعم العيش ، وما أظلم وجه الحياة .

لا لا ، إن الذى غرس فى قلبى هذه الآمال الحسان لا يعجز عن أن يتعهدها بلطفه وعنايته حتى تخرج ثمارها ، وتتلألأ أزهارها ، وإن الذى أنبت فى جناحَىّ هذه القوادم والخوافىَ لا يرضى أن يَهيضنى ويتركنى فى مكانى كسيراً لا أنهض ولا أطير ، وإن الذى سلبنى كل ما يأمل الآملون فى هذه الحياة من سرور وغبطة ، ولم يُبق لى منها إلا حلاوة الأمل ولذته ، لأجلُّ من أن يقسوَ علىّ القسوةَ كلها فيسلبنى تلك الثمالة الباقية التى هى مِلاك عيشى ، وقوام حياتى .

على أننى ما ذهبت بعيداً ، ولا طلبت مستحيلا ، فكل ما أطمع فيه من

جمال هذا العالم وزخرفه رفيق آنس بقربه وجواره ، وأجد لذة العيش فى الكون معه ، والسكون إليه ، وما الرجال كما يقولون إلا أنصاف ماثلة تطلب أنصافها الأخرى بين مخادع النساء ، فلايزال الرجل يشعر فى نفسه بذلك النقص الذى كان يشعر به آدم قبل أن تتغير صورة ضلعه الأيسر حتى يعثر بالمرأة التى خلقت له فيقرّ قراره ، ويلقى عصاه

وبعد ؛ فأى مقدار من المقدورات تضيق به قوة الله وحكمته ، وأى عقل من العقول الإنسانية يستطيع أن يبدع فى تصوراته وتخيلاته الذهنية فوق ما تبدع يد القدرة فى مصنوعاتها وآثارها ، وهل الصور والخيالات التى تمتلئ بها أذهاننا وتموج بها عقولنا إلا رسوم ضئيلة لحقائق هذا الكون وبدائعه ، ولو أن سامعاً سمع وصف منظر الشمس عند طلوعها ، أو مهبط الليل عند نزوله ، أو جمال غابة من الغابات ، أو شموخ جبل من الأجبال ، ثم رأى بعد ذلك عياناً ، ما كان يراه تصوراً وخيالا ، لعلم أن جمال الكائنات فوق جمال التصورات ، وحقائق الموجودات فوق هواتف الخيالات ؛ لذلك أعتقد أنى ماتخيلتُ هذه السعادة التى أقدرها لنفسى إلا لأنها كائن من الكائنات الموجودة ، وأنها آتية لاريب فيها .

إن اليوم الذى أشعر فيه بخيبة آمالى ، وانقطاع حبل رجائى ، يجب أن يكون آخر يوم من أيام حياتى ، فلا خير فى حياة يحياها المرء بغير قلب ، ولاخير فى قلب يخفق بغير حب .

ع

الحب

نزل أستيفن صبيحة يوم من الأيام إلى حديقة المنزل فرأى « مولر » والد ماجدولين واقفاً على رأس بعض الجداول متكئاً على فأسه فلم ير بدّاً من أن يحييه فحياه بتحية حيّ بأحسن منها ؛ ثم أراد أن يستمرّ أدراجه فرآه ينظر إليه نظرة المسترقف ، ورأى كأن كلاماً يتحير فى شدقيه فاستحيى أن يمضى لسبيله فوقف ، فقال له مولر : ما أجمل شمس هذا اليوم وما أصفى سماءه ، فأراد استيفن نفسه على كلمة يصل بها الحديث بينه وبينه فلم ير شيئاً أقرب إلى ذهنه من أن يسأله على ابنته ؛ ثم بدا له أنه إن فعل أرابَهُ وألقى فى نفسه أمراً غير الذى يريد ، وهى المرة الأولى التى خطر له فيها أن فى سؤال الرجلِ الرجلَ عن حال ابنته شيئاً غريباً ؛ أو أمراً مريباً ؛ ثم استمرّ مولر فى حديثه يقول : إن منظر الطبيعة فى هذه الساعة جميل جداً لا يكدّره علىّ إلا تلك الرعدة التى أشعر أنها تتمشى فى أعضائى ، فما أمرّ مذاق الشيخوخة وما أثقل مؤونتها ، وسلام على الشباب وعهوده الزاهرة أيام كنت لا أحفل بنكباء ولا رمضاء ؛ ولا أبالى أن أبكر فى صبيحة كل يوم تبكيرَ الغراب إلى قِمم الجبال وشواطئ الأنهار عارىَ الرأس حافىَ القدم ، أمرح وألعب ، وأتأثر طرائدَ الصيد فى مسارحها وملاعبها ؛ فأصبحت ولم يبق لى من تلك الذكريات إلا وقوف فى هذه الضاحية تحت هذه الشمس المشرقة أنسج من خيوطها البيضاء كساء أتقى به هذه

الرعدة ، وأُمتع نظرى برؤية الفتيات الصغيرات صواحب ماجدولين وهن يلعبن معها فوق تلك الهضبة الثلجية ، وهنا وجد استيفن مكان القول ذا سعة فقال : إن ماجدولين لم تنزل اليوم كعادتها فلعلها بخير ، قال نعم ، هى بخير ولكنّ ضيفاً من أقرباتنا نزل بنا أمس فلم أرَ بداً من أن أكل إليها أمره والعناية به فتركتهما وذهبت لشأنى ، وإن كنت أعلم أن ماجدولين ليس فى استطاعتها الصبر عن النزول إلى الحديقة ولا يقنعها من الشمس تلك الخيوط البيضاء التى تنحدر إليها من نافذة غرفتها ، ثم ذهبا فى الحديث بعد ذلك مذاهب مختلفة ، وإنهما لكذلك إذ فُتح باب المنزل ، وإذا ماجدولين وأرشيد مقبلان يحدّثها فتهلل ، وتحدثه فيبتسم ، وكأن منظرهما منظر عاشقين يتغازلان ، لا قريبين يتسامران . فخيّل لاستيفن أن هذا المشهد الذى يشهده غير مستحسن ولا مستعذب ، ثم اقتربا منه فصدف عنهما يتلهى بالنظر إلى بعض الزهرات ، وودّ لو وجد السبيل إلى الهرب منهما لولا أنهما اعترضا طريقه فسلما عليه فردّ ردّاً فاتراً ، ثم تركهما مكانهما وانحدر إلى خميلة من الخمائل ، فما خطا فيها بعض خطوات حتى سمع الفتى يغرب فى الضحك ، فما شك أنهما فى شأنه ، وأنه قد أصبح موضوع هزئهما وسخريتهما ، وأنهما ما ضحكا إلا للعبث به والزراية عليه ؛ فأحس فى قلبه بدبيب البغض لذلك الفتى ، وودّ بجدع الأنف لو وجد السبيل إلى منازلته فى ميدان خصام يضربه فيه ضربة تهشم أنفه وتخضب الذى فيه عيناه ليُقنعَه أنه ليس سخرية الساخر ، ولا أضحوكة الضاحك ؛ ثم عاد إلى نفسه يسائلها عن السبب فى انقباضه ووحشته ، وعن تلك الحال

الغريبة التى ألمّت بفؤاده منذ الساعة ويقول : مالى ولهذا الفتى ؟ وبأى حق أحمل له بين جنبىّ ما أحمل من الضغينة والموجدة ؟ فما أنا بعاشق للفتاة فأغار منه عليها ، ولاهو بمزاحم لى على هوى فأبغضه فيه ! ولم يزل يسائل نفسه أمثال هذه الأسئلة فلا تجيبه ، ويراجع عقله فلا يهديه ، حتى عرف أنه لايسمع خارج الخيلة صوتاً فبرز من مكمنه فلم ير أمامه أحداً ، فخرج من الحديقة هائماً على وجهه بين الغابات والأحراش حتى أدبر النهار فعاد إلى المنزل وصعد إلى غرفته ، وإنه ليمر أمام باب غرفة ماجدولين إذ سمع صوت حديث فذكر ما كان قد نسيه ، وعلم أنها تسمر مع قريبها أرشميد ، وأنه لابد أن يكون سعيداً بهذا الحديث وهذه الخلوة ، فنفس عليه ذلك ، ولا ينفس الإنسان على صاحبه شيئاً يكون فى نظره حقيراً ، فتريث فى مشيته قليلا حتى علم أنه إن دنا من باب الغرفة لايشعران بموقفه ، فدنا منها وأنشأ يتسمّع حديثهما فلم يفهم كلمة مما يقولان ، ثم انقطعا عن الحديث وأنشأت ماجدولين تغنى غناء شجيا قد كان يكون عذباً لذيذاً فى نفس استيفن لولا أن أذناً أخرى غير أذنه تزاحمه على سماعه ، ثم انقطع الغناء أيضاً فسمع خفق نعال تتقدم نحو الباب ، فابتعد عن مكانه حتى خرج الفتى وخرجت ماجدولين وراءه تشيعه فى غلالة رقيقة بيضاء لاتلبسها الفتاة إلا بين يدى عشيقها أو من لاتحتشمه من ذوى قرباها . فرأى فى وجهها صورة جديدة غير التى كان يراها من قبل ، وأحس فى نفسه بشىء غير الذى كان يحسّ به عند رؤيتها ، ثم عادت إلى الغرفة وأغلقت الباب وراءها ، فعاد إلى موقفه الأول ، وما زال راكعاً أمام بابها حتى مشت جذوة النهار فى فحمة

الليل ، فصعد إلى غرفته وقد علم أن الذى قام بنفسه منذ اليوم ليس الهذيان ولا الجنون ، ولا الوسواس ولا حرارة الحمى كما كان يظن ، وإنما هو الحب !

٦

الدعـــوة

دخل مولر على ابنته ذات يوم فقال : يا بنية إنى دعوت اليوم جارنا الذى يسكن فى الغرفة العليا من منزلنا إلى العشاء عندنا فى الساعة السابعة فأعدى له الطعام ، واعلمى أنك ستغنينا فى هذه الليلة فقد وعدتهُ بذلك ؛ وقد لقيتُ من كرم هذا الفتى وعلوّ همته وشدة عارضته وكثرة ذكائه وسعة علمه بالنبات وطبائعه ماحبّبه إلىّ ؛ وأنزله من نفسى المنزلة العليا ؛ ولابد أن أتخذه صديقاً ، وأن تكون تلك الدعوة فاتحة تلك الصداقة ، ثم تركها وخرج إلى الحديقة وظلّ مشتغلا بشأنه فيها حتى مالت الشمس إلى مغربها فعاد إلى المنزل وجلس إلى نافذة غرفته المطلة على الحديقة ينتظر ضيفه ، وإنه لكذلك إذ رآه خارجاً من باب الحديقة يعدو عدواً شديداً وفى يده رسالة مفضوضة فهتف بابنته يقول : ياماجدولين ، ما أحسب إلا أن جارنا قد حيل بينه وبين الوفاء بوعده فقد رأيته الساعة خارجا يعدو من باب الحديقة ثم رأيته قد سلك تلك الطريق التى لاينتهى فيها السائر إلى غرض إلا بعد سفر عشرة أميال ، فقالت : لابد أن يكون قد عرض له شأن

ما كان يقدّره فى نفسه ، فلابد أن ننتظره حتى يعود ، ثم جلسا صامتين ، هذا يدخن لفافته ، وتلك تخيط ثوبها . حتى علما أنه لن يعود ، فقاما إلى العشاء ثم إلى المنام .

٧

الزيارة

جلس مولر إلى أبنته ، فنظر نظرة فى النجوم وقال : ما أحسب إلا أن السماء ستمطرنا فى هذه الليلة مطراً غزيراً يبلل هذه التربة الظامئة ، ويملأ هذه البقاع الجرداء ، فما أجمل الربيع وما أجمل غيوثه المنهلّة ، وما أجمل أرضه بعد أن يكسوها الغمام من نسج يده تلك الغلائل الخضراء ؛ فقالت ماجدولين : لا تنس يا أبت أن كثيراً من ضعفاء السابلة وطرائد الليل يعانون فى مثل هذه الليلة المماطرة من تدفق الغيوث فوق رءوسهم واعتراض الوحول فى طريقهم ، وبُعد الشقة عليهم مالاطاقة لهم باحتماله ، فوارحمتاه لهم إن الشقاء كامن لهم فى كل شىء حتى فى الشؤون التى يسعد بها غيرهم ، فاكتأب مولر وقال : نعم يا ماجدولين إنهم أشقياء بؤساء ولابد أن يكون استيفن واحداً منهم ، فقد مر الهزيع الأول من الليل ولم يعد إلى المنزل حتى الساعة بعد ماقضى ليلة أمس خارجه ، فأخذت هذه الكلمةُ مكانها من نفس ماجدولين ، فأطرقت برأسها تقلب صحائف كتابها ولا تقرأ منه شيئاً ، وإنهما لكذلك إذا طارق يخفق الباب خفقاً ضعيفاً ؛ فاضطربت

ماجدولين ودهش مولر وقامت جنفياف إلى الباب ففتحته فإذا استيفن ماثل بعتبته ، فاستأذن ودخل وهو يقول : عفواً يا سيدى إن كنت ترى أننى لم أف لك بوعدى فقد أرسل إلىّ أخى كتاباً يدعونى فيه إلى مقابلته على الحدود لتوديعه قبل سفره إلى الحرب ، فأعجلنى كتابه عن كل شىء حتى عن الاعتذار إليك فشيت إليه عشرة أميال لا أزيث ولا أتئد حتى بلغته ، فودعته وداعاً جمع بين السرور له والحزن عليه ، أما السرور فلأنى رأيته فرحاً مغتبطاً برحلته يغنى أنشودة الحرب مرة ، ويلاعب جواده أخرى ، ويمشى مشية الخيلاء بين ريش قبعته وحمائل سيفه ، وأما الحزن فلأنى أخاف أن يسبقنى القدَر إليه فيحول بينى وبينه ؛ فأصبحُ فى هذه الحياة غريباً منفرداً ، لا أجد بين هذه القلوب الخافقة حولى قلبا يحزن لحزنى ، ولا بين هذه العيون الناظرة إلىّ عينا تبكى لبكائى ، وهنا ذرَفت من عينه دمعة كادت تبكى لها ماجدولين ، ولكنها لم تفعل ذلك حياء وخجلا ، وألقت عليه نظرة عطف ورحمة من حيث لايشعر ، حتى إذا التفت إليها استردت نظرتها وألقتها على صفحة كتابها فقال له مولر : لاتجزع يابنىّ فالله أرحم بك من أخيك وأرحم بأخيك من نفسه ، ثم أخذ بيده إلى مائدة الشاى وجلسا يشربان معاً وأنشأ مولر يحدّث صاحبه عن الشاى ومغرسه ومنبته وأعواده وأوراقه وأنواعه وألوانه وطريقة طبخه وأصل كلمته ومصدر اشتقاقها وآراء علماء النبات فى ذلك وردود بعضهم على بعض وردوده هو عليهم جميعاً ؛ وما زال يَثرُّ فى ذلك ويُسهب ظاناً أن استيفن حاضر معه واستيفن عنه فى شغل بما يختلس من نظرات ماجدولين

وما تختلس من نظراته حتى فرغا من شأنهما ، فاقترح مولر على ابنته أن تغنى لهما صوتاً فأنشأت تغنيه بنغمة تخالطها رِعدة الخائف أو رنة المحزون ، فما أتت عليه حتى طرب له استيفن طربا مَلك عليه قلبَه وأحاط بعواطفه ومشاعره ، وشعر كأن الفضاء يدور به ، وكأن قد بُدلت الأرضُ غيرَ الأرض والسموات ، ثم خاف أن يمتد به شوطه إلى أبعد من ذلك فتناهض للقيام فمشى معه مولر إلى الباب يشيعه ويقول : زرنا يا استيفن كلما بدا لك أن تفعل ، فما دون مزارك بابٌ موصد ، فانصرفَ بقلبٍ غير قلبه ، وعقلٍ غير عقله ، وحال بين جنبيه غريبة لا عهد له بمثلها من قبل .

٨

المـــرأة

قضت ماجدولين ليلتها راكعة فى معبدها مستغرقة فى صلاتها تدعو الله تعالى أن يعينها على أمرها ، وينير لها ظلمة هذه الحياة الجديدة التى بدأت تسير فيها ، وقد ألمّت بنفسها فى تلك الساعة عاطفة غريبة متنوعة الألوان ، مختلفة الأشكال ، كأنما هى مزيج من الحب والخوف والسرور والحزن والأمل الواسع ، والرجاء الخائب ؛ فكانت تبتسم مرة حتى تلمع ثناياها ، وتبكى أخرى حتى يبتل رداؤها ، ولا تعلم ما الذى أضحكها ، ولا ما الذى أبكاها ، ولم تزل على حالها تلك حتى حلّق طائر الكرى فوق أجفانها ، فاضطجعت فى مصلاها . وأسلمتْ نفسها إلى خالقها .

أما استيفن فقضى ليله جالساً إلى نافذة غرفته يقلب وجهه فى السماء كأنما هو يساهر كواكبها ونجومها ؛ ويفضى إليها بما ألمّ بنفسه فى تلك الساعة من سرور وغبطة ، وما كان سروره إلا لأنه أصبح يشعر فى نفسه ببرد الراحة من البحث عن ضالة غرام ظل يلتمسها ويتعلق بآثارها عهداً طويلا حتى وجدها ، وأنّ نفسه التى كانت حبيسة بين جنبيه قد أشرقت عليها شمس الحب فانتعشت ورفرفت بجناحيها فى الفضاء . فأنشأ يحدث نفسه ويقول : أحمدك اللهم فقد ظفرت بالحياة التى كنت أقدرها لنفسى : ووجدت المرأة التى كنت أصورها فى مخيلتى . وما المرأة إلا الأفق الذى تشرق منه شمس السعادة على هذا الكون فتنير ظلمته ، والبريد الذى يحمل على يده نعمة الخالق إلى المخلوق ، والهواء المتردد الذى يَهب الإنسانَ حياته وقوته ، والمعراج الذى تعرج عليه النفوس من الملإ الأدنى إلى الملإ الأعلى ، والرسول الإلهى الذى يطالع المؤمنُ فى وجهه جمال الله وجلاله ، ففى وجه هذه الفتاة التى عثرتُ بها اليومَ فقد عثرت بحياتى وسعادتى ، ويقينى وإيمانى

وكان يخيّل إليه وهو يحدث نفسه بهذا الحديث أن الحب الذى ملأ قلبه قد فاض عنه إلى جميع الكائنات التى يراها بين يديه ، فكان يرى فى صفحة السماء صورة الحب ، ويسمع فى حفيف الأشجار صوت الحب ، ويستروح فى النسيم المترقرق رائحة الحب ، ويرى فى كل ذرة ثغراً باسماً ، وفى كل نأمة عوداً ناغماً

ولم يزل يهتف بهذه التصورات حتى انحدر برقع الليل عن وجه الصباح

فهجع فى مرقده قليلا ثم قام فنزل إلى الحديقة يترقب نزول ماجدولين إلى متنزّهها فلم تنزل حتى أخذت الشمس مكانها من كبد السماء فرابه من أمرها مارابه فلم يرَ بدا من زيارة مولر فمشى إلى المنزل بقدم مضطربة وقلب خفاق حتى بلغ الباب فقرعه ، ثم شعر أن شُعبة من شُعب قلبه قد سقطت بين أضلاعه ، وأن لسانه قد انوى عليه فأصبح لا ينطق ولا يبين فندم على أن لم يكن قد سلك سبيلا غير تلك السبيل ، وتمنى لو فترت الخادم قليلا فى خطواتها إليه حتى يستجمع رويته وأناته : ويسترد إليه ما تفرق من شمله ، فكان له ماتمناه ، ولم تفتح جِنفياف الباب إلا بعد فراغها من شأن كان لها ، فألفها أين مولر ؟ فمشت أمامه إلى قاعة الأضياف ثم تركته وذهبت لتخبر سيدها بمكانه ، وكان يقرأ فى قاعة الكتب ؛ فلما خلا استيفن بنفسه أخذ يدور بعينيه فى جوانب الغرفة فرأى على مقربة منه باباً مفتوحاً يلوح من ورائه سرير قائم ، فعلم أنه مخدع ماجدولين ؛ فتسمّعَ فلم ير أحداً فهاجه الشوق إلى اقتحامه فاقتحمه ، وهو يعلم أنها المخاطرة بعينها ، ولكنه كان على حال لا ينتفع فيها بما يعلم ، فدخل واقترب من السرير فوجد الفراش لا يزال مشعثاً ، ومكانَ رأس ماجدولين من الوسادة لا يزال منخفضاً ، ورأى بين يدى السرير حوضاً مملوءاً ماء ، وإلى جانبه كرسى قد انتشر فوقه رداء مبتل ، ثم نظر إلى الأرض فرأى بللا يمثّلُ أقداما صغيرة ، فعلم أن فى هذا السرير كانت ماجدولين نائمة ، وفى هذا الماء كانت تبترد وبهذا الرداء كانت تتمسح ، وعلى هذه الأرض كانت تتنقل ، فجمد فى مكانه جمود الصنم فى هيكله ، وأخذ يقول

فى نفسه : لقد سعد السرير الذى لامسها ، والرداء الذى ضمها ، والأرض التى لثمت أقدامها ، والماء الذى انحدر على جسمها ، ثم مشى إلى الرداء المنتشر فأخذ يلثمه كما يلثم العابد المتشدد ستائر معبده . وتهافت على الأرض يقبل آثار تلك الأقدام . ثم خيل إليه أنه يسمع من ورائه صوتاً فرجع إلى نفسه وعاد منفتلا إلى مكانه الأول ؛ فما لبث إلا قليلا حتى دخل عليه مولر فحياه وقال له : عفواً يا استيفن فقد شغلنى عنك أنى كنت أفتش فى قواميس اللغة عن أصول أعلام نباتية مازلتُ مَعنياً بأمرها منذ اليوم . فهل لك أن تكون عوناً لى عليها على شرط أن لا تفارق منزلى قبل الغداء فابتسم استيفن ابتسامة الرضا والقبول ، لأنه علم أنه سيقضى وقتاً طويلا فى منزل ماجدولين . ثم ذهبا معاً إلى قاعة الكتب فلما أخذا مكانهما منها أنشأ مولر يسرد على صاحبه تلك الأعلام التى يقول إنها تشغله ويشرح له مدلولاتها ومارآه علماء النبات فى مصادر اشتقاقها وما بدا له من المآخذ عليهم فإذا ورد فى كلامه اسم كتاب قام إلى خزانة الكتب واستخرجه وتصفح أوراقه حتى يجد الكلمة التى يريدها فيتلوها بنغمة الهازئ الساخر ويقول : هكذا يرى الأستاذ فلان : أما أنا فأرى غير مايراه : وماذا علىّ إن بدا لى غير ما بدا له . فالعلم ليس وقفاً على المؤلفين والمدوّنين وإنما هو قرع الحجة بالحجة ودفع الرأى بالرأى .

وما زال يهذر فى حديثه هذيار الجمل المخشوش واستيفن لاهٍ عنه يردّد النظر إلى باب القاعة من حين إلى حين علّه يرى ماجدولين داخلة فقال له مولر : أراك تنظر إلى الباب كثيراً كأنك تخاف أن يلج علينا

الغرفة والج فيكدر علينا خلوتنا فاعلم أنه ما من أحد فى هذا المنزل يستطيع أن يخالف أمرى ويقتحم علىّ باب قاعتى من غير إذن ، وهنا صاحت الخادم تدعوه إلى الغداء فلم يقطع حديثه فصاحت به مرة أخرى فنهض متثاقلا ومشى متباطئاً لا يقطع حديثه حتى وصلا إلى غرفة الطعام فراع استيفن أنه لم يرَ حول المائدة غير مقعدين ، فعلم أن أحدهما له ، وأن الآخر لا يمكن أن يكون لأحد غير مولر : فوجم وجوم الحزين المكتئب واستمرّ يأكل صامتاً لا يتحدث ولا يصغى إلى حديث حتى فرغا ، فقال له مولر : لقد أراد الله بى خيراً إذ أرسلك إلىّ فى هذا اليوم فقد كدت لا أجد لى فى هذه الوحدة مؤنساً ، ولا على هذه المائدة رفيقاً ، فإنّ ابنتى سافرت منذ الصباح لزيارة إحدى صواحبها ولا أحسبها راجعة قبل المساء فهل لك أن تنزل الحديقة لنرتاض فيها قليلا ؟ فنزلا ، فما أمعنا فيها إلا قليلا حتى سمع مولر صوت الخادم تصيح به من النافذة أن قد عادت سيدتها ، فمد يده إلى استيفن مودّعا وتركه مكانه حائراً مشدوهاً وليس وراء ما به من الهمّ غاية .

٩

الحيرة

كان من أمر استيفن بعد ذلك أنه كلما رأى ماجدولين فى الحديقة فرّ من وجهها ، وسلك طريقاً غير طريقه ، ليخلو بنفسه لحظة يصور فيها

الموقف الذى يقفه بين يديها ، والتحية التى يحمل به أن يحييها بها ، فلا يصل إلى ما يريد من ذلك حتى يراها راجعة أدراجها إلى المنزل ، فكان يحمل فى سبيل ذلك من الهمّ ما يقلق مضجعه ، ويطيل سهده ، ويحول بينه وبين قراره ، فلا يرى بدًّا من الفرار بنفسه إلى الغابات والأجمات ، والهيام على وجهه فى قمم الجبال ، وعلى ضفاف الأنهار ؛ ليروّح عن نفسه بعض ما ألمّ بها ، واستمر على ذلك أياما طوالا لا يمشى فى الحديقة . ولا يرى ماجدولين ولا يزور مولر ، حتى تَلِفت نفسه ، وذهب به اليأس كل مذهب فعاد يوما من بعض مذاهبه محموما لا يكاد يتماسك ضعفاً واضطراباً فلزم غرفته أياما يعالج من داء قلبه وداء جسمه ما لا طاقة له باحتماله . وكأن جنفياف قد ألمّت بجملة حاله فكاشفت بها سيدَها فصعد إلى غرفتهِ ليعوده فرآه مستفيقاً بعض الاستفاقة فسأله عما به فانتحل له عذراً فجلس إليه يحادثه ساعة ، فلما أراد القيام مدّ استيفن يده إلى طاقة بنفسج كانت فى آنية إلى جانب وسادته وقال له إنى جمعت هذه الطاقة لماجدولين لأنى أعلم ولعها بالغريب المستطرف من الزهر : فلعلك تنوب عنى فى تقديمها إليها . فأخذها مولر شاكراً وانصرف .

ومرت بعد ذلك أيام كان فيها استيفن بين يأس الحياة ورجائها حتى أدركته رحمة الله فأبل من مرضه ، فنزل إلى الحديقة وقد استقر فى نفسه العزم على ألا يفتر من وجه ماجدولين إذا رآها وأن يتقدم نحوها فيحييها ويحادثها ، ويَنفض لها جملة حاله ، ولم يَشب أن رآها مقبلة عليه وجها لوجه ، فلم يرَ سبيلا للفرار من بين يديها . فحياها فحيته ، ثم أغضى

فأغضت ، فلم يرَ بدّاً من المخاطرة بكلمة يخرج بها من هذا الصمت المهيب فاستنصر قوته وتجمّع تجمّع من يريد الوثوب فوق هوة عميقة ، وأراد أن يقول شيئاً فسمعها تتكلم ، فاستفاق وحمد الله على أن كفاه تلك المؤونة ، فقالت أراك يا سيدى شاحب اللون ، خائر النفس ، فلعلك عالجت من مرضك هذا عناء كبيراً ، قال نعم ، قالت أشكر لك ياسيدى هديتك الثمينة التى بعثت بها إلىّ ، ولقد أعجبنى منها أن تلك الزهرة هى أحبّ الزهور إلى ، فكأنما ألممت ما فى نفسى ، وإنى أعجبُ لشعرائنا فى إغفالهم ذكر هذه الزهرة فى أشعارهم كما ذكروا غيرها مما لا يقوم مقامها ، ولا يكافئها فى حسنها وروائها ، ولا أذكر أنى قرأتُ لأحد منهم شعراً فيها إلا قطعة صغيرة لشاعرنا جيتى ، وهنا وجد استيفن متسعاً فى الحديث عن الشعر والشعراء ، والنبات والزهر ، فاستمرّ يحادثها ساعة حتى حان وقت رجوعها فودّعته وانصرفت ، فصعد إلى غرفته وقد عزم أن يراسلها فيما عجز عن مفاتحتها فيه

١٠

من سوزان إلى ماجدولين

كنا على أن نزورك فى قريتك ياماجدولين أنا ووالدى فحدث حادث حال بيننا وبين ذلك ، دعانا أحد الأصدقاء لزيارته فى بلدته وهى على بُعد ثلاثة فراسخ من قريتنا ولا تبعد عن قريتك إلا قليلا ، فذهبنا إليه صبيحة

يوم وقضينا فى منزله عدة ساعات حتى إذا زلفت الشمس عن كبد السماء خرج القوم إلى الخلاء للتنزه فى غاباته وأجماته ، وأنت تعلمين فيما تعلمين من أمرى أنى لا أجد فى نفسى تلك اللذة التى يجدها الشعراء المتخيلون فى جمال الطبيعة وحسنها ، وبهجتها وروائها ، ولا أغتبط بما يغتبطون به من منظر الغابات والأحراش ، والجبال والآكام ، ولا أطرب لخرير الماء ، ودوىّ الريح ، وهزيم الرعد ، وحرارة الشمس ، ووعث الطريق ، وخشونة الأرض ، واقتحام الصخور ، والتعثر بين أغوار الفلاة وأنجادها ، كما يطربون ، ولكنى لم أر بدا من مصانعتهم ومجاملتهم ، فمشيت صامتة ومشوْا يتحدثون بجمال الحياة القروية ، ويتمدحون بعيش العزلة بين سكون الطبيعة وهدوئها ، وجمال الكائنات وجلالها ، والله يعلم أنه ما من أحد منهم يعلم من نفسه أنه صادق فيما يقول ، أو أنه يتمنى لنفسه ذلك الشقاء الذى يحسد الأشقياء عليه ، فكان مثلهم فى ذلك كمثل أولئك الكتّاب المرائين الذين يكتبون الفصول الطوال فى مدح الفلاح ، والتنويه بذكره ، والثناء على يده البيضاء فى خدمة المجتمع الإنسانى ، حتى إذا مر ذلك المسكين بأحدهم وأراد أن يمد يده لمصافحته تراجع وكفكف يده ضنًّا بها أن تلوثها بأقذارها تلك اليد السوداء .

وما زلنا كذلك حتى بلغنا شاطئ النهر فراعنا أنّا رأينا هنالك جمعاً عظيما من الناس يتدفع فوق الشاطئ الآخر تدفع الموج المتراكب ، ويشير إلى الماء بأصابعه وينادى : الغريقَ الغريق : والنجدةَ النجدة ، فالتفتنا حيث أشاروا ، فإذا رجل بين معترك الأمواج يصارع الموت والموتُ

يصرعهُ ، ويغالب القضاء والقضاء يغلبهُ ، يطفو تارة فيمدُّ يده إلى الناس فلا يجد يداً تمتدّ إليه ، ويرسب أخرى حتى تنبسط فوقه صفحة النهر فنحسبه من الهالكين ، وما زال يتخبط ويتشبث ، ويظهر ثم يختفي ، ويتحرك ثم يسكن ، حتى كلّ ساعده ، ووهت قوته ، وابيضت عيناه ، واستحال أديمهُ ، ولم يبقَ أمام أعيننا منه إلا رأس يضطرب ، ويد تختلج ، فبكى الباكون ، وأعول المعولون ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض كأنما يتساءلون عن رجل رحيم ، أوشهم كريم ، وإنهم لكذلك إذا رجل عار يدفع الجمع بمنكبيه ، ويتزلق بين الناس انزلاق السهم إلى الرميّة ، حتى ألقى بنفسه في النهر وسبح حيث هبط الغريق فهبط وراءه ، وماهي إلا نظرة والتفاتة أن انفرج الماء عنهما فإذا هما صاعدان ، وقد أمسك الرجل بذراع الغريق . فكبر الناس إعجاباً بهمة المخلص ، وفرحاً بنجاة المسكين ، ولكنا ما كدنا نستفيق من هذا المنظر المحزن حتى راعنا منظر آخر أجلّ منه وقعاً وأعظم هولا : فقد رأينا الغريق كأنما جنّ جنونه فظنّ أن مخلّصه يريد به شراً ، وأنه ما أمسك بذراعه إلا وهو يريد أن يهوي به إلى قاع الماء فيعيدَ سيرته الأولى ، فأفلت منه وضربه بجُمع يده في صدره ضربة شديدة ، ثم أنشب أظافره في عنقه ولفه بساقيه لفة خلنا أن عظامه تئن لها أنيناً ، فاستيأس الرجل وعلم أنه هالك ما من ذلك بدٌّ ، فرفع يديه إلى السماء وهتف باسم أظنه اسمك ياماجدولين ، فلم أفهم ماذا يريد ، ولا من هي تلك التي يريد ، ثم ما لبثا أن هوى الماء بهما ، وجرى مجراه فوقهما ، فخفقت القلوب ، ووجفت الصدور وخفتت الأصوات ، وامتدّت الأعناق ، وتواثبت الأحشاء ،

وتزايلت الأعضاء ، ومشى اليأس فى الرجاء مشى الظلال فى الأضواء ، ومرت على ذلك دقائق لاتضطرب فيها موجة ، ولا تهب نسمة ، ففزعت إلى أبى ذاهلة حائرة وقلت أيتعذبُ الغرقى كثيراً فى مصارعة الموت ؟ فبكى لبكائى وقال : نعم يابنية ، ولقد يبلغ الأمر ببعضهم أن يدور بيده فى قاع الماء يفتش عن حجر يضرب به رأسه ضربة قاضية يستريح بها من الآلام والأوجاع . فركعتُ على كثيب من الرمل ورفعتُ إلى السماء يدى وقلت : اللهم إنك أعدل من أن تجازى بالإحسان سوءاً وبالخير شرا ، فلقد أبلى هذا الرجل فى إنقاذ هذا الغريق بلاء حسناً ، وبذل فى سبيل ذلك من ذات نفسه ماضنّ به الناس جميعاً . فامدد يدك البيضاء التى طالما مددتها لإنقاذ البائسين . واكشف عنه كربته التى يعالجها إنك أرحم الراحمين .

ثم استغرقت فى دعائى ، فلم أعد أشعر بشىء مما حولى ، حتى سمعت ضجة على الشاطئ فاستفقت ، فإذا النهر يتثاءب عن الرجل ، وإذا الرجل صاعد وحده حتى بلغ سطح الماء فهتف به الناس أن انجُ بنفسك فقد أبليت ، فأبى عليه كرمه ووفاؤه أن يكون قاسياً أو منتقما ، فألقى بنفسه فى الماء مرة أخرى ، وعاد بالغريق يحمله على كتفه ، ومازال يسبح به حتى بلغ الشاطئ فسقطا جميعاً . فتولى القوم أمرهما ، ومازالوا بهما حتى أفاقا ، فمشى الغريق إلى مخلصه بعد ما ألمّ بقصته معه يتوجع له ويمسحه . ويشكر له يده عنده ، ويعتذر له عن ذنبه إليه ، ثم انفض الجمع ، وبقى الرجل وحده فلبس ثيابه ثم مشى يتحامل على نفسه إلى شجرات بنفسج كنّ على الشاطئ فأخذ يقتطف من زهراتها ويضعها فى منطقته . كأنما يريد أن يتخذ منها

طاقة يجعلها لتلك الحادثة تذكاراً ، فتركناه على حاله وعدنا إلى المنزل صامتين محزونين ، وقد فاتنا ما كنا نؤمل من زيارتك فى ذلك اليوم .

لا أستطيع أن أكتب إليك غير هذا ، فقد أصبحت لا أذكر تلك الحادثة إلا وأجد لذكراها من الألم فى نفسى ما يخيل إلىّ أنها حاضرة بين يدىّ ، وربما كتبت إليك فيما بعد ، والسلام .

١١

المكاشفة

مال ميزان النهار ، وانحدرت الشمس إلى مغربها ، ودب الظلام فى الأضواء ، دبيب البغضاء فى الأحشاء ، وسكن كل صوت إلا صوت العصافير المزدحمة على أبواب أعشاشها ، وجلس استيفن فى الحديقة تحت أشجار الزيزفون يترقب نزول ماجدولين . وقد كتب لها كتاباً نطقَ فيه قلبه بما عجز عنه لسانه ، فنشره بين يديه وأنشأ يقلب نظره فيه . فخيل إليه أنه غير مستعذب ولا سائغ ، وأن فى كل جملة من جمله موضع ضعف . فاستقر رأيه على أن يطويهُ حتى يكتب لها خيراً منه ، ثم رآها مقبلة نحوه تحمل فى يدها كتاباً ، فلما دنت منه ابتسمت له وقالت له : أتذكر ياسيدى مكان الشجرات التى اقتطفت منها زهرات البنفسج التى أهديتها إلىّ ، فاضطرب لسؤالها ، وقال نعم : إنها على ضفة نهر صغير يبعد عنا فرسخاً أو فرسخين ، قالت اقرأ هذا الكتاب فإن لك فيه ذكراً ؛ فأخذ منها كتاب

سوزان فى حادثة الغرق وأمرّ نظره عليه إمراراً فعرف كل شىء ، فرده إليها صامتاً وهو لايدرى ماذا يقول ، فقالت : إنك تكتم عنى نفسك يا استيفن ، فقد عرفتُك وعرفت يدك البيضاء فى حادثة الغرق وبلاءك فيها وماعالجت من آلام التى على أثرها ، ثم مدت يدها إليه مصافحة ، فلم يكن بين تلامس كفيهما ، وخفوق قلبيهما ، إلا كما يكون بين تلامس أسلاك الكهرباء واشتعال مصابيحها ، ولبثا بعد ذلك ساعة صامتين لا ينطقان ، إلا أن فى الجبين لغة لا تقرأها إلا العيون ، فقرأ استيفن فى وجه ماجدولين لوعة الحب ، وألم الحزن ، واضطراب الجأش وحيرة النفس ، وقرأت فى وجهه الحب والسعادة والدهشة والسرور المتلألئ والدمع المترقرق ، فهاجها هذا المنظر فأرسلت من محاجرها أول دمعة من دموع الحب ، فبكى لبكائها وحنا عليها حنو المرضعات على الفطيم ، وشعر فى نفسه وقد ضمها إليه بتلك العاطفة اللذيذة التى يجدها الغريب النائى عن أهله وجيرانه إذا لاقى فى مَطارح غربته غريباً مثله يأوى إليه ، ويحنو عليه ، ثم أخذ بيدها فألصقها بكبده كما يفعل المريض بيد عائده ليدله على موضع ألمه ، وكأنما هو يقول لها : إن لغة اللسان لا تكشف لكِ عما اشتملت عليه أضالعى من الوجد بك ، والحنين إليكِ ، فالمسى قلبى بيدك لتعرفى مكنونه ، وتكشفى غامض سريرته ، ثم خر راكعاً بين يديها وقال : أتحبيننى ياماجدولين ؟ فلم تجب ، فأعاد كلمته فاستمرت فى صمتها ، فمد يده إليها ضارعاً وقال : رحماكِ يا ماجدولين ، إننى أخاف أن أكون فى حلم ، وأن تكون هذه السعادة التى أراها بين يدىّ خيالا من الخيالات الكاذبة التى كانت تتراءى لى فى أحلامى

الماضية فأغتبط بها وأسكن إليها حتى إذا ما استفقت وجدت يدى صِفراً منها ، فأسمعينى كلمة الحب لأعلم أنك حاضرة لدىّ ، وأنى لست واهما ولا حالما .

ومرت بهما على ذلك ساعة لا يعرف مكانها من نفسهما إلا من مرت به فى يوم من أيام شبابه ساعة مثلها ، فقد كانا يشعران أنهما فى معزل عن العالم ، وأن مكانهما من تلك الحديقة فى انفرادهما وسكونهما وهنائهما وغبطتهما مكان آدم وحواء من جنتهما ، قبل أن يأكلا من الشجرة ويهبطا إلى الأرض ، وأن روحهما قد تجردت عن جسمهما فطارت ترفرف بأجنحتها فى فضاء الملإ الأعلى ، فرأت مدارات الشموس فى أفلاكها وحركات الكواكب فى منازلها ، ومرّت بين صفوف الملائكة ، وسمعت زَجلها وتسبيحها تحت قوائم العرش ، ودخلت جنة الخلد فرأت حورها وولدانها ، ولؤلؤها ومرجانها وروحها وريحانها . فلم يستفيقا من غمرتهما حتى سمعت ماجدولين صوت جنفياف تناديها ، فمدّت إليه يدها مودّعة وهى تقول : غداً فى مثل هذه الساعة فى هذا المكان ، فمد يده إليها ذاهلا لا يعلم ماذا يراد به ، ثم مضت ومضى بنظراته على آثارها حتى اختفت آخر طية من طيات ردائها الأبيض ، فجمد فى مكانه ساعة لا يتحرك ولا يلتفت كأنما يتخيل أنها لا تزال جالسة بين يديه ، فلما سمع خفق بابها دار بعينيه حول نفسه يَمنة ويَسرة فعلم أنه جالس وحده .

١٢

خرج استيفن بعد ذهاب ماجدولين هائماً على وجهه يعدو فى عرض الفضاء ينحدر إلى يمينه مرة وإلى يساره أخرى ، كأنما يريد أن يُشهد الأرض والسماء ، والبحار والأنهار ، والجبال الشماء ، والسهول الفيحاء ، والحيوان الناطق ، والجماد الصامت ، على سروره وغبطته . وكان يشعر فى نفسه أن السعادة التى نالها هى فوق مايحتمل طوقه ، فكان كلما مرّ بأحد من الناس حدّثته نفسه أن يُفضىَ إليه بقصته ليحمل عنه جزءا من سعادته ومر بأطفال يلعبون فجمعهم حوله وأخذ يقبلهم واحداً بعد واحد ، ثم نثر عليهم كل ما معه من المال ، وبوده لو ملك مفاتيح الأرزاق فأسبغ على الناس جميعاً أنعمه وآلاءه فمحا بؤسهم وشقاءهم ؛ وما زال يتغلغل فى أحشاء الظلام متيامنا متياسراً صاعداً منحدراً ، حتى رأى باب الحديقة مفتوحا بين يديه فاقتحمه ومشى إلى مكانه الأول فجلس فيه وأخذ ينظر إلى شعاع النور المنبعث من بين ستائر غرفة ماجدولين فخيل إليه أنه يرى قيامها وقعودها ، وجيئتها وذهابها . ويسمع حفيف ثوبها . وخشخشة أوراق كتابها ، حتى انطفأ المصباح ، فصعد إلى غرفته وجلس إلى مكتبه يكتب إليها كتابا طويلا ، ثم نال منه التعب فقام إلى سريره ونام نوما هادئاً لذيذاً حلم فيه أحلاما ما رأى مثلها بعد ليالى طفولته الجميلة .

١٣

من استيفن إلى ماجدولين

لا أزال أشعر حتى الساعة بجمال ذلك المقام الذى قمته بين يديك أمس ، ولا أزال ألمس صدرى بيدى لأعلم أين مكان قلبى من أضالعى مخافة أن يكون قد طار سروراً بتلك السعادة التى هى كل ما يتمنى المخير أن يكون ، والتى لاأعتقد أن أبناء الخلود يقدرون لأنفسهم فى دار نعيمهم خيراً منها ، ولو أن لامرئ أن يعبد من يُسدى إليه أفضل النعم وأسبغها ؛ وأجمعها لكل خير وبر ، لوجدتنى يا ماجدولين ساجداً بين يديكِ فى كل مطلع شمس سجود العبد الشاكر للإله المنعم .

إن الله لم يهبنى نعمة الجمال التى وهبكِ ، ولم يحمِّلنى بمثل ما حملك به من رقة الحس ، وعذوبة النفس ، فإن أنت أحببتنى فقد أحببت فتى مجرداً من مزايا الفتيان لا يستطيع أن يَمُتّ إليك بمثل ما تمتّين به إليه ، ولا أن ينيلك من السعادة ما أنلته منها ؛ فإن كنت ترين أن الإخلاص فى الحب ، والوفاء بالعهد ، وهبة النفس هبة خالصة بلا ندب ولا أسف ، مزية أستحق لها محبتك ، فها أنذا أقدمها بين يديك ، فتقبليها منى وقولى إنك سعيدة بى ، كما أنا سعيد بك .

١٤

العهـــد

قدّم استيفن كتابه إلى ماجدولين يداً بيد فدهشت حينما رأته وألقت عليه نظرة الحائر المتردّد ، فنظر إليها استيفن نظرة المتوسل المستعطف ، فتناولته منه وخبأته فى ثنايا صدارها ، وقالت أصحيحٌ يا استيفن ماحدّثنى به سوزان فى كتابها أن اسمى كان آخر كلمة هتفت بها فى الساعة التى كنت تحسب أنها آخر ساعاتك فى الحياة ؟ قال نعم ، ولقد نلتُ ببركة هذا الاسم ما كنت أقدّر لنفسى من النجاة عندما هتفتُ به ، فقد علمتُ أن الله مامنحكِ هذه المنحة من الجمال ، ولا جمّلك بما جمّلك به من محاسن الخلال ، إلا وأنتِ آثَرُ بنات حواء عنده ، وأكرمهنّ عليه ، فهو أضن بك من أن يجرح قلباً يخفق بحبكِ ، أو يخرس لساناً يهتف بذكركِ ، فعذتُ باسمكِ فى شدّتى كما يعوذ المؤمن فى شدّته باسم الله ، فكان لى خير معاذ وملاذ ، قالت : إنك قد لقيت فى شدّتك هذه عناء كثيراً ولقد كنتَ فيها فعلتَ من القوم المحسنين ، قال ما كنتُ محسناً قبل اليوم ، ولكنه الحب يملأ القلب رحمة وحناناً ، ويصغر فى عينيه عظائم الأمور وجلائلها . ويوحى إليه أفضل الأعمال وأشرفها ، أما مالقيتُ فى ذلك اليوم فقد كان فوق مايحتمل المحتمِل ، فقد خيل إلىّ أنى أهوى فى منحدر لا أعرف له قراراً ، وأن جسمى يتفتح عن روحى تَفَتحاً فتمّلس منه امّلاسَ الفرخ من بيضته ، فلما ذكرتكِ استروحتُ من ذكراكِ ما استروح يعقوبُ من

قميص يوسف ، فلما نجوتُ علمت أنك سبب نجاتى ، فما بلغت الشاطئ حتى جمعت تلك الزهرات ، فأرسلتها إليك تذكاراً لتلك النعمة السابغة التى أسديتها إلىّ ، فمدت يدها إلى صدرها ، وأخرجت منه طاقة زنبق وقالت : إن أبى قد جمع لى هذه الأزهار صباح هذا اليوم فأنا أقدمها إليك رداً لتحيتك التى حييتنى بها ، فتناولها منها ونثرها بين يديه وأخذ يؤلف بين أشتاتها وينظمها فى سلك مستدير ؛ حتى صارت إكليلا جميلا ، فوضعه على رأسها وقال : إن من يرى هذا الإكليل الزاهر فوق هذا الجبين الساطع لا يرى إلا أنه إكليل عُرس على رأس عروس ، فأخذت كلتُه هذه مأخذها من نفسها فأطرقت قليلا ثم رفعت رأسها فإذا دمعة رقراقة تترجح فى محجريها ، فقال لا تبكى يا ماجدولين ، فما فى قُوى هذا العالم كلها قوة تستطيع أن تحول بينى وبينك ، قالت : إنما أبكى خوفاً من الحب ، وما أنا إلا فتاة مسكينة منقطعة أشعر بالحيرة التى تشعر بها كل فتاة لا أم لها ترشدها ، ولا ناصر لها يعينها ، قال ألا تعتقدين أن قلبك نقىٌّ طاهر ؟ قالت ذلك ما أعتقده وأُشهد الله عليه ، قال إذن فالله هو الذى ينصركِ ويعينك ، وهو الذى يأخذ بيدكِ فى حيرتكِ ، وينير لك السبيل فى ظلمات هذه الحياة ، لا تخافى من الحب يا ماجدولين ، ولا تخافى من غضب الله فيه ، واعلمى أن الله الذى خلق الشمس وأودعها النور ، والزهرةَ وأودعها العطرَ ، والجسم وأودَعه الروح ، والعينَ وأودعها النور ، قد خلق القلب وأودعه الحب ؛ وما يبارك الله شيئاً كما يبارك القلبين الطاهرين المتحابين ، لأنهما ما تحابا إلا إذعاناً لإرادته ، ولا تعاقدا إلا أخذاً بسنته فى عباده ،

فامددى إلىّ يدك ، وأقسمى بما أقسم به أن نعيش معاً ، فإن قُدر لنا أن نفترق كان ذلك الفراق آخر عهدنا بالحياة ، فمدّت إليه يدها فتقاسما وتعاهدا ، وكانت الشمس قد انحدرت إلى مغربها فافترقا .

١٥

من استيفن إلى ماجدولين

كتبت إليكِ كثيراً ، فلم تكتبى إلىّ كثيراً ولا قليلا ، لأنك تعتقدين مايعتقده كثير من النساء من أن المرأة التى تكتب إلى حبيبها كتاب حب : آثمة أو غير شريفة ؛ أما أنا فأعتقد أنها إن لم تفعل فهى مرائية مصانعة ، لأن المرأة التى وهبت قلبها هبة خالصة لا يخالطها شك ولا ريبة ، لاترى مانعاً يمنعها من أن تكتب لحبيبها فى غيبتهِ ، بمثل ما تحدّثه به فى حضرتهِ .

إن الحيطة فى الحب رأىٌ تراه لنفسها المرأة البغىُّ التى تتخذ لها كل يوم حبيباً تُقسم بين يديه بكل محرجة من الأيمان أنها مافتحت باب قلبها لزائر قبله ، فهى تخاف أن تسجل بيدها على نفسها فى يومها مايفسد عليها أمرها فى غدها ، أما المرأة الشريفة فما أغناها عن ذلك كله ، لأنها تحب فتُخلص فتقول ، فتكتب ماتقول .

أكتبى إلىّ يا ماجدولين ، فإن الذى يستطيع أن يكتم سر حديثكِ ، لايعجز عن أن يكتم سرّ كتابكِ ، واعلمى أن رجلا غيرى ذلك الذى يتخذ من رسائلك سيفاً يجرده فوق عنقك ، إن بدا لك فى الفرار منه رأى ،

وإن فتاة غيرك تلك التى ترضى لنفسها أن تهب قلبها إلى رجل يتجر بأسرار النساء .

١٦

البحيرة

مضت على استيفن وماجدولين بعد ذلك أيام كانا يلتقيان فيها فى المنزل أو فى الحديقة أو فى الغابة أو على ضفة النهر ، وكثيراً ماكانا يجلسان بجانب شجرات البنفسج ، ويذكران حادثة النهر ؛ وطاقة الزهر ، وأحياناً كانا ينزلان فى زورق صغير يسيران به فى البحيرة ساعة أو ساعتين ثم يعودان .

فنزلا فى الزورق يوماً وكانت الشمس قد لبست ثوبها الثالث ثم ما لبثت أن هوت إلى مستقرّها على أن ترسل من خلفها سليلها القمر إلى هذا الوجود ليقوم عنها بحراسته حتى تعود إليه ، فأمعنا فى البحيرة وكانت هادئة ساكنة كصفحة المرآة ، وكان النسيم بارداً رطباً يترقرق فيلامس الوجوه بخفة كما تلامس يد الحسناء وجه حبيبها ، وقد سكن كل شىء إلا صوت قطرات الماء المنحدرة من المجاذيف إلى البحيرة ونقيق الضفادع من حين إلى حين ، ثم هتك القمرُ ستر الظلام وأرسل أشعته الزرقاء الى الزورق والبحيرة والشاطئ وماوراء ذلك ، فكانا يريان على ضوئه بعض الأشجار كأنها أشباح متحركة ، ويتخيلان أن عيون الحشرات السارية بين لفائف الأعشاب شرر ينقدح ، فلذّ لهما هذا المنظر البديع ، وذلك السكون العميق ،

وتلك الوحدة التى لايكدرها عليهما مكدر ، وتركا الزورق يمشى بهما حيث يشاء ، وينحدر كما يريد ، وأنشآ يتحدثان ، فقال استيفن : إنى أوثر ياماجدولين أن يكون البيت الذى نسكنه فى المستقبل على شاطئ بحيرة كهذه البحيرة ، وأن يكون لنا زورق أوسع من هذا الزورق وأجمل منه شكلا نقضى فيه الليالى المقمرة بين الرياضة والصيد والاستجمام ، ولابد أن يكون للمنزل حديقة صغيرة نغرس بها مانشاء من الكروم والأعناب والأزهار والأنوار ، وسأتولى بنفسى غرس شجرات البنفسج لك ، وسأنشر على جدران الحديقة والمنزل غلائل رقيقة من الخضرة اليانعة ، أما المنزل فأرى أن يكون مشتملا على طبقتين ، طبقة عليا يكون فيها أربع غرف ، غرفة للأضياف ، وأخرى للمكتبة ، وأخرى للملابس ، وصمت لحظة ، ثم قال : أما الرابعة فهى التى تكون لى ولك ، فاحمرت ماجدولين خجلا ثم قالت : لقد فاتك أن تذكر غرفتين أخريين ، إحداهما لأخيك والثانية لأبى ، قال : نعم ؛ لقد فاتنى ذلك فلا بد إذن أن تكون الطبقة العليا مشتملة على ست غرف ، أما الطبقة السفلى فتشتمل على قاعة الطعام ومخزن المؤونة وبيت الخدم والحمام ، إلى مايلحق ذلك من مرافق البيت وحاجاته ، قالت : لقد فاتك أيضاً أن الحديقة لايجمل منظرها إلا إذا كان فى وسطها حوض صغير يتدفق ماء نميراً ، قال : نعم وسنتخذه لتربية الأسماك الملونة ، ولايفوتنا أن نحوطه بسياج عال من الأغصان المشتبكة وقاية لأطفالنا الصغار .

فأخذت هذه الكلمة مأخذها من نفس ماجدولين ، واصفر لها وجهها ، ثم أطرقت برأسها طويلا ، فحنا عليها استيفن وسألها عما بها ، فرفعت رأسها

فإذا هى تبكى ، فقال : مابك يا ماجدولين ، قالت إن الدهر يا استيفن أضن بالسعادة من أن يهبها كلها لشخص واحد ، وأخاف أن نكون كاذبين فى آمالنا ، أو مخطئين فى تصور مستقبلنا فليت الدهر — إن كان يعلم أنه سيحول بيننا وبين سعادتنا فى المستقبل ويكدر علينا صفو عيشنا بفاجعة من فواجعه أو نازلة من نوازله — أن يمد إلينا يده فى هذه الساعة فيستل حياتنا من يدى أجلنا ؛ لنخف فى أفواهنا مرارة الموت ؛ قال : لاتخافى ياماجدولين ، فان سلطان الدهر لاتمتد يده إلى مواقف الحب إلا إذا أراد المحبون أنفسهم أن يكون له هذا السلطان عليهم ، فكونى معى أتخذ من حبك عدة أنازل بها حوادث الدهر وأرزاءه ، وأفسد عليه حوله وقوته ؛ فصمتت واجمة ، ثم ألقت نظرها على البحيرة وبجرى الزورق منها وقالت : لو أن لامرئ أن يتمنى لنفسه مايشاء لتمنيت أن يكون هذا الطريق الذى نسير فيه طريق الأبدية ، وأن يظل هذا الزورق مطرداً بنا فى مسيره لا يقف فى طريقه شىء حتى يلج بنا أبواب السماء .

ثم تنفست الصعداء وقالت : حسبُنا يا استيفن ؛ فقد أوشك القمر أن يغيب ، وأنا لا أحب أن أرى مَغيبه ، لأنى أخاف أن تغرب سعادتنا بغروبه ؛ فنظر إليها واجماً مكتئباً كأنما دار بنفسه مادار بنفسها من المخاوف والأوهام ، ثم قام إلى المجاذيف يحركها واضطجعت تحت قدميه ، ومازالا حتى بلغا الشاطئ ثم مشيا حتى بلغا المنزل ، فلما أرادا أن يفترقا أدنى يدها من فمه يحاول أن يقبلها ، فأبت ، فقبلها فى جبينها فارتعدت ، وألقت عليه نظرة عتب أخذت من نفسه مأخذها وانصرفت .

١٧

من ماجدولين إلى استيفن

ماذا صنعت يا استيفن ؟ إنك سلبتنى الليلة الماضية راحتى وسكونى ، فإنى كلما تذكرت تلك القبلة التى وصمت بها جبينى شعرت كأن ناراً مشتعلة تتأجج بين أضالعى ، وأن صحيفتى التى لم تزل بيضاء حتى ليلة أمس قد أصبحت تضطرب فى بياضها الناصع نقطة سوداء ، فأحاول أن أطردها من أمامى فأكون كالأرمد الذى يحاول أن يطرد الغشاوة السوداء عن عينيه فلا يستطيع ؛ لقد سكبت عيناى كثيراً من العبرات ، وتوسلت كثيراً إلى الله تعالى أن يغفر لى ذنبى ، ولا أدرى ماهو صانع بى ، ولا كيف أستطيع أن أقف بين يديه يوم الحساب بهذا الجبين المسودّ من الإثم ؛ وهذا الوجه المحمر من الخجل ؟ لا أكتمك يا سيدى أنى لولا أن عزيت نفسى عن هذه النكبة بأنك أخذت منى تلك القبلة أخذاً ، ولم أمنحها لك منحة ، لقتلت نفسى بيدى . لا تعد إلى مثلها يا استيفن إلا إذا أردت أن ترانى يوماً من الأيام بين يديك جثة هامدة .

١٨

من استيفن إلى ماجدولين

ما كنت أعلم قبل اليوم أن الفتاة التى تحب ، وتعاهد من تحب ، وتقسم بين يدى حبيبها يمين الإخلاص والوفاء على أن تكون له كما يكون

لها ، وألا تجعل ليد غير يد الموت سبيلا إلى التفريق بينهما — تستكثر عليه قبلة شريفة يأخذها من جبينها كما يأخذها الأخ من جبين أخته ، والمتعبد من يد كاهنه .

ما أحسب إلا أنكِ قد خدعتِ نفسك بنفسكِ يا ماجدولين حين ظننت أنك عاشقة ، وما أنت من الحب فى شىء لأن الفتاة التى تحب لا ترى بأساً فى أن تمنح القبلة لحبيبها منحة ، ولا تنتظر أن يأخذها منها أخذاً .

الآن عرفتُ أن بكاءكِ بين يدىّ ، واضطراب يدك فى يدى ، وخفوق قلبك عند رؤيتى ، إنما كان أثراً من آثار الخوف لا مظهراً من مظاهر الحب . وأن عطفك علىّ ، وتحببك إلىّ ولصوقك بى ؛ لم يكن لأنك كنت تحبيننى ؛ بل لأن فتاة مسكينة ضعيفة مثلك لابد لها أن تشعر بالميل إلى كل رجل قوى بجانبها .

تقولين لى إنكِ قضيت ليلك أمس معذبة ، لا يهنأ لك مضجع . ولا يغتمض لك جفن ؛ أما أنا فأقول لك : إنى لم أقض فى حياتى ليلة أهنأ من تلك الليلة ؛ لأنى بت أتخيل تلك القبلة التى تناولتها من جبينك كأنها ثغر منضد يبتسم إلىّ أرق ابتسام وأعذبه ؛ فأشعر بروح الحب تدب فى أعضائى دبيب الحميا فى وجه شاربها ؛ أما اليوم فإنى أصبحت أتخيلها تمثالا جامداً من الحجر الصلد ماثلا بين يدىّ لا يتحرك ولا ينطق .

عفواً يا ماجدولين . فإنى ما تناولت تلك القبلة من جبينك إلا وأنا أعتقد أنى أقبل زوجتى . لأنى لا أرى فرقاً بين عهد الإخلاص الذى يؤخذ بين يدى الحب ، وعقد الزواج الذى يعقد بين يدى الكاهن . وأشكر لك

تلك الساعات القليلة التي سعدت فيها على يدك ، وإن كانت سعادة موهومة . ويمكنني أن أقول لك إني ما نقضت — حتى الساعة — ذلك العهد الذي عاهدتك عليه ؛ وإني لا أزال أحبكِ كما كنت : لأني ما كنت أحببتكِ لأجازيك على حبٍّ بمثله ، ولا لأنكِ جميلة أو عاقلة أو ذكية ؛ ولا لشيء مما يحب الرجالُ له النساء ؛ بل أحببتك للحب نفسه والسلام .

١٩

من ماجدولين إلى استيفن

عفواً يا استيفن فما كنت أحسب أن كلمتي بالغة منك ما بلغت . أو أنها ذاهبة بك هذه المذاهب كلها ؛ فاغفر لي ذنبي ؛ فوالله ما احتفظت بعرضي إلا لك ، ولا منعتك نفسي اليوم إلا لأبذلها لك غداً ؛ أنت اليوم حبيبي ، وغداً تكون زوجي ؛ وكل ماصنعتُه أني توسلت إلى حبيبي أن يرفني طاهرة نقية إلى زوجي ؛ أما الخداع الذي تذكره في كتابك فأنا أعتقد أنك تعلم من أمري غير ماتقول ، ولكنك غضبت فقلتَ غير ماعلمت .

٢٠

من مولر إلى استيفن

أكتب إليك كتابي هذا ويدي ترتعد خجلا ، ونفسي تسيل حزناً ، لأني ماكنتُ أقدر في نفسي أن ستمر بي ساعة من ساعات حياتي أرى

نفسى مضطراً أن أقول لصديق الذى أجله وأعظمه وأنزله من نفسى خير منزلة : إنى لا أستطيع أن أستقبلك فى منزلى بعد اليوم ، بل لا أستطيع أن أحتمل بقاءك فى المنزل الذى أسكنه وتسكنه ابنتى ، لأن لى شرفاً أبقى عليه أكثر مما أبقى على صداقة الأصدقاء . على أنى أرجو ألا تزال تعدنى صديقك المخلص إليك ، كما أنى لا أزال أعدك كذلك ، وإن فرقت بيننا الأيام .

٢١

حديث

جلست ماجدولين فى غرفتها تخيط ثوباً لها ، ربما كانت تعده لليلة عرسها فندرت إبرتها من يدها فرفعت رأسها فإذا أبوها ماثل بباب الغرفة فدهشت لمرآه وراعها منظر سكونه وجموده : ثم مشى إليها بقدم مطمئنة حتى وضع يده على عاتقها وقال : أتعلمين ياماجدولين أنى أرسلت جنفياف الساعة بكتاب إلى استيفن أمنعه فيه من دخول بيتى ، بل أمنعه من البقاء فى منزلى ؟ قالت : لا أعلم من ذلك شيئاً ، ولا أعرف لصنيعك هذا سبباً ، قال : لا سبب له إلا أنه يحبك ، قالت : إنه لا يحبنى ، ولكنه يحب أن يتزوج بى ، قال : ذلك مالا أريد أن يكون ، قالت : ولماذا ؟ قال : لأنه لا يصلح أن يكون زوجاً لك ، قالت : أنا أعلم أنك اتخذته لنفسك صديقاً ، وأنك تعرف له مكانه من الفضل والنبل ، فكيف ترضى أن تتخذ لنفسك صديقاً

من لا ترى أنه يصلح أن يكون لابنتك زوجاً ؟ قال : إنى أصادقه لأنه شخص كريم ، ولا أحب أن أصاهره لأنه بائس فقير ، فقد عثرت اليوم بكتاب سقط منه فقرأته فعرفت أنه لا يملك ما يقوت به نفسه ، فأحرى ألا يملك ما يقوت به أهله : قالت : إنك حدثتنى عنه أنه فتى ذكى متعلم ، ومَن كان هذا شأنه لا يكون بينه وبين الغنى إلا بضع جولات يجولها فى ميدان هذا العالم ، فيعود من بعدها رجلا غنيا ، وزوجاً صالحاً . قال: إن فى أخلاقهِ من الأنفة والترفع ما يحول بينه وبين النجاح ، قالت : إن الحب يقوم ما اعوجَّ من الأخلاق ، ويحيي ميت الأمل فى نفس المحب ، فلا تطفىء جمرة الحب التى تشتعل فى قلبه ، فإنك إن فعلت قتلته وقتلتَ أمله وأتلفت عليه حياته . قال : يا بنية إنى أعلم من أخلاق الناس وشئونهم مالا تعلمين ، وقد رأيتُ أنى أكون مخاطراً بكِ وبمستقبلك وبكل ما أرجو لكِ من سعادة فى العيش وهناء إن أنا رضيت لك هذا الزواج الذى أعلم أن شره أكثر من خيره ، بل أعلم أنه شرٌّ كله لا خير فيه ، فانظرى يا بنية فى أمر نفسكِ بعين غير عين الحب ، فإنها دائماً حولاء ، واذكرى أن أباك الذى يحبكِ وينزلك من نفسه منزلة لا يغلبكِ عليها غالبٌ لا يمكن أن يكون غاشًّا لكِ أو خادعا . فركعت بين يديه ومدت يدها إليه ضارعة وأشأت تسترحمه بالبكاء مرة ، والدعاء أخرى ، فكانت كأنها تستنبط الماء من الصخر ، أو تستنبت الربيع فى المهمه القفر حتى وهت قوتها ، فسقطت تحت قدميه فتركها مكانها ومضى لسبيله وهو يقول : إنكِ اليوم تجهلين ، وغداً تعلمين .

٣٣

الخـــبر

دخلت جنفياف على أستيفن فى غرفته وقد جلس إلى مصباح ضعيف يقرأ فى كتاب ، فأعطته كتاب سيدها ورجعت أدراجها ، وكان أول كتاب جاءه من مولر ، فمر بخاطره وهو يفض غلافه كلّ شأن إلا الشأن الذى كتب فيه ، فما أمر نظره عليه حتى فهم كل شىء .

فلو أن رامياً سدد إلى قلبه سهما حديداً فنفذ ، مابلغ منه مابلغ هذا الكتاب ؛ ولو أن نازلة من نوازل القدر هوت عليه فاختطفت نفسه من بين جنبيه لكان له فى مصابها رأىٌ غير رأيه فى هذا المصاب ، فقد سكن على أثر ذلك سكونا لا تطرف فيه عين ولا ينبض فيه عرق ، ولا يخفق قلب ، ولا يتحرك خاطر ، حتى ليكاد يعتقد الناظر إليه فى تلك الساعة أن هناك منزلة وسطى بين الحياة والموت ، تلبعث فيها الحواس فى سبلها ، ولكنها لاتعود إلى الدماغ بشىء مما تحس به .

واستمر على ذلك ساعة ، ثم انتفض انتفاض الطائر المذبوح ، ودار بعينيه يَمنة ويَسرة كأنما يفتش عن شىء أضاعه ، فوقع نظره على الكتاب وهو ملقى بجانبه فقرأه مرة أخرى ، ثم ضرب جبهته بيده وأنشأ يقول بصوت خافت : لا أمَل لى بعد اليوم ، هأنذا ، وها هو ذا الكتاب بين يدىّ ، ما أنا بحالم ، ولا الكتاب بكاذب ، نعم إن مولر طردنى من بيته ،

وقتل نفسى قتلا ، ويفنى فى جميع آمالى ، وحال بينى وبين ماجدولين : أى إنه فرق بين روحى وجسدى ، إنه فعل ذلك وهو لايدرى ماذا يفعل ، إنه اجترم هذه الجرائم كلها ساكناً هادئاً كأنما هو يعبث بنأسه فى أرضه ، أو يحوّل جدوله من طريق إلى طريق ، لقد قسا علىّ قسوة لم يقسها أحد من قبله على أحد ، إنه علم أنى فقير لا أملك شيئاً ، ورأى أن الفقر جريمة لاعقاب لها إلا القتل ، فقتلنى .

ثم كأنما جنّ جنونه فثار من مكانه ثورة الأسد الهائج ، وتمثل له كأن مولر ماثل بين يديه ؛ فمشى إليه مهدداً وصار يهذى ويقول :

مهلا ، رويداً أيها الشيخ الأبله ، أظننت أنى بين يديك شاة خرقاء أو دجاجة بلهاء تقدم نفسها لسكين الذابح حينما يريد ؟ لا لا ؛ أنا إنسان عاقل ، ورجل شجاع ، لابد أن يكون لى أمل أحيا به ، وسعادة أنعم بها ، ولابد أن أقاتل عن أملى وسعادتى حتى أبلغهما أو أقتل دونهما .

كذبت أيها الرجل ، إنك أضعف من أن تمد يدك إلى هذا الرباط المقدس فتقطعه . إنك أعجز من أن تنتزع شعرة من شعر رأسك البيضاء فأحرى أن تعجز عن أن تنتزع روحاً من جسدها .

إن الذى بينى وبين ماجدولين شىء لاتصل إليه يدك ، ولا يمتد إليه سلطانك ، ولا يتعلق به أمرك ونهيك . وعطاؤك ومنعك .

إنك تستطيع أن تطردنى من بيتك لأنك تملكه وأن تحبس ابنتك فى غرفتها لأنك أبوها ؛ ولكنك لاتستطيع أن تمنع قلبينا أن يتحابا ، ونفسينا أن تتصلا .

إن الذى خلق الإنسان وأسدى إليه نعمة الحياة والرزق لم يسترقّه بهذه النعم ، ولم يملك عليه قلبه ثمناً لها ، بل تركه حرا يحب من يشاء ، ويبغض من يشاء ، وأنت تريد أيها الشيخ الضعيف المسكين أن يكون لك على قلوب الناس سلطان فوق سلطان الله ، وإرادة فوق إرادته .

أىّ شأن لك عندنا ، وأىّ صلة لك بنا ؟ وقد ذهب عصرك وذهبت بذهابه ، وأصبحنا لانعد وجودك وجوداً ، ولا حياتك حياة ، فإن نظرنا إليك فكما ننظر فى ساعة من ساعات فراغنا إلى صفحة من صفحات التاريخ الغابر .

إن عقلك الذى بَلِى ورثَّ وانتشر فوقه طبقة سوداء من القدم ، لايصلح أن يكون مرآة صادقة نرى فيها وجوهنا ، ونتحاكم إليها فى سعادتنا وشقائنا .

إنك شره طمّاع ، رأيت أن ماء حياتك قد نضب ، وأن أغربة الفناء السود تحلق فوق رأسك المشتعل شيباً ، فعزّ عليك أن تموت فجئت إلينا تحاول أن تقاسمنا حياتنا الجديدة الغضة ، فكان مثلك كمثل ذلك الملك الظالم الذى كان يمتص دماء الأطفال ظنا منه أن ماينقص من حياتهم يزيد فى حياته .

إننى لم أكن أريد بك أيها الشيخ المأفون ولا بابنتك شرا ولا ضيراً ، بل كنت أعد لها عيشاً هنيئاً رغداً فى مستقبل حياتها ، فأنا خير لها منك ، لأنك ما أردت بها فيما صنعت اليوم إلا عذاباً دائماً وشقاء طويلا .

وأعجب من ذلك كله أنك تذكر فى كتابك الصداقة والإخاء

والإخلاص كأنك تظن أن البله قد بلغ منى مبلغه منك ، وأنى أجهل أنك شيخ مداج مصانع ، تكتب الحكم بالإعدام وكأنك تكتب بطاقة دعوى إلى وليمة ، وتقدم قطعة الحلوى وقد دسست فى باطنها ناقع السم ، وترفع قبعتك احتراماً لمن يقطر خنجرك من قلبه دماً .

وهنا بلغ منه التعب مبلغه ، فسقط مكبا على وجهه ، يبكى بكاء الطفل الصغير ، ويَنشج نشيجاً محزنا ، ثم جثا على ركبتيه ورفع وجهه إلى السماء وأنشأ يقول :

رحمتك اللهم وإحسانك ، فأنت تعلم أنى رجل ضعيف لا ناصر لى ولا معين ، فكن أنت ناصرى ومعينى ، اللهمّ إنى أعترف بأنى أذنبت إليك فى اغترارى بنفسى ، واعتدادى بحولى وقوّتى ، وأنى أغفلتُ قضاءك وقدرك ، وما تجريه على عبادك من أحكام السعادة والشقاء ، والسلب والعطاء ، فقدّرتُ لنفسى من سعادة المستقبل وهنائه مالا أملكه ولا سبيل لى إليه إلا بمعونتك وقوتك ، فاغفر لى ذنبى ، وخذ بيدى فى نكبتى ، فقد أصبحت أعجز الناس عن الصبر والاحتمال .

ثم سكن بعد ذلك سكوناً عميقا ، ولم يزل باسطا يديه رافعا رأسه إلى السماء ، كأنما كان ينتظر أن يسمع هاتفا يهتف به من الملإ الأعلى : فلم يلبث أن رأى من خلال دموعه الحائرة فى عينيه شبحا من نور يتلألأ أمامه ، وكان المصباح قد انطفأ وأضاءت الغرفة بأشعة القمر فمسح دموعه بيمينه ونظر ، فإذا هى ماجدولين .

٣٣

الوداع

لبثت ماجدولين فى غرفتها بعد أن فارقها أبوها ساعة تقلب النظر فى أمرها ، فلا ترى فى ذلك الظلام الحالك نجما يتلألأ ، ولا ذبالة تضىء . فبكت ماشاء الله أن تفعل حتى مضى الليل إلا أقله ، فحدثتها نفسها بأمر ماكانت تحدثها به لولا لوعة الحب ، ولجعة البين ، وقامت تختلس خطواتها اختلاساً وما على وجه الأرض قلب أضعف من قلبها ، ولا لوعة أشد من لوعتها ، حتى وصلت إلى السلم فصعدت تسترق درجاته حتى انتهت إلى أعلاه فوقفت قليلا تستغفر الله من ذنبها ، وتسأله إحسانه ورحمته ، ثم مشت إلى غرفة استيفن ودفعت الباب قليلا ، فرأته جاثياً على ركبتيه يهتف بدعائه ؛ فأثر منظره فى نفسها ، وأخذت تبكى لبكائه ، وتدعو بدعائه ، حتى التفت فرآها ، فخفق قلبه خفقاً متداركا ، وتعلقت أنفاسه ، وجمد نظره ، وتزايلت أوصاله ، حتى مايكاد يتحرك من مكانه ، فمد إليها يده كالمستغيث المتلهف فدنت منه وقالت : إنى جئتك لأودعك يا استيفن ولا أستطيع أن أبقى عندك طويلا . فهل تستطيع أن تعدنى وعداً صادقا ألا تترك نفسك فى يد الهموم تعبث بها كيف تشاء وألا تجعل لليأس سبيلا إلى قلبك حتى يجمع الله بينى وبينك ؟ قال : ذلك أمره إليك ، فأنتِ التى تستطيعين أن تجعلينى شجاعاً صبوراً محتملا ، وأنتِ التى تملكين أن أحيا بالأمل ، أو أموت

باليأس ، قالت إنى أقول لك اليوم يا استيفن كلمة كان يمنعنى الحياء أن أقولها لك قبل اليوم ، وهى أنى أحبك حبا ملأ فراغ قلبى ، فما يسع غيره ، ونزل منه منزلة الروح من الجسد ، فما ينتقل عنه ، وقد عاهدتك على الزواج بين يدى الله ويدى ضميرى ، وما أنا بخائنة ضميرى ، ولا بكاذبة ربى ، فسافر يا استيفن ، وفتش عن سعادتنا فى كل مكان ، وبكل سبيل ، حتى تجدها ، وعد إلىّ بعد ذلك ؛ فإنى سأكون لك ماحييت : سافر حيث شئت ، وتقلب فى البلاد كما أردت ، وعد إلىّ بعد عام أو عامين أو عشرة أعوام أو أكثر من ذلك . فإنك ستجدنى كما تركتنى نقية طاهرة ، ووفية مخلصة ، واعلم أن الله ما ألهمنى الصبر عنك ، وألهمك مثل ذلك فى مثل هذا الموقف الذى تطيش فيه العقول وتطير رواجح الأحلام ، إلا وقد أراد بنا خيراً فى جميع شؤوننا ، وقدر لنا السعادة والهناء فى مستقبل أيامنا ؛ سافر يا استيفن غداً ، واكتب إلىّ بكل ما تلاقى من خير أو شر لأقاسمك سراءك وضراءك ، وسأكتب إليك كما تكتب الىّ .

فسكن ثائره قليلا ، وقال إن سفرى سيكون طويلا يا ماجدولين ، فهل لك أن تزودينى بقليل من الزاد أستعين به على بعد الشقة وعناء المسير ؛ فمدت يدها الى شعرها وقصت منه خصلة ، فأعطاها من شعره مثلها ؛ ثم تراجعت قليلا قليلا ؛ وهى تنظر إليه بعين ملؤها الحب والجزع ، والصبابة والدموع ، فقام إليها ليدركها فاختفت .

٣٤

السفر

استيقظ استيفن صباح يوم الرحيل وأطل من نافذة غرفته المشرفة على الحديقة فرأى الأفق يتفتح عن نفسه شيئاً فشيئاً ، ورأى الشمس قد هبت من مرقدها ، ولاتزال فى جفنها سنة الغمض ، ثم رآها وقد لبست ثوبها الأول وخطت بعض الخطوات إلى مطلعها ، فشت أمامها حاشية من الأضواء تتقدمها كما تتقدم الملك حاشيته فى مطلعه من باب قصره ، ثم نظر إلى السماء من ناحية المشرق وقد انتشرت فى أنحائها تفاريق السحب ، ومشت فى جلدتها جمرةُ النور . فخيل إليه أنه يرى هنالك برجاً عظيما تضطرم فيه النار اضطراماً ، وأن دخان تلك النار يتراكم فوقها مرة ، وينفرج عنها أخرى ؛ ثم رأى أشعة الشمس البيضاء تخالط حبات الطل ، فى أوراق الزهر والطل لم يجر ذائبه . فكان كأنه يرى أحجاراً من الماس تضيء فتنعكس عنها ألوان مختلفة بديعة تملك القلوب والأبصار . ولم يكن يسمع فى تلك الساعة من الأصوات غير طنين النحل وهو مكب على أزهاره يرشف كؤوسها ، ويتطاير من حولها كما تتطاير الأحلام اللذيذة حول أفواه الأطفال الصغار

فألقى على تلك المناظر كلها نظرة عامة لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع حينما ذكر أنه سيفارق عما قليل هذه الدار ، ويفارق بفراقها سعادته وهناءه ، ويفارق ظلال الزيزفون التى كان يجلس إليها مع ماجدولين ،

والجدول الذى كانا يمشيان بجانبه ، والزورق الذى كانا يتنزهان فيه ، والمقعد الذى كان يقتعده من الحديقة لينظر مجيئها ، أو ليرى خيالها من نافذة غرفتها ، والغرفة التى كان يشرف من نافذتها ليسمع نغمات صوتها العذب ، وطاقات الزهر التى كانت تهديها إليه فيستروح منها نسيمها ، فلم يزل يبكى بكاء الشيخ على عهود صباه ؛ حتى كادت تتلف نفسه ؛ ولولا أنه ذكر حديثها معه ليلة أمس فعزى نفسه عن فراقها بإخلاصها ووفائها . وما عقدت بينها وبينه من العهود لقضى فى مكانه أسفاً ، ثم قام إلى حقيبته فوضع فيها ملابسه ومرافقه ، ونزل إلى الحديقة فودع أزهارها وأشجارها ، ومجالسها ومقاعدها ، ولم يترك جذعا لم يقبّله ، ولا غصناً لم يلثمه . ولا مقعداً لم يمرغ خده فوقه ، ويبلله بدموعه ، ونقش اسمه واسم ماجدولين على كثير من المقاعد والجذوع ، واقتطف من كل شجرة زهرة ، وجمع تلك الأزهار فى طاقة واحدة ، وتركها على بعض المقاعد لماجدولين . ثم ذهب إلى البستانىّ واتفق معه على أن يحمله على فرسه إلى (كوبلانس) ثم فارق (وِلْفَاخْ) بين وجد يقتله ، وأمل يحييه .

٢٥

من ماجدولين إلى استيفن

سافرت يا استيفن وأصبحت بعيداً عنى ، وما أحسب أنى أراك فى عهد قريب ، فما أعظم بؤسى وشقائى ، وما أشد ظلمةَ الوحشة المحيطة بى لقد خدعت نفسى يوم أشرتُ عليك بالسفر ، فقد ظننت أن بين

جنبيّ ذخيرة من الصبر والاحتمال ، أقوى بها على تجرع كأس فراقك المريرة ، فلما فقدتُ وجهك علمت أنى فتاة ضعيفة بائسة ، لا تقوى على احتمال أكثر مما تطيق من الآلام والأحزان ، وأنى فيما أدليت به إليك من تلك النصيحة ، إنما كنت أحدث عن خواطر عقلى ، لا عن شعور نفسى

لقد كنت أرجو أن يكون آخر عهدى بك يوم رحيلك وقفة أقفها فى نافذة غرفتى أحييك فيها تحية الوداع ، وألقى عليك فيها آخر نظرة من نظرات الحب ، لولا أنى خفت عليك الجزع أن ترانى باكية ، وعلى نفسى التلف أن أراك جازعاً ، فافتديتُك وافتديت نفسى بهذه اللوعة التى تتأجج اليوم فى صدرى . فما أصعب الوداع ، وما أصعب الفراق بلا وداع !!

نزلتُ بعد سفرك إلى الحديقة فلم أجدك ، ووجدت على بعض مقاعدها طاقة الزهر التى تركتها لى قبل سفرك ، فلثمتها ولثمت شخصك فيها ، ثم مشيت إلى ذلك المقعد الذى كنا نجلس عليه معاً تحت شجرة الزيزفون فجلست فيه وحدى ، ونشرت بين يدىّ رسائلك الماضية ، وأنشأت أقرؤها وأصغى إلى حديثك فيها ، فخيل إلىّ أنك جالس بجانبى تحدثنى فما لفم ، وأن مايقع عليه نظرى فى صفحات رسائلك إنما هى نبراتٌ تسمعها أذنى ، لا خطوط تبصرها عينى ، فسكنت لذلك الخيال ساعةً سكونَ الطفل الباكى لنشيد المهد ، حتى سمعتُك تدعونى فى بعض أحاديثك : « يا خطيبتى » وهى تلك الكلمة الحلوة العذبة التى تهبط حلاوتها إلى أعماق قلبى كلما سمعتها . فانتفضت وألقيت نظرى على مكانك الذى تخيلتُه بجانبى فوجدتُه خالياً ، فعلمت أن تلك الساعات الجميلة التى مرت بنا

تحت هذه السماء الصافية ، وفوق تلك المقاعد الجميلة ؛ وبين مشتبك هذه الغصون والأوراق ، قد ذهبت ، ولم يبق لى منها غير ذكراها ؛ فبكيت ساعة طويلة لاعلم لى بمداها ، ثم استفقت فصعدت إلى غرفتى ، وجلست إلى منضدتى أكتب إليك هذا الكتاب .

فمتى تعود يا استيفن ؟ ومتى تعود بعودتك تلك الأيام الحسان ؟ !

٣٦

من ماجدولين إلى استيفن

لقد كابدت بالأمس ليلة ليلاء . فلم ينحدر كوكب الشمس إلى مغربه حتى سمعتُ صوت العاصفة يهدر فى كل مكان ، ورأيت آفاق السماء قد اربدّت واقشعرّت ، ثم ارفضّت عن غيوثها المنهلة ؛ فذكرت أنك لا تزال على الطريق ، وأنك تقاسى فى تلك الساعة من عثرات الطريق وعقباته ، وقفقفة البرد ورعشته عناء عظيما ، فالتحفت ردائى وأويت إلى بعض زوايا غرفتى وظللت أبكى على فراقك مرة وعلى شقائك أخرى ، وأذود النوم عن عينىّ ذياداً لأننى لا أستطيع أن أكون راضية عن نفسى ، ولا هانئة فى مضجعى ، إن نمتُ فى ساعة لا تجد فيها أنت إلى الراحة سبيلا ؛ حتى مضى الليل إلا أقلَّهُ ، فشعرت أن النعاس الذى كان يغالب جفنىّ قد غلبنى عليهما فنمت فى مكانى . نوماً مشرداً مذعوراً ، حتى استيقظت مع الصباح ؛ فإذا الريح ساكنة ، والشمس ساطعة ، والجو باسم طلق ، فحمدت الله على ذلك .

إنى أعد الساعات واللحظات يا استيفن : وأنتظر بشوق عظيم وصول أول كتاب منك يبشرنى ببلوغك مستقرك سالما ، فمتى يأتى كتابك إلىّ ؟

٢٧

من ماجدولين إلى استيفن

لم تكف الأربعون ساعة التى مرت بى لتخفيف شيء من همومى وأحزانى ، فلقد قضيتها حائرة الذهن مشردة اللب أقلب عينى فى كل مكان ، فلا أجد فى بارقة من بوارق الحقيقة ولا سانحة من سوانح الخيال عزاء ولا سلوى ، فصعدت إلى غرفتك المهجورة علنى أجد فى مقامى بها ساعةً علاجَ ما أُكابده من هموم وأحزان ، فلما بلغتها ووضعت يدى على مفتاحها شعرت برعشة شديدة ملأت ما بين قمة رأسى إلى أخمص قدمى ؛ فلقد خيل إلىّ أننى إن فتحت هذا الباب وجدتك وراءه واقفاً تبتسم إلىّ وتفتح ذراعيك لاستقبالى : فلما فعلت لم أجد غير الوحشة السائدة ، والسكون المخيم ، وغير سريرك المشعَّث ، وأوراقك المبعثرة فى كل مكان ، والغبار المنتشر فى أرضها وسمائها فهدَّت ماتشعَّث ، وجمعت ما تبعثر ، ومسحت الغبار عن المقاعد والنوافذ ، وأعدتُ الغرفة إلى عهدها الأول أيام كنت تسكنها وتزينها ، كأنما أبيت إلا أن تكون غرفتك المعدة لك ، المسماة باسمك : حاضراً كنت أم غائباً .

ووجدت على بعض المقاعد بضعة دراهم فى كيس صغير ، فعلمت أنها أجرة الغرفة التى يتقاضاها أبى قد تركتها له ليأخذها من حيث لا تراه

فأخذتها لأحملها إليه ثم أستوهبه إياها لأبتاع بها حلية أو ذخيرة أتقلدها ، كأنها هدية مرسلة منك إلىّ .

سأحمل نفسى يا استيفن على الصبر عنك . حتى يطوى القدرُ مسافة البعد بينى وبينك ، وستكون لعلتى التى أتعلل بها منذ الساعة كلما هاج بى هائج الشوق إليك أنك ما بعدت عنى إلا لتقترب منى ، ولا فارقتنى إلا لأنك آثرت اجتماعاً آمناً طويلا على اجتماع مصرّد غير مأمون ، فامض فى سبيلك أيها الصديق المحبوب ، وذلل بهمتك جميع العقبات التى تعترض سبيل سعادتنا وهنائنا ، حتى نلتقى بعد ذلك لقاء تنسينا حلاوته مرارة ذلك الماضى المحزن الوبيل .

٢٨

من استيفن إلى ماجدولين

بالأمس كنا ، وكان يجمعنا بيت واحد ، لا يكدر صفاءنا فيه مكدر ، واليوم نحن وبينى وبينك خمسون فرسخا لا تمس يدى يدك ، ولا تعبث أناملى بشعرك ، ولا أستنشق عبير أنفاسك ، ولا يرن صوتك العذب فى جوانب قلبى ، ولا تضىء ابتساماتك الجميلة ظلمات نفسى ، ولا تلتقى أنظارنا فى مكان واحد ، ولا تمتزج أنفاسنا فى جو واحد ، فلا السماء صافية كعهدى بها ، ولا الجو باسم طلق كما أعرفه ، ولا الماء صاف عذب ، ولا الهواء رقراق عليه ، ولا الروض متفتح عن أزهاره ، ولا الزهر متنفس عن عبيره ، كأنما كنتِ سر الجمال الكامن فى الأشياء ، فلما خلت منك أقفرت

واقشعرّت ، ونبت عنها العيون والأنظار .

ولقد لقيت فى « كوبلانس » أبى وأهلى وكثيراً من أبناء وطنى فلم يغنى لقاؤهم عن لقائك ، ولم أجد فى وجوههم ذلك الأنس الذى كنت أجده فيها قبل أن أعرفك ، فأصبحت أشعر فى مقامى بينهم بما يشعر به الغريب المنبتّ الذى يعيش فى وطن غير وطنه ، ودار وأهل غير داره وأهله ، فتى تنقضى أيام غربتى ومتى أعود إلى أهلى ووطنى ؟

قد أحزننى كثيراً ما تكابدينه من الآلام والأحزان من أجلى ، ولو كشف لك من أمر نفسك ما كشف لى منها ، لعرفتِ أنك أسعد منى حظا ، وأروح بالا . لأنك تعيشين فى المواطن التى شهدت سعادتنا وهنأنا ، والتى نبتت فى تربتها آمالنا وأحلامنا ، فكل ما حولك يذكرك بحبك ، وأيام سعادتك ؛ أما أنا فكل ما حولى غريب عنى ؛ أنكره ولا أكاد أعرفه ، كأنما هو مؤتمر بى أن ينتزع منى ذكرى تلك الأيام الجميلة التى قضيتها بجانبك ، وهى كل ما أصبحت أملكه من بعدك .

سأكون شجاعاً كما أمرت يا ماجدولين ؛ وسأبذل جهدى فى تذليل كل عقبة تقف فى طريق سعادتى بك ؛ فاكتبى إلىّ كثيراً ، وحدثينى عن كل ما يحيط بك من الأشياء ، وما يعرض لك من الشؤون ، صغيرها وكبيرها ؛ لأجد على البعد عنك لذة القرب منك . واجعلى حبك عوناً لى على مقاصدى وآمالى ، فحبك هو الذى يحيينى ، وهو الذى من أجله أعيش وأبقى .

٣٩

حفلة رقص

أقام والد استيفن فى بيته حفلة راقصة ، وأمر ولده أن يشهدها ، ولم يكن قد شاهد حفلة رقص قبل اليوم ، فأذعن على كره منه : فلما اجتمع الجمع وماجت قاعة الرقص بالراقصين والراقصات ، وقف استيفن موقف الحيرة والخجل أمام هذه المناظر المدهشة الغريبة ، لا يدرى ماذا يفعل ؛ وأى سبيل يأخذ ؟ وخيل إليه أن هناك قانوناً موضوعاً للحركات والسكنات والجيئات والروحات ؛ وأن من أغفل حرفا واحداً من حروف ذلك القانون أخذته العيون ، ودارت به الأنظار ، ورنت حوله ضحكات الهزء والسخرية ، وكان لابد له من أن يخرج من موقفه هذا إلى أية حالة من الحالات ، كيفما كان شأنها ، فلمح على البعد شمعة يتضاءل نورها بين الشموع المحيطة بها ، فخطر له أن يتلهى بإصلاح ذبالتها ، فمشى إليها يتخبل فى ثيابه تخبلا ، لأنها لم تكن ثيابه ، بل ثياب بعض أقربائه أعاره إياها هذه الساعات من الليل وصاحبها أطول منه قامة ، وأضخم جسما ، فلما داناها رأى أن ذبالتها قد التوت على نفسها فطالت واسودت وغرقت فى الدهن المحيط بها ، فبدا له أن يَقرض أعلاها ليصفو أسفلها ثم يمسح الدهن السائر حولها ، فما هو إلا أن مد يده بالمقراض إليها حتى انطفأت وتطاير دُهنها إلى ثوبه فانتشر فى أنحائه ، فجمد فى مكانه جمود المقراض فى يده ، واستحال إلى تمثال مضحك ماثل بين أعمدة الشموع ، لا يستطيع أن ينقل قدميه حياء

وخجلا ، فوقع ما كان يخافه ، وعقدت حوله الأنظار نطاقا ، ومشت البسمات والغمزات فى الأفراه والعيون ، ومرّ به فى موقفه هـــذا أحد الظرفاء المتأنقين وكان لا يعرفه فأسرّ فى أذنه « أما تعلم يا سيدى أن إصلاح الشموع فى الحفلات عمل غير لائق ؟ » وسمع فتاة تقول لصاحبتها وقد وقفتا به « ما أجمل زركشةَ هذا الثوب » فأجابتها الأخرى « إنه آخر طرز فى الكرنفال » فلم يجد بدا من النجاة بنفسه ، ففرّ من مكانه هارباً لا يلوى على شىء حتى دخل بعض القاعات الخالية وجلس على مقعد فيها يمسح بشفرة المقراض ما تناثر على ثوبه من الشمع ، فلحق به أبوه بعد قليل وقال له : ما بقاؤك هنا وحدك يا استيفن ، إن أسرة البارون قد حضرت ولا بد لك من مقابلتها والبقاء معها حتى تنصرف ؟ فامتعض استيفن فى نفسه وتثاقل فى مكانه لأنه عرف ما يراد منه ، فألحّ عليه أبوه فأذعن ، ومشى إلى مكان هؤلاء القوم فحياهم وحيا تلك الفتاة التى يريدون خطبتها له تحية جامدة لا تشبه تحية الخطباء ولا المحبين ، بل لا تنقص عن تحية المتنافرين المتناكرين إلا قليلا ، ثم لم يلبث أن وجد السبيل إلى الخلاص منها فانفتل من مكانه وخرج إلى فضاء الحديقة ، وجلس على بعض مقاعدها ينقم على المحافل والمراقص وما ضمت بين أطرافها ، من رذائل وشرور ويقول :

ويل لهؤلاء القوم المرائين الكاذبين ، يفسقون ويزعمون أنهم يرقصون ، ويقترفون صنوف السيئات والآثام ، ويقولون إنهم يغنون أو يطربون ، ووالله ما اجتمعوا إلا ليخطفَ العاشق معشوقته من يد زوجها أو أخيها أو أبيها ، حين أعيته الوسائل إليها ، أو لتفتش الزوجة التى ملّت

زوجها وسئمته عن عشير جديد غير مملول ، أو ليلقى الأب بابنته العانس الشوهاء بين ذراعى فتى من الفتيان الأغرار يرجو أن يُعميَه الشغف الحاضر بها عن النظر إلى عيوبها فيقع فى حبالتها ، ويصبح على الرغم منه زوجاً لها .

إن كانوا يريدون الغناء فلِمَ لا يغنون إلا راقصين ، أو الرقص فلِمَ لا يرقص الرجل إلا مع امرأة ؟ ولا ترقص المرأة إلا مع رجل ، ثم لا يرقصون إلا متلاصقين متماسكين ، كأنهم بين جدران مخادعهم ، أو وراء أستار نوافذهم وأبوابهم .

مَن لهذا الزوج الغبى الذى يُلقى بزوجته عارية الصدر والظهر والذراعين والكتفين بين ذراعى فتى جميل ساحر يلاصقها ويخاصرها ويقلبها بين يدى شهواته ما شاء ـ أن تعود إليه ساعةَ تعود بالعقل الذى ذهبت به ، وبالقلب الذى كانت تحمله بين أضالعها ؟ ومَن لهذا الأب الأبله المأفون الذى يتبرم بابنته ويستثقل مكانها منه فيقذف بها بين مخالب هذه الوحوش المفترسة ـ ألا تعود إليه بعد قليل حاملة مع همها الأول همين آخرين ، عاراً على رأسها ، وجنينا فى أحشائها ؟

إنهم يقودون على أنفسهم من حيث لا يشعرون ، ويمزقون أعراضهم بأيديهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

ولم يزل يهتف فى نفسه بأمثال هذه التصورات الغريبة حتى انصرف الناس فلم يحضر انصرافهم ، كما لم يحضر اجتماعهم ، وكان أبوه قد أشار إلى جماعة من أهل بيته وخاصة أصدقائه أن يتخلفوا ، ففعلوا ، فلما خلا بهم

المكان دعا استيفن أمامهم وقال له على مشهد منهم : قد كنت دعوتك إلى مصاهرة هذه الأسرة منذ عام ودللتك على مكان الخير لك فى هذه الصفقة الرابحة ، فأبيتَ واستعصيتَ وفررت منى راكباً رأسك إلى حيث لا أعلم لك مذهباً ، فلما عدتَ فى هذه المرة ظننت أنك قد أذعنت وأصحبت[1] وفهمت معنى الحياة كما يفهمها الناس جميعاً فجئت تطلبها من الطريق التى يطلبونها منه فأقمت هذه الحفلة الراقصة ، وأنفقت فى سبيلها مالا طاقة لى باحتماله لا أريد بها إلا أن تكون موضع الصلة بينك وبين تلك الفتاة التى اخترتها لك والخطوة الأولى إلى خطبتها فأبيت إلا تمرداً وعناداً ، كأنما ظننت أننى باق لك بقاء الدهر ، أكفلك وأقوتك ، أو خُيل إليك أن هذا العلم الذى تدل به وتعتز بمكانك منه منجم من مناجم الذهب ، يخرج لك مايقوتك اليوم ويقوت مَن وراءك من بنيك وأهل بيتك غداً ، فإن كان هذا ماذهبتَ إليه فاعلم أن ثروتى لا تتسع لأكثر من أيام حياتى ، ولا تتسع فى حياتى لأكثر من الإنفاق عليك طفلا وغلاماً وفتى ثم أنت وشأنك بعد ذلك ، وأن هذه الفنون الأدبية التى هى كل ما تملك يدك فى هذه الحياة ماصلحت أن تكون فى زمن من الأزمان وسيلة من وسائل الرزق ، ولا سبباً من أسباب العيش ، ولن تكون كذلك أبد الدهر ؛ لأن السعادة حقيقة من الحقائق لا يتوصل إليها من طريق الخيال ، فإن أردت لنفسك الخير فدونك الرأى الذى رأيته لك ، وأنت أعلم به ، أو لا ، فدونك الأرض الفضاء فامش فى مناكبها ماشئت ، واطلب لنفسك الرزق

---

(١) أصحب البعير : ذل وانقاد .

من الوجه الذى تعرفه ؛ فقد أصبح وجودك فى منزلى على حالتك هذه من البطالة والفراغ عاراً علىّ وعلى أهلك جميعاً ، بل عاراً على نفسك إن كنت من الشاعرين .

ثم التفت إلى القوم وقال لهم : هأنذا قد أشهدتكم عليه ، وبرئت إليه وإليكم وإلى الله من ذنبه ، فلا معتبة علىّ بعد اليوم .

فقال أحد أقربائه « إنى لم أر فى حياتى جنوناً مثل هذا الجنون » .

وقال آخر « لعله سقط فى هوة من هُوى الغرام ، فلا مناص له من الارتباط فى قعرها حتى الموت »

وقالت زوج أبيه « لعله أحب عروس الشعر فغنى بها عن كل عروس سواها »

وقال عمه وهو يزجر غضباً « قبيح بالفتى أن يكون فى سن كهذه السن حاملا فوق كاهله قوة كهذه القوة ، ثم يرضى لنفسه أن يكون عالة على قومه وذويه »

فطار طائر الحلم من رأس استيفن واختفى من وجهه ذلك الفتى الحيىُّ الخجول ، الذى كان يذوب منذ ساعة خجلا أمام النظرات واللفتات ، وحل محله رجل هائل جبار لايخشى أحداً ولا يبالى شيئاً ، فرفع رأسه ونظر إلى الجمع نظرة شزراء ذهلت لها أنظارهم ، وخفقت لها قلوبهم ، ثم التفت إلى أبيه وقال له : إنى لا أعتب على واحد من هؤلاء ، لأنهم سمعوك تغنى فضربوا على نغمتك ، أما أنت فإنى أقول لك : نعم إنك قد أحسنت إلىّ فيما مضى كما تقول ، ولكن لايحمل بك أن تمنّ علىّ بإحسانك هذا ،

ولا يحمل بى أن أشكره لك ، أو أثنى عليك به ، لأنك أب ، وللأبوة ثمن لابد لك من أدائه ، واحتمال المؤونة فيه ؛ على أنك لم تمنحنى فى يوم من أيامك الماضية عطفك ولا رحمتك ، ولو فعلت لكان ذلك خيراً لى من كل ماأسديت إلى من صنوف البر والمعروف ، بل كان شأنك معى فى كل آناء حياتك شأن رجل عابر سبيل وجد فى طريقه طفلا ملفقا فى قماطه مطّرحا تحت جدران بعض المنازل أو على باب إحدى الكنائس فالتقطه وكفله منة وإحساناً لا رحمةً وحنانا ، فقد أبعدتنى عنك أنا وأخى منذ ماتت أمى ، وبنيْت بزوجتك الحاضرة قبل أن أبلغ السابعة من عمرى ، ووضعتنى فى أحجار قوم لاتجمعنى بهم جامعة محبة ، ولا تعطفهم علىّ آصرة رحم ، ولم أجد فيهم من يُذكرنى بك ، أو يحببك إلىّ ، أو يحدثنى عنك حديثاً واحدا ، وكنت كلما عدت إليك فى أيام إجازتى من العام إلى العام استقبلتنى بالوجه الذى تستقبل به أبعد الناس عنك ، وأصغرهم شأناً عندك ، فلا تختصنى بكلمة طيبة ، ولا تؤثرنى بنظرة رحمة ، ولا تسهر علىّ فى مرض ، ولا تتفقدنى فى شدة ، ولا تبسم للقائى ، ولا تحزن لفراقى ، وكثيراً ماسهرتُ الليالى ذوات العدد أندب حظى عندك ، وأضرع إلى الله تعالى أن يدنى قلبك من قلبى ، ويرزقنى حبك وحنانك ، فلم يستجب دعائى ، فاستوحشت نفسى من نفسى ؛ وغلبت على طبعى هذه النفرة التى لاتزال ملازمة لى حتى اليوم ، ولولاك لما كنت نفوراً ولا مستوحشاً ، وقسا قلبى القسوة كلها فأصبحتُ لا أعطف على أحد ولا أحب أحداً ، لأنى لم أتعلم العطف ولا الحب من أحد ، ولما لم أجد فى الناس من أحبه

وأصطفيه أحببت نفسى وحريتى واصطفيتهما وآثرتهما على كل شىء فى العالم، فلا أحتمل أن أرى من ينازعنى فيهما، أو يغالبنى عليهما.

إن حياتى لى، وأنا صاحبها الذى أتولى شأنها، فلا سلطان لأحد غيرى عليها، ولا شأن لكائن من كان فيها سواى، فلا أسير فى طريق غير الطريق التى ترسمها يدى، ولا أبنى مستقبلَ حياتى على أساس غير الأساس الذى أضعه بنفسى، ولا أحب إلا الفتاة التى أحبها أنا، لا التى يحبها الناس لى، ولا أعاشر إلا المرأة التى أقيس سعادتى معها بمقياس عقلى، لا بمقياس عقول الآباء والأعمام.

فهاج القوم عليه هياجاً عظيماً، وصرخ أبوه فى وجهه، وثاوره عمه يريد الفتك به، وتناولته بقية الألسن بالشتم والسب، فلم يأبه بذلك كله؛ ولم يتزلزل من موقفه؛ واستمر فى حديثه يقول:

بأى حق تريدون أن تسلبونى حريتى وتملكوها علىّ؛ أبحق العطف الذى بذلتموه لى فيما مضى، وما عرفت بينكم محبّاً لى ولا راحماً؟ أم بحق الكرامة والبُقيا، وقد كنتم جميعاً تضربوننى صغيراً، وهأنتم أولاء اليوم تشتمونى كبيراً؟

إنى قائل لكم جميعاً كلمة لا أقول لكم غيرها بعد اليوم: إنى لا أحب إلا من يحبنى، ولا أكرم إلا من يكرمنى، ولا أذعن إلا لرأيى وإرادتى، ولا أبيع حياتى وحريتى حتى لخالقهما الذى منحنى إياهما بثمن من الأثمان مهما غلا.

إنى لا أطلب منكم مالا ولا معونة، ولا أشكو إليكم فقراً ولا عُدما،

وسأرسم لنفسى بنفسى خطة حياتى ، فإن قُدّر لى النجاح فيها فذاك ، أو لا : فحسبى من السعادة أنى قضيتُ أيام حياتى حرا طليقاً ، لا سبيل لأحد علىّ ، ولا شأن لكائن من الكائنات عندى ؛ حتى يوافينى أجلى ؛ وهذا فراق مابينى وبينكم .

ثم انفتل من بين أيديهم وهرع إلى غرفته فبدل ثيابه وتناول حقيبة ملابسه وخرج هائما على وجهه يخترق أحشاء الظلمات ، حتى خرج إلى ضاحية المدينة ؛ فتبعه فتى من أبناء أخواله كان قد ألمّ ببعض قصته ، فقال له : أين تريد يا استيفن ؟ قال إلى حيث أرسلنى أهلى ، فبكى قريبه مرثاة له مما هو فيه وقال له : وارحمتاه لك أيها البائس المسكين ، ثم دس له فى جيبه بضع قطع من الذهب ، لم يلتبه لها استيفن إلا بعد ذهابه ، فشكرها له فى نفسه ثم مضى لسبيله .

٣٠

النفس العالية

لا تخضع النفس العالية للحوادث ولا تذل لها ، مهما كان شأنها ولا تلين صَعَدتها[1] أمام النكبات والأرزاء مهما عظم خطبها ، وجل أمرها ؛ بل يزيدها مَرُّ الحوادث وعضّ النوائب قوة ومراساً ، وربما لذّ لها هذا النضال الذى يقوم بينها وبين حوادث الدهر وأرزائه ، كأنما

---

(١) الصعدة : القناة المستوية

يأبى لها كبرياؤها وترفعها أن يوافيها حظها من العيش سهلا سائغاً لا مشقة فيه ولا عناء ، فهى تحارب وتجالد فى سبيله ، وتغالب الأيام عليه مغالبة ؛ حتى تناله من يدها قوة واغتصاباً ، فمثلها بين النفوس كمثل الليث بين السباع ، لا تمتد عينه إلى فريسة غيره ، ولا يهنأ له طعام غير الذى تجمعه أنيابه ومخالبه .

كذلك كانت نفس استيفن بعد نزول تلك النكبات به ، فإنه لم يجزع ولم يتألم ولم يعبث اليأس بقلبه ، بل فارق كوبلانس كما دخلها : ساكن النفس ، مطمئن الضمير ، مملوء القلب ثقة وأملا ، فلم يزل سائراً بقية ليلته يطوى الأرض على قدميه طيا حتى مشت فى جلدة الظلام أشعة الفجر ، فالتفت فإذا بقية من شبح كوبلانس لا تزال ماثلة ، فألقى عليها نظرة واجمة مكتئبة ثم قال :

الوداع أيها القوم الذين طردونى من بينهم ، ولم يزودونى لقمة واحدة أتبلغ بها فى طريقى ، ولا دابة أحمل عليها حقيبتى ، ولا كلمة طيبة آنس بها فى مطارح غربتى ؛ لقد نبذتُ حبكم من قلبى نبذَ الفم النواة ونفضت يدى منكم نفض المودع يده من تراب الميت ؛ فأصبح قلبى وضميرى وحبى وحنانى ونفسى وحياتى وكلّ ما تملك يدى مِلكا خالصاً لذلك الإنسان الذى أحبنى وأحببته ، ووفى لى من دون الناس جميعاً ووفيت له ، لا ينازعه فىّ منازع ، ولا ينزل معه فى سويداء قلبى نازل ، وسيكون حبه منارى الذى أهتدى به فى ظلمات حياتى ، حتى أبلغ ذروة السعادة التى أطلبها لنفسى ، وهنالك ترون أيها القوم الجفاةُ القساةُ أن ذلك الفتى الخامل المسكين الذى

وقف بينكم بالأمس مهيناً ذليلا لا يكاد يرفع طرفه إليكم حياء وخجلا ، قد أصبح رجلا نابها عظيما غنيا بماله وجاهه عن مالكم وجاهكم ، وسعيداً بين أهله وأولاده سعادة لا يحفل من بعدها بسبكم ولا برحمكم .

ثم مشى فى طريقه يعلل نفسه بالآمال الحسان ، ويرسم لمستقبل حياته ماشاء من الخطط والنظم ، وكان كلما ألغبه المسير دفع إلى أصحاب العجلات المارة فى طريقه تحمل الأثقال درهما أو درهمين ، ليحملوه على عجلاتهم أو يأذنوا له بالجلوس فى مؤخرتها ساعة أو ساعتين ، ثم يعود إلى شأنه الأول ، حتى وصل عند مجتنح الأصيل إلى « جوتنج » وهى البلدة التى تعلم فى مدرستها ، وقضى فيها أكثر أيام صباه .

٣١

النفس الشعرية

ذهب استيفن ساعة هبط « جوتنج » إلى أستاذه القديم فى الموسيقى « هومل » ليفضى إليه بشأنه ، ويستعين به على قضاء حاجته ، وكان له بمثابة الأب الرحيم ، يحبه ويكرمه ويؤثره على تلاميذه جميعاً ، فلما وقف بين يديه عقل الحياء لسانه ، فلم يستطع أن يقول له شيئاً ، وكذلك شأن أصحاب النفوس الشعرية ، يملأ الشعر نفوسهم عزة وخيلاء ، فتملأ العزة وجوههم حياء وخجلا ، فلا يذلون ولا يضرعون ، ولا يجرؤن على شىء مما يجرؤ عليه الناس جميعاً كأن تحليقهم الدائم فى سماء الخيال وطيرانهم فى تلك

الأجواء العالية غادين رائحين : قد مثل لنفوسهم أنهم يعيشون فى ملإ أرفع من الملإ الذى يعيش فيه الناس ، فإن عرضت لهم حاجة من الحاج أبوا أن يسألوها أحداً من سكان الأرض ، وربما آنفوا أن يسألوها ساكن السماء ذهاباً بأنفسهم من مواطن الضعة والمهانة ، وضنا بأديم وجوههم أن يخلقه السؤال ، وكذلك يعيشون فقراء ، ويموتون بؤساء .

لذلك لم يستطع استيفن أن يفضى بحاجته إلى أستاذه فى المقابلة الأولى فزعم أنه إنما جاءه ليتلقى عنه دروساً فى الموسيقى ، وظل يختلف إليه أياماً يسمع غناءه ويحفظه عنه حتى جرى بينهما يوماً من الأيام ذكر الحياة والمستقبل ، فسأله أستاذه عما رسم لنفسه من الخطط فى مستقبل حياته ، فقال : لا أدرى حتى الساعة ، فقال : لا أعرف لك سبيلا غير هذا الفن الذى تحبه وتستهيم به ، وأرى أن غرامك به سيجعلك غداً من أصحاب الشأن العظيم فيه ، فنفض له استيفن إذ ذاك جملة حاله ، وصارحه برغبته التى يريدها ، فوعده بمساعدته والأخذ بيده ، فانصرف مغتبطاً مسروراً

٣٢

من ماجدولين إلى استيفن

لم أستطع أن أكتب إليك منذ شهرين لأنى كنت مريضة وسأقص عليك قصة مرضى :

خرجت ذات ليلة لألقى برسالة كنت كتبتها لك فى صندوق البريد

فى قرية « هال » فلما أبعدت عن « ولفاخ » وغاب عنى شبحها وأصبحت فى منتصف الطريق بينها وبين « هال » هبت علىّ ريح عاصفة شديدة دوت بها جوانب الأفق ، وقعقعت لها قبة السماء حتى حسبتها توشك أن تنقضّ ، وأخذت تجاذبنى ثوبى مجاذبة شديدة كأنما تأبى إلا أن تنتزعه منى أو تنتزعنى معه . فحدّثتنى نفسى بالعودة من حيث أتيت ، ثم ذكرتك وذكرت أنك تنتظر رسالتى ، فاستمررت أدراجى ومشيت فى طريق أتيامنُ مع الريح مرة ، وأتياسرُ أخرى ، وأندفع متقدمة ، وأكرّ راجعة ، فمن رآنى فى تلك الساعة خيل إليه أنه يرى فتاة بائسة مرزأة ، قد لعبت النار بأثوابها ، وعلقت بأطرافها وأوصالها ، فهى تهيم على وجهها فى كل مكان تطلب الخلاص مما هى فيه فلا تجد إليه سبيلا ، فلم أصل إلى تلك القرية إلا بعد ساعتين ، فألقيت الكتاب فى الصندوق ثم رجعت ، وكانت العاصفة قد هدأت قليلا ، ولكنها ماهدأت إلا لتفتح الطريق إلى الغيث الهاطل ، فلم تهدأ ثورتها حتى ثار ثائره وأخذ يتساقط سقوطاً شديداً ، فابتل ردائى ، ومشت الرعدة فى جميع أعضائى ، واشتدت ظلمة الليل فما أكاد أهتدى إلى طريقى ، ولقد حدّثتنى نفسى لشدّة مانالنى من التعب والإعياء ، وما ملأ قلبى من الخوف والوحشة ، أن أسلم نفسى إلى كنف من أكناف الهضاب أوسفح من سفوح الجبال ، أنتظر فيه منيتى حتى توافينى ، فحال بينى وبين ذلك أنى أريد أن أحيا لك ، وأتولى شأن سعادتك التى عاهدتك على أن أتولاها لك ، وأنى إن قتلتُ نفسى قتلتك معى ، فبعث ذكرك فى نفسى قوة غالبتُ بها الطبيعة وعواصفها وثلوجها ، وبروقها ورعودها ، حتى بلغتُ

المنزل بعد لأى ، فسقطت مريضة محمومة .

ولقد كابدت فى مرضى شدة عظمى لم أرَ مثلها فيما مرَّ بى من أيام حياتى ، حتى دب اليأس فى نفسى دبيبَ المنية فى الأجل ، وظننت أنى لابد هالكة ، وأنى لا أراك بعد اليوم ، فلم يكن يحزننى فى تلك الساعة شىء سوى أنك ستسمع بخبر موتى ، ولا تسمع معه أنك كنت الإنسان الوحيد الذى كنت أفكر فيه فى ساعتى الأخيرة ، فحاولت أن أكتب إليك كتاب وداع أبثك فيه بعض شأنى فلم أستطع ، ثم شعرت فى فترة من فترات السكون التى تتخلل سكرات الحمى أنى أستطيع النهوض من فراشى ، فكتبت إليك كتاباً أوصيتُ لك فيه بجميع ما تملك يدى ، وما تملك يدى إلا كتبى ومحفظة رسائلك والخاتم الذى نسجتهُ من شعرك وذخيرة من الذهب ورثتها عن أمى وهى أعز الأشياء عندى ، وكيساً صغيراً يشتمل على بعض قطع فضية وذهبية مما كنت أستفضله من نفقاتى ، ثم طويت الكتاب وأعطيته لجنفياف لتوصله إليك بعد موتى ، ولكن الله كان أرحم بى وبك من أن يحرمنى منك ويفجعك بى . فمد إلىّ يد معونته وإحسانه واستنقذنى من مخالب الموت ، فحمدت له منّته ونعمته ، ولقد بكيت كثيراً عند ما أعدت النظر فى تلك الوصية المكتوبة لأنى تمثلت حزنك وتفجعك وخيبة آمالك لوقدر لك أن تقرأها . فرثيتُ لك مما بك وبكيت لبكائك .

رجائى عندك يا استيفن أن تكتب إلىّ عنوان أخيك فى الجيش لأنى أريد أن أبعث إليه بهدية أخطب بها وده إكراماً لك ، فقد أصبحت

أحبه من أجلك حبا كثيراً ، وأترقب بفرح وسرور ذلك اليوم الذى يضمنا وإياه بيت واحد ، تحت سماء واحدة .

لايحزنك يا استيفن ما قصصت عليك ، فتلك حادثة ماضية قد ذهبت وانقضت ، ولم يبق منها فى نفسى حتى آثارها ، فليذهب الماضى بخيره وشره ، وليأت لنا المستقبل بما نريد .

٣٣

من استيفن إلى ماجدولين

عفا الله عنك ياماجدولين ، أكنتِ تظنين أنى أستطيع أن أحيا من بعدك ساعة واحدة أتمتع فيها بالحياة وطيبها ، والدنيا ونسيمها ، فأوصيت بما أوصيت به إلىّ ؟

إنك لاتعلمين أنك روحى التى أحيا بها فى هذا العالم ، ودنياى التى أتنسم فيها رائحة السعادة والهناء ، وأن اليوم الذى يخلو فيه مكانك من الدنيا هو آخر عهدى بالعالم وما فيه .

متى أهدى الميتُ إلى الميت ، وأوصى القبر إلى القبر ! ومتى عاش المحب بعد فقد حبيبه ساعة واحدة ، أو هنئت له لحظة من لحظات عيشه إن قدّر له أن يعيش من بعده ؟

إن لى فى الحياة كما للناس أمانى كثيرة ، وبودى لو استطعت أن أبيعها جميعها بأمنية واحدة ، وهى أن أموت يوم أموتُ بين ذراعيك ، ملقياً

رأسى على صدرك ، شاخصاً بعينى إلى وجهك المشرق الجميل ، وأن يكون صوتك آخر ما أسمع من الأصوات ، وصورتك آخر ما أرى من الصور عالما أن من يموت ميتة كهذه تفتحت له أبواب السماء ، واتصلت سعادة دنياه بسعادة أخراه ، فلا يشعر بشقاء الموت ، ولا مابعد الموت .

هنيئاً لك إبلالك من مرضك ، وشكراً لله على صليعته عندك فى شفائك ، وصليعته عندى فى حفظ حياتك لى ، وما أحسبُ أن الله أراد بى أو بك سوءًا فيما كان . ولكنه يبتلينا اليوم لنعرف مقدار مايستقبلنا به من السعادة غداً .

سأكتب لأخى « أوجين » بشأن الهدية التى أزمعتِ أن ترسليها إليه . وإنى شاكر لك شكراً جزيلا ، عطفك عليه وحبك إياه .

أما عنوانه ، فهو : « الفصيلة الثالثة ، من قسم الجياد الخفيفة فى جيش الحدود »

٣٤

الحظ

مر الشتاء واستيفن يختلف إلى أستاذه « هُومِل » وأستاذه يسعى له سعى المجدّ المُلِحّ فلا ينجح ، حتى أوشك أن ينفد ماكان معه من المال ، ولم يبق فى يده منه إلا بقية غير صالحة لايعلم ما هو صانعٌ بعدها ، فلم يجد له بدا من أن يأخذ نفسه بالتقتير ، ويحمل عليها فى العيش حملا

شديداً ، فأكل التافه من الطعام ولبس الخُلقان من الثياب ، وغنيَ بالأكلة عن الأكلتين ، وبالخبز عن الأدم ، وكان يقول فى نفسه كلما برحت به الفاقة ، واشتدت به ضائقة العيش : لقد قال لى عمى : إن من كان فتى قويا مثلك لايجمل به أن يعيش عالة على أهله وذويه ، وها أنذا على فتوتى وقوتى أكاد أموت جوعا ، فما أقسى قلوب قومى ، وما أبعد الرحمة عن أفئدتهم !! لقد كان فى استطاعتهم أن يقبلونى عندهم ضيفاً عاماً أو عامين ، حتى يفتح الله لى باباً من أبواب الرزق فأرحل عنهم ، أو أن يهيئوا لى قبل أن يطردونى من بيتهم ملجأ أعتصم به فى المكان الذى طردونى إليه حتى لا أموت ميتة الغرباء المشرّدين .

وكان أكبر ما يحزنُه من أمر فاقته أنه وعد ماجدولين بالسعى إلى الثروة والنجاح فيها ، وملأ قلبها ثقة وأملا فى المستقبل ، وأن فشله إن قُدر له الفشل سيقتلها ، ويلقى بها فى مهواة اليأس والشقاء ، فرثى لها وأشفق عليها إشفاقا عظيما ، وود لو صلحت حياته لأن تكون ثمناً لسعادتها فبذلها فى سبيلها ، ثم رحل عن الدنيا طيب النفس عنها ، وعن جميع آماله وأمانيه فيها .

ولقد مرّ به يوما - فى بعض مواقفه بجانب بعض الجدران - فتى زرى الهيئة سيئ الحال ومد إليه يده يسأله بعض المعونة فزوى وجهه عنه حياء وخجلا . فقال له الفتى : أُقسم لك بالله ياسيدى أنى تركت زوجتى ورائى ماتطيق الوقوف من الطوى ، ولقد مر بى وبها يومان مانجد مانتبلغ به إلا البكاء والدموع . فانتفض استيفن انتفاضة شديدة والتفت إليه وقال له :

أتحب زوجتك كثيراً أيها الفتى ؟ قال نعم ياسيدى كما أحب حياتى ، فأطرق برأسه هنيهة وظل يقول فى نفسه ، إنه يستعدى[1] عطف الناس ورحمتهم على جوع زوجته وطواها ، والناس لايعطفون ولا يرحمون ، ولو عقل لعلم أنه يسألهم حقا من حقوقه المقدسة لا يعترضه من دونه معترض إلا استحلّ دمه ومشى على جثته إليه ، فلا جريمة فى الدنيا أكبر من أن يرى الإنسان المرأة التى يحبها تموت بين يديه جوعا فلا يفعل شيئا أكثر من أن يغمض عينيها ويسجّيها بثوبها ، ثم يجلس بجانب سريرها يبكيها ويندبها ؛ ومد يده إلى جيبه فأخرج كل ما كان معه من المال فأعطاه الفتى صامتا ، ومشى فى طريقه وهو يقول : لقد أنقذتهما من مخالب الجوع بضعة أيام ، وأسأل الله أن يقيض لها من يتولى شأنهما بعد ذلك .

وكذلك عاد استيفن إلى مأواه ، وهو لا يملك من متاع الدنيا حتى قوت يومه .

٣٥

من ماجدولين إلى استيفن

مرت بى اليوم صديقتى سوزان وهى عائدة من مصيفها الى كوبلانس فاغتبطت بزيارتها اغتباطا عظيما وتمنيت أن لو كنتَ حاضراً بيننا لتراها وترى أجمل الفتيات وجها ، وأرقهن شمائل ، وأعذبهن حديثا ، وأجمعهن لأفضل الصفات وأكرمها ، فهى تنطق بلغات كثيرة ، وتحسن الرسم

---

(١) استعدى فلان فلاناً على فلان : طالب إليه أن يعديه عليه ، أى ينصفه منه .

والتصوير ، وترقع على جميع أنواع الأوتار ، وتغنى غناء ساحراً فتاناً ، ولها ثغر وضاء لا يفارقه الابتسام لحظة واحدة ، ولا يطربها فى الحياة شىء مثل مناظر اللهو واللعب ، ولا يعجبها حديث مثل حديث المحافل والمراقص ، وقد أصبحت مفتتنة بها لا أكاد أصبر عنها لحظة واحدة ، ورجائى إليك يا استيفن أن تحبها كما أحبها . وأن تتودد إليها كثيراً يوم تراها .

لم يبق فى الصحيفة موضع أكتب إليك فيه شيئاً سوى أن أقول لك : « إنى أحبك » .

٣٦

من استيفن إلى ماجدولين

سأحب صديقتك يا ماجدولين كما أمرت ، ولكن ليس لأنها جميلة فاتنة كما تقولين ، فقد ملأ جمالك فضاء قلبى فلم تبق فيه بقية لسواك ، ولا لأنها ترقص أو تغنى ، فإن نفسى الحزينة لا يشفيها من دائها إلا أحد الأمرين ، إما لقاؤك ، أو الموت ، بل لأنها تؤنس وحشتك ، وتخفف آلامك ، وتعينك على احتمال أعباء الحياة وأثقالها ، فاشكريها عنى شكراً جزيلا ، وبلغيها تحيتى وسلامى .

لا يزال الدهر عابسا فى وجهى ، ولكننى صابر محتمل ، لا أيأس ولا أستسلم ولا تفتر لى همة حتى أنال بغيتى ؛ والسلام .

٣٧

من أوجين إلى استيفن

وصلت إلىَّ هدية السيدة ماجدولين ، فشكرت لها صنيعها شكراً جزيلا ، ولقد أصبحت بفضل هديتها صاحب رداء جديد كنت فى أشد الحاجة إليه ، وكانت يدى تقصر عنه ؛ فابتعته وأصبحت فخوراً مختالا به بين أترابى وعشرائى ، فبلِّغ صاحبة الهدية شكرى ؛ وأرجو أن أراها فى عهد قريب فأجزيها خيراً بما فعلت ، فإن عجزتُ عن ذلك فلا أعجز عن أن أُحدثها عن الوقائع الغريبة التى شاهدتها أحاديثَ جميلة عذبة تملأ قلبها غبطة وسروراً .

شاهدتُ بالأمس أول وقعة من وقائع الحرب فجزعتُ عند الصدمة الأولى ، ولكننى مالبثتُ أن سمعت صهيل الخيل وقرع الطبول وأزيز الرصاص وأنغام الموسيقى الحربية حتى انتشيتُ واندفعت بجوادى اندفاع السيل المنهمر لا أشعر بشى مما حولى ، ولا أرى إلا بريق سيفى فى يدى ، ولقد امتلأت نفسى غبطة وسروراً عندما رأيت جيش العدو يتقهقر أمام جيشنا ، حتى خيل إلىَّ أننى أنا الذى زحزحته وحدى عن مكانه وألجأته إلى الفرار . وقد عرف قائدى فضلَ ما أبليت فى هذه المعركة فرقَّانى إلى درجة « صف ضابط » ولى أمل أن أعود إليكم فى عهد قريب باسم « الضابط أُوجين » .

٣٨

من استيفن إلى ماجدولين

قد ابتسم لى الدهر قليلا يا ماجدولين ، فقد زارنى أستاذى بالأمس فى الخان الذى أنزله بعد ما انقطعت عن زيارته بضعة أسابيع لأمر ما ، وبشرنى أنه وجد لى عملا فى بعض المدارس الصغيرة بوظيفة شهرية قليلة ، وقال لى : إن مدير المدرسة وعده أن يضاعفها لى ضعفين بعد ثمانية شهور ، فحمدت الله على ذلك .

لا صعب فى الحياة يا ماجدولين غير الخطوة الأولى ، فإذا خطاها المرء هان عليه مابعدها ، فلنهنأ منذ اليوم باللقاء ، ولنغتبط بالسعادة التى طالما تمنيناها حتى بلغناها .

٣٩

من إدوار إلى استيفن

لايزال النزاع قائما بينى وبين عمى ، يأبى إلا أن أعيش عيش المقلين ، وآبىَ إلا أن أتمتع بمالى الذى ورثته عن أبى كما أحب وأشتهى ، ولاأدرى ما الذى يعنيه من الحرص على مال يعلم أنه ليس له ، وأن مصيره مهما طالت الأيام لصاحبه ؟ ولكنها خلة البخلاء الأشحاء ، لايقع فى أيديهم شىء من مالهم أو من مال غيرهم حتى تلتوىَ أصابعهم عليه التواء الحية على العصا ثم لا يُفلتُ منها بعد ذلك ، فشلهم كمثل الحبالة التى تنطبق حافتاها

على كل مايدنو منها ، وإن لم تجن لنفسها من وراء ذلك شيئاً .

على أنها أيام قلائل ستنقضى ، وسأبلغ سن الرشد بعد بضعة شهور ، فلا يبقى له ولا لغيره علىّ من سبيل .

ألممتُ ببعض شأنك الحاضر ، وعلمتُ أن أهلك قد نقموا منك مخالفتك إياهم ، وعصيانك أمرهم ، فوكلوك إلى نفسك ، ونفضوا أيديهم منك : فتركت لهم كوبلانس وسافرت إلى جوتنج تطلب لنفسك فيها الرزق من طريق العمل ، فلم يوافك حتى اليوم ماتريد ، فليت الذى كان ياصديقى لم يكن ، وليتك أخذت بذلك الرأى الذى رأيته لك من قبل ، وسلكت إلى الحياة طريقاً غير هذا الطريق الخيالى الذى تسلكه اليوم فتزوجتَ من الفتاة التى اختاروها لك ، وظفرتَ بنعمة العيش فى ظلالها ، فلا سعادة فى الدنيا ياصديقى غيرُ سعادة المال ، وكلّ مافى أدمغة البشر من علم وعقل ومافى أجسامهم من قوة وأيدٍ ؛ ومافى نفوسهم من فضائل ومزايا : إنما هى سبل للمال ، وذرائع إليه .

أهديك تحيتى وسلامى ، وربما زرتك فى جوتنج فى عهد قريب ، فقد ضقت ذرعاً بذلك الرجل ، وأصبحت لاأطيق البقاء معه لحظة واحدة فى بلد واحد .

٥٠

من استيفن إلى إدوار

لا تعتب عليّ يا صديق ، إن قلت لك إن لى فى الحياة رأياً غير رأيك وغير ما يراه الناس جميعاً .

إنى لا أعرف سعادة فى الحياة غير سعادة النفس ، ولا أفهم من المال إلا أنه وسيلة من وسائل تلك السعادة ، فإن تمت بدونه فلا حاجة إليه ، وإن جاءت بقليله فلا حاجة إلى كثيره .

ماذا ينفعنى من المال وماذا يغنى عنى يوم أُقلّب طرفى حولى فلا أرى بجانبى ذلك الإنسان الذى أُحبه وأُوثره ، وأرى فى مكانه إنساناً آخر لا شأن لى معه ، ولا صلة لقلبى بقلبه ، فكأننى وأنا خال به خال بنفسى منقطع عن العالم وما فيه .

إن الرجل الذى يتزوج المرأة لمالها إنما هو لص خائن ؛ لأنه إنما يأخذ ما يأخذ من مالها باسم الحب وهو لا يحبها ، وعاجزٌ أخرق ؛ لأنه قعد عن السعى بنفسه لنفسه : فوكل أمره إلى أمرأة ضعيفة تَقوته وتُمونه وساقط المروءة متبذّل ، لأنه يأجرُ جسمه للنساء ، كما تأجرُ البغىُّ نفسها للرجال ، ليستفيد من وراء ذلك قوته .

نعم إنى بائس فقير ، كما تقول ، ولكننى أسعى لنفسى سعى المجـــدّ الدؤوب ، وقد بدأت أنجح فى مسعاى منذ الأمس ، فقد حصلت على

وظيفة صغيرة ستكون كبيرة فيما بعد ، واستأجرت لى غرفة بسيطة فأصبحت ذا مسكن خاص ، وسينتهى بؤسى وشقائى ، وأنال السعادة التى أرجوها ، وسيكون أعظم ما أغتبط به فى مستقبل حياتى أننى أنا الذى صنعت إكليل سعادتى بيدى .

أحييك يا إدوار ، وأرجو ألا تعتب علىّ فيما قلت لك ، ولعلك تفى بوعدك لى ، فأراك فى جوتنج فى عهد قريب .

٩١

غرفة استيفن

سكن استيفن بعد حصوله على وظيفته الجديدة فى غرفة صغيرة طولها عشرة أقدام وعرضها سبع ، ووضع فيها سريراً من خشب ومنضدة عارية يكتب عليها ليلا ، ويأكل عليها نهاراً وكرسيين مختلفى الحجم والشكل ، يجلس على أكبرهما وأصلحهما شأناً ، ويضع حقيبة ملابسه على الآخر ، ومنصباً للطبخ ، وجرة للماء ، وبعض آنية أخرى ، وكان بغرفته كوة تشرف على سطوح منازل قديمة مهجورة لا يسكنها أحد ، فلما أشرف منها ورأى ذلك المنظر الموحش اشمأزت نفسه قليلا ، ثم قال لا بأس ، فذلك خير لى من أن يطلع على خلتى أحد ، ثم لمح على البعد دوحة عظيمة مورقة فى بعض المنازل القاصية فقال : تلك هى الروضة التى أفتح عليها نظرى كل صباح ، وهل يتمتع صاحبها الذى يملكها ويتعهدها منها بأكثر

من ذلك ، ثم رأى على مقربة منه كنيسة صغيرة فقال فى نفسه : أرجو أن تساعدنى دقات ساعتها على معرفة المواقيت ، ثم مالبث أن سمع رنينها فأخذ يَعدها فرحاً مبتهجاً وهو يقول : لن أشترى ساعة بعد اليوم .

وكذلك اغتبط استيفن بمسكنه الجديد على صغره وحقارة شأنه اغتباطاً عظيما ، لأنه أول مسكن نزل فيه عند نفسه ، وابتاع أثاثه وأدواته من ماله وظل يقول فى نفسه : فى المسكن الخاص يستطيع المرء أن يكون حرا فى قيامه وقعوده ، وجلوسه واضطجاعه ، ونومه على الهيئة التى يريدها لايتكلف ولا يتعمّل ، ولايجامل الناس ولا يرائيهم ، ولا يضع نفسه فى القالب الذى يصنعونه له ، فيرفع يده فى الهواء بغتة دون أن يخاف وقوعها على وجه أحد ، ويستعين بتقليب يديه وتحريك رأسه على النظر والتفكير دون أن يسميه أحدٌ مجنوناً أو مختبلا ، ويمد قدميه فى الناحية التى يريدها لايخشى محاسباً يحاسبه على الأدب أو يلاحيه فى قواعده وأصوله ، أى أنه يكون فيه على الصورة التى خلقه الله عليها ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص شيئاً .

وكان لابد له من أن يعيش عيش الإقلال والتقتير . فلم يلاق فى ذلك عناء عظيما ، لأنه كان قنوعاً مجتزئاً . فقسم دخله بين نفقات طعامه وشرابه وملبسه وأجرة مسكنه ووفاء ماعليه من دين الأثاث الذى ابتاعه ، وعاش عيشة هادئة ساكنة لا يكدرها عليه مكدر ؛ لأنها كانت مملوءة أملا ورجاء .

٤٣

الطارق الجديد

جلس استيفن فى غرفته غداة يوم من أيام الآحاد ، وهى الأيام التى يشعر فيها بالراحة من عناء الدرس ونصبه ، فسمع خفق نعل ثقيلة على السلم يختلف صوتها عن صوت نعل جارته العجوز التى كانت تختلف إليه من حين إلى حين لتملأ له جرة الماء من البئر ، فدهش وتسمع فإذا القادم يصيح باسمه صياحا عاليا ، فخيل إليه أنه يعرف صاحب هذا الصوت ، فابتدر الباب ففتحه فإذا صديقه « إدوار » فابتهج بمرآه وعانقه عناقا طويلا ، وقال له : لقد وفيت بوعدك أيها الصديق فلك الشكر على ذلك ، ولقد كنت أترقب حضورك ترقب المقرور أشعة الشمس ، والظامئ ديمة القطر ، فقال له سأنزل عندك فى غرفتك هذه الصغيرة ضيفاً شهرين أو ثلاثة ، وهى المدة الباقية لى على بلوغ سن الرشد ؛ ولقد اشتد النزاع بينى وبين عمى حتى أصبحت لا أطيقه ولا يطيقنى ؛ ففارقت منزله وأقسمت ألا أرى وجهه حتى تنتهى قضية الوصاية التى بينى وبينه ؛ ثم دخل وهو يقول : ما أجمل هذه الغرفه وأبدع شكلها ، إنها أوسع مما كنت أظن ، وأجمل مما كنت أقدر ، وعمد إلى حقيبته ففتحها وأخرج منها زجاجة عطر ومشطا وبضعة مناديل من الحرير وقدمها هدية إلى استيفن . فقبلها منه شاكراً ثم قام استيفن إلى شريحة لحم كان يُعدها لطعام الغد فاشتواها ووضعها على المائدة ووضع بجانبها زجاجة من الخمر وقطعة من الجبن ثم أخذا يأكلان ويتحدثان

ويتذاكران أيام طفولتهما الماضية ؛ وكذلك قضيا بقية يومهما مسرورين مغتبطين حتى أتت ساعة النوم ، ففرش استيفن لنفسه حشيّة فى بعض جوانب الغرفة وترك السرير لضيفه وناما .

ولما أصبحا أعطى استيفن لإدوار قبل ذهابه إلى المدرسة جميع ماكان معه من المال وقال له : إن وظيفتى فى الشهر مائتا فرنك أُنفق منها على الطعام والشراب ستين ، وأحفظ الباقى لأجرة الغرفة وسداد دين الأثاث الذى ابتعته ، وقد أنفقت منها خمسين فرنكا فى الأيام العشرة الماضية ؛ وهاهو ذا الباقى فتولَّ أنت إنفاقه : فأنت رب البيت منذ اليوم وصاحب الشأن فيه ، ثم تركه ومضى ؛ فلم يلبث إدوار أن نزل إلى السوق فاشترى لحماً وخبزاً وتوابل وفاكهة وخمراً ، وأنفق فى سبيل ذلك اثنى عشر فرنكا ، وجلس يطبخ ويشتوى حتى انتصف النهار وحضر استيفن فقال له : ماهذا يا إدوار ؟ أوليمة هى ؟ قال نعم وليمة الاحتفال بقدومى ؛ فابتسم استيفن وقال له : لقد أحسنت فيما فعلت ، وذكرتنى بما كنت عنه لاهيا ، وجلس يؤاكله حتى فرغا من الطعام ، فقال : له إدوار أرى أن الغرفة تَنقصُها بضعة أشياء لابد لنا منها ، فائذن لى بمشتراها ؛ وأعدك ألا أبتاع إلا مالابد لنا منه ، وألا أنفق فى سبيل ذلك إلا ثمناً قليلا ، فقال له : لك ماتريد ، فخرج ثم عاد بعد ساعة يقتاد كلباً أسود ضخما ووراءه حمالٌ يحمل له مرآة كبيرة ومِشجَباً للثياب وهو يقول : ما أقبحَ الغرفة التى لامرآة فيها ، وما أشد وحشةَ البيت الذى لايسبح فيه كلبٌ ، على أننى لم أُنفق فى جميع ما ابتعتُه أكثر من عشرين فرنكا ، وأظنك ترى يا استيفن كما أرى أنها صفقة رابحة

نادرة قلما يتفق مثلها لأحد ، فضحك استيفن وقال له : ما أعذب جنونك يا إدوار ! قال : وهل تطيب الحياةُ بغير جنون ؟

وكذلك لم يأت اليومُ العشرون من الشهر حتى صفرت أيديهما من النقود ، ولم يُجد عليهما الكلبُ ولا المشجب ولا المرآة شيئاً ، فقال استيفن : ما العمل يا إدوار ؟ قال الأمر أهون مما تظن ، وسأرى لك الرأى الذى ينفعنا ، ثم تركه وخرج وعاد بعد قليل يصحبهُ أحد الحمالين ورجلٌ آخر من تجار الأثاث ، فوقف على عتبة الغرفة وقال للرجل خذ هذا السرير فإنه يضايق الغرفة كثيراً ، ولاظهرَ أثبت تحت جسد النائم من ظهر الأرض وخذ هاتين الوسادتين الزائدتين ، فالوسادة الواحدة إذا ثُنيت تكفى صاحبها ، ثم نظر إلى استيفن وقال له : أليس كذلك ياصديقى ؟ فانتبه استيفن وكان مُكباً على منضدته يكتب كتاباً إلى ماجدولين ففهم كل شىء ، وقال : بلى يا إدوار ، قال أتظن أن زجاجاً رفيقاً كزجاج هذه النافذة يبقى طويلا على هذه الرياح العاصفة فى هذا الشتاء الشديد ؟ قال لا ، قال أليس من الحزم أن نلتفع بثمنه بدلا من أن نتركه لعبة فى أيدى الرياح تعبث به ماتشاء ؟ قال ذلك هو الرأى ، فمشى إلى النافذة فانتزع ألواحها واحداً بعد آخر وأعطاها الحمالَ ، ثم قال له : وهل ترى أننا فى حاجة إلى مثل هذا الغطاء الثقيل فى مثل هذه الغرفة الضيقة ؟ قال لا ، فأمر الحمال بحمله ، ثم قال له : وهل تضع فى هذه الخزانة شيئاً تخاف عليه أن يسرق ؟ فضحك استيفن وقال له لوكان عندى ما أخاف عليه لم نصر إلى ماصرنا إليه ، قال إذن مابقاء هذا القُفل فيها ثم مد يده إليه فانتزعه من مكانه ، وظل يقلب

نظره فى الغرفة حتى وقع على المنضدة ، فذعر استيفن وقال له انتظر يا إدوار لاتمسسها حتى أتم رسالتى ، فضحك وقال : إنى أتركها لك إكراما لماجدولين ، وأخذ يساوم الرجل فى ذلك الأثاث حتى باعه منه بثلاثين فرنكا ، ثم عاد إلى استيفن وقال له ماذا ترى فيما تم ؟ قال أرى أن تعطينى هذا المال الذى معك لأتولى إنفاقه بدلا منك ، فإنك لاتستطيع أن تكون حازما ، قال أظن أننا قد بدأنا نختلف ياصديقى ، لأنك تحب التقتير وهو لايعجبنى ، وأنا أحب السعة وهى لاترضيك ، فخير لى ولك أن نقتسم راتبك بيننا قسمين ، وأن يعيش كل منا وحده بالقسم الذى يصيبه ، وصمت هنيهة ثم قال : على أن افتراقنا فى المعيشة لايتم إلا إذا افترقنا فى السكن ، فليختص كلٌّ منا بجهة من الغرفة مستقلة عن جهة صاحبه ، وهأنذا أقسمها بيننا قسمة عادلة ، ثم عمد إلى قطعة من الجص وخط بها وسط الغرفة خطاً مستطيلا ، وقال هذا قسمى أنا وكلبى ومرآتى ومِشجبى وهذا قسمك وحدك ، وهو خير من قسمى وأكثر منه مرافق ومنافع ، لأن فيه المنصب الذى تطبخ عليه طعامك ، والمنضدة التى تكتب عليها رسائلك ، والنافذة التى تمد فى فضائها ذراعك كلما أردت أن تلبس قميصك أو معطفك ، فأغرب استيفن فى الضحك وخرج لشأنه وترك له الغرفة يفعل فيها ما يشاء .

وكذلك استمر إدوار ينغص على استيفن عيشه ، واستيفن لايغضب ولايشكو ، بل لايشعر بألم ولا ضيق ، لأنه كان صديقه وكفى .

٤٣

التضحية

خرج إدوار ذات يوم يرتاض فى بعض أطراف القرية ، وبقى استيفن وحده يدوّن فى دفتره بعض نغمات موسيقية لدروس الغد ، وإنه لكذلك إذ سمع على السلم خفق نعال كثيرة وأصواتا مختلطة وصياحا عالياً ، فدهش وقام إلى الباب ففتحه . فإذا رجل طويل القامة عريض المنكبين يلبس لباس عمال المناجم تشتعل عيناه ناراً ويتدفق الزبد من شفتيه وقد أمسك بيده سيفين عريضين ، فلما وقع نظره على استيفن قال له : أأنت المسمى إدوار ؟ فعلم استيفن أن الرجل يريد بصديقه شرا وأنه لا يعرف شخصه ، فأشفق منه وأراد أن يعرف ماتِرَتُهُ [1] عنده فقال له نعم أنا هو فماذا تريد منى ؟ فابتدره الرجل بلطمة على وجهه أظلمت لها عيناه وقال له : لعل شجاعتك التى دفعتك إلى مغازلة زوجتى وانتهاك حرمة بيتى والعبث بشرفى لا تفارقك فى هذه الساعة حين أدعوك إلى مبارزتى على ضفاف النهر ، وهاهم أولاء شهود المبارزة فليختر كل منا من يشاء منهم ، فأخذ استيفن منه السيف صامتاً وقد فهم كل شىء ، وكان ملماً بعض الإلمام بقصة إدوار مع زوج هذا الرجل ، وأشفق عليه أن يصيبه من تلك المبارزة شر ؛ لأنه كان يعلم أنه لم يجرّد فى حياته سيفاً قط ، فمشى مع خصمه صامتاً لا يقول له شيئاً حتى بلغا ضفة النهر وجردا سيفيهما للقتال ، وهنا ذكر استيفن ماجدولين

---

(١) الترة : الثأر .

وود لو استطاع أن يكتب إليها كلمة وداع فنظر إلى الشهود وقال : هل أجد مع أحد منكم بطاقة صغيرة ؟ فأعطاه أحدهم ما أراد ، فكتب هذه الكلمة الموجزة « إنى أموت فى مبارزة شريفة وأنت آخر من أفكر فيه فالوداع ياماجدولين » وكان أحد الملاحين واقفاً على مقدمة سفينته بجانب الضفة فرأى استيفن وهو يكتب كلمته ثم رآه وهو يقلب نظره حوله يفتش عن رسول يبعث بها معه ، فأثر منظره فى نفسه وتقدم نحوه وقال له ائذن لى ياسيدى أن أحمل رسالتك إلى من تريد ، فشكر له استيفن صنيعه وأعطاه الرسالة بعد ما كتب عنوانها على ظهرها ، ثم شرع فى المبارزة فكانت يده فيها أعجز من يد خصمه ، فجرح بعد ضربات فى ذراعه جرحا بليغاً ، فوقف الشهود المبارزة وتصافح الخصمان والملاح لايزال واقفاً فى مكانه ، فقال له استيفن وهو ساقط على الأرض بصوت ضعيف : مزق الرسالة التى معك فلاحاجة إليها الآن ، فمزقها الرجل ودنا منه فأخرج من جيبه منديلا فعصب به ذراعه ، ثم أنهضه من مكانه وأخذ بيده وظل سائراً معه حتى صعد به إلى غرفته ، فأضجعه على فراشه وجلس بجانبه يضمد جرحه ويواسيه .

٢٤

الصـــداقة

جلس إدوار إلى صديقه فى الليلة التى عزم على السفر فى غدها وكان جرحه قد أشرف على البرء ، وقال له : لقد سجلت لنفسك بدمك يا استيفن

فى صفحة قلبى نعمة لا أنساها لك مدى الدهر ، كما لا أنسى لك أنك وأنت فى أشد حالات بؤسك وضيقك قد آويتنى وواسيتنى أياماً طوالا ، واحتملت لى مالا يحتمله أخ لأخيه ولا حميم لحميمه ، فلو أننى جمعت لك فى يوم واحد جميع ماكافأه به الناس بعضهم بعضاً على الخير والمعروف منذ خلقت الدنيا حتى اليوم لما جازيتك بعض الجزاء على الخير الذى صنعت ، فقال له استيفن إننى لم أُسد إليك يداً تستحق مكافأة ؛ ولكنك صديقى وللصداقة آثار طبيعية تتبعها وتنبعث وراءها جريانَ الماء فى منحدره ، فإن كنت لابد شاكراً فاشكر الصداقة التى ظللتنا بجناحيها منذ كنا طفلين صغيرين ، والبؤسَ الذى لف شملى بشملك ، وخلط نفسى بنفسك ، وحوّلَ قلبينا القريحين الكسيرين إلى قلب واحد ، وإن قدّر لك يوماً من الأيام أن تمد يدك لمعونتى فليكن ذلك منك إذعاناً لرحمة قلبك وحنانه ، لا مكافأة على خير ، ولا مجازاة على معروف .

إننى شقىٌّ منذ ولدت يا إدوار ، فأنا أحبُّ الأشقياء وأعطف عليهم لأننى واحد منهم ، ولا صداقة فى الدنيا أمتن ولا أوثق من صداقة الفقر والفاقة ، ولا رابطة تجمع القلبين المختلفين مثل رابطة البؤس والشقاء ، فلو أننى خيرت بين صحبة رجلين : أحدهما فقير يضم فاقته إلى فاقتى فيضاعفها ، وثانيهما غنىٌّ يمد يده لمعونتى فيرفهُ عنى ما أنا فيه من شدة وبلاء ، لآثرت أولهما على ثانيهما ؛ لأن الفقير يتخذنى صديقاً ، والغنىّ يتخذنى عبداً ، وأنا إلى الحرية أحوج منى إلى المال .

يظن السعيد دائماً أن السعادة التى يمرح فى ظلها إنما هى منحة سموية

قد آثره الله بها من دون عباده جميعاً لفضيلة كامنة فى نفسه لا يشاركه فيها غيره ، ولا يعرفها الله لشخص فى العالم سواه وليس فى استطاعته أن يتصور بحال من الأحوال أن السعادة عارية من عوارى الدهر ، يأتى بها اليوم ، ويذهب بها غداً ، ولعبة من ألاعيبه ، يختلف بها بين الناس أخذاً ورداً ، ويداولها بينهم عطاء وسلباً ، فتراه واثقاً بها مستنيما إليها ، ينطق بذلك لسانه ، وتهتف به حركاته وسكناته ، وملامح وجهه ، وابتسامات ثغره ، ومن كان هذا شأنه نظر إلى غيره من البائسين المحدودين[1] الذين لا يتمتعون فى حياتهم بمثل متعته ، ولا يهنأون فيها بمثل نعمته ، نظر الشمس الساطعة إلى ذرات التراب المبعثرة على سطح الأرض ، فهو يمن عليهم باللفتة والنظرة ، ويحاسبهم على القعدة والقومة ويتقاضاهم إجلاله وإعظامه كأنما يتقاضاهم حقا من حقوقه المقدسة التى لا ريب فيها ؛ فإن أذن لأحدهم يوما من الأيام أن يجلس فى حضرته لا يعجبه منه إلا خضوعه له ، واستخذاؤه بين يديه ، وتضاؤله أمام نظراته المترفعة تضاؤل الحمامة الساقطة تحت أجنحة النسر المحلّق ، ثم لا يجازيه على ذلك بأكثر من دعائه إلى مائدته ، أو الإنعام عليه بفضلة ماله ، أو خلقان ثيابه ، لا يبعثه إلى ذلك باعث رحمة أو حنان ، بل ليريه فرق ما بينه وبينه فى مظاهر الحياة وزخارفها ، وحظوظ الأيام وجدودها ، وليضيف إلى عنقه المثقل بأغلال الفقر غلا جديداً من الذلة والاستعباد ، فإذا أراد المسكين أن يُفضى إليه بهمّ من هموم قلبه ترويحاً عن نفسه ، وترفيها لآلامه : أعرض عنه وبَرِم

(١) المحدود : المحروم

به ، وخيل إليه أنه ما ذهب معه هذا المذهب فى حديثه إلا وقد أضمر فى نفسه أن يقاسمه ماله ، أو يساكنه فى قصره ، أو يشاطره نعمته وسعادته ، فلا يعزيه عن بأسائه بأكثر من أن يلومَهُ على تبذيره وإسرافه ، أو على بلادته وغفلته ، ثم يختم حديثه معه بقوله : إن جميع ما يصيب المرءَ فى حياته من بؤس وشقاء ليس الذنب فيه على القدَرِ ، بل على قصور الإنسان وجهله ، وعدم اضطلاعه بشؤون الحياة وتجاربها ، وإن الله تعالى أعدل من أن يمنح نعمة جاهلها أو يسلبها مستحقها ، أى إنه يحمع عليه بين بليتين : بلية الهم ، وبلية اليأس من انفراجه وانقشاعه .

لايستطيع الغنىُّ أن يكون صديقاً للفقير ، لأنه يحتقره ويزدريه ، فلا يرى فيه فضيلة يصادقه عليها ، أو يصطنعه من أجلها ، ولأنه يشعر من نفسه باقتداره على احتمال أعباء الحياة وحده دون أن يعينه عليها معين من الفقراء أو الأغنياء ، أما صديق الفقير فهو الفقير الذى يصغى لشكاته إذا بثها إليه ، ويفهم معناها إذا سمعها منه ، ويعزيه عنها إذا فهمها عنه ، ويجعل له من صدره متكأ ليناً يلقى رأسه عليه وهو تعب مكدود فيجد فيه بَرد الراحة والسكون .

لذلك أحببتك يا إدوار ، واتخذتك صديقا ، وكان الشقاء هو الوثيقة التى تعاقدنا فيها أن يكون كل منا عونا لصاحبه على دهره ، وجُنة له من دون نكبات الأيام وأرزائها ، مهما تقلبت بهما الأحوال ، أو فرقت بينهما الأيام .

فأخذ إدوار بيد استيفن وأقسم له بكل حرجة من الأيمان ألا يبدأ

له فى حياته رُوع ولا يثلج له صدر حتى يراه ظافراً من دهره بالسعادة التى يرجوها ، ثم عرض عليه أن يضع بين يديه جزءاً من ثروته التى صارت إليه فأبى ، وقال أما هذه فلا ؛ لأنى لا أريد أن أشترى سعادتى فى دنياى إلا بأشرف أثمانها .

وفى الصباح مشى استيفن مع إدوار ليودّعه حتى بلغا مكان الافتراق فتعانقا طويلا وبكى استيفن على صديقه ثم افترقا .

٤٥

من استيفن إلى ماجدولين

خرجتُ ليلة أمس أرتاض على شاطئ النهر ، فلما استقبلت الفضاء شعرت أن أوراق الأشجار تضطرب اضطرابا سريعاً فى خفوت وهمس وأن الهواء يمشى متثاقلا مترجحا يتحامل بعضه على بعض ، ورأيت قطع السحاب الضخمة السوداء تتنقل فى صحراء السماء تنقل قطعان الفيلةِ فى غاباتها ، وخُيل إلىَّ أنى أسمع فى أعماقها قعقعة مبهمة تدنو حينا وتنأى أحيانا ، وكأنما قد راع هذا الصوتُ الأجشُّ طيورَ الماء ، وحشراتِ الأرض ، فرأيت الطيور مرفرفة على سطح النهر تستبق إلى أوكارها ، والحشرات متعادية بين الصخور تتسرب إلى أجحارها ، ورأيت السواد قد صبغ كل شىء حتى لون الماء ؛ فقبة السماء ورقعة الأرض والأفق الذى يصل بينهما منجم أجوف عميق من مناجم الفحم يحاول البرق أن يجد له فى

جدرانه العاتية الصماء منفذاً ينحدر منه إلى جوفه فلا يستطيع إلا الومضة بعد الومضة تعتلج بين طبقاته ولا تنفذه .

ثم مالبثت هذه الطبيعة الصامتة الخرساء أن هدرت وزمجرت فهبّت الزوبعة من كل مكان تخبط بيديها أوراق الأشجار فتطير بها كل مطار وتهزّ السقوف والجدران هزّا وتضرب بعضها ببعض . ثم أقبل المطر يمزق قطع السحاب ويفتح لنفسه والبرقِ طريقاً فى خلالها ، ثم هَمىَ فسالت به الأودية والأرجاء ، وامتلأت الأخاديد والأغوار . وكنت على مقربة من كوخ صديقى « فرتز » وهو ملاح فقير أسدى إلىّ فيما مضى من الأيام صنيعة لا أزال أحفظها له حتى اليوم ، فلجأت إليه فخُيّل إلىّ حين دخلته أنه مقفر موحش ليس به أنيس ، ثم أضاء البرق فرأيت فى داخله منظراً من أجمل المناظر وأبدعها ، رأيت زوج الرجل وأولاده جاثين على أقدامهم خاشعين باسطى أيديهم إلى السماء يدعون الله تعالى بدعوات جميلة يرددونها بصوت شجىّ محزن . فخيل إلىّ ولامصباحَ هناك ولا ضياء أنى أرى إشراق وجوههم وتلألؤها فى هذه الدُّجنّة الحالكة وأحست بى المرأة فالتفتت إلىّ وقالت : لم يعد « فرتز » حتى الساعة ، ونحن نخشى أن يكون قد أصابه مكروه من أهوال تلك الليلة ، فنحن ندعو الله تعالى أن يرده إلينا سالما ، فأثر فى نفسى هذا المنظر تأثيراً شديداً ، وقلت فى نفسى : « ويل للذين يحاولون أن يسلبوا أمثال هؤلاء المساكين إيمانهم ويقينهم ، إنهم يسلبونهم حياتهم التى يحيون بها فى هذا العالم وكل ماتملك أيديهم من سعادة وهناء » وشعرت بحزن شديد فى أعماق قلبي لحرماني من مثل هذه السعادة النفيسة التى ينعم

بها هؤلاء القوم، فثنيت بجانبهم أهتف بهتافهم، وأدعو بدعائهم، وأضرع إلى الله أن يمنحني يقيناً مثل يقينهم، ولم أدر أن ما أنا فيه إنما هو اليقين الذي أنشده، وأضرع إلى الله فيه، ثم رفعت رأسي فإذا "فرتز" واقف على عتبة الباب، فهرعت زوجته إليه تقبله وتنضو عنه رداءه المبتل، ودار أولاده به يلثمونه ويستقبلون ثناياه الأبوية الرحيمة ويستطيرون فرحاً به وسروراً، ثم احتملوه جميعاً إلى المائدة وجلسوا حوله يحادثونه ويسائلونه عما كابد من أهوال هذه الليلة وشدائدها، وجلست على مقربة منه أسمع حديثهم، وأستشف سريرة نفوسهم. فأخذ منظرهم هذا من نفسي مأخذا شديدا. وكدتُ - وما حسدتُ أحدا في حياتي على نعمة قط - أن أحسدهم على نعمتهم هذه، وقلت في نفسي: زوجة تحب زوجها وتبكي رحمة به وإشفاقا عليه، وأولاد يحنون على أقدامهم ويمدون أيديهم إلى الله تعالى ضارعين أن يحفظ لهم حياة أبيهم، وأب يبكي فرحا برؤية أولاده بين يديه سالمين مغتبطين: إنها السعادة النفسية العالية التي لا تستمد بهجتها ورواءها من القصور والرياض، والأثاث والرياش، والفضة والذهب، بل من الحب الخالص، والود المتين.

وكذلك سيكون شأننا في مستقبلنا يا ماجدولين، فربما كتب لنا أن نعيش عيش الفقراء المقلين؛ ولكننا سنكون على فقرنا وإقلالنا سعداء مغتبطين.

لم يبق بيني وبين الحصول على تلك الزيادة التي وعدوني بها إلا ثلاثة أشهر سأسافر من بعدها إليك في «ولفاخ» لأخطبك إلى أبيك وأضع يدي في يدك؛ فلا يبقى للشقاء بعد اليوم إلينا من سبيل.

٤٦

من ماجدولين إلى استيفن

سافرت سوزان إلى كوبلانس وتركتنى حزينة آسفة على فراقها ، ولكنى سألحق بها عما قليل ؛ فقد وعدها أبى أن نسافر إليها بعد شهر واحد لنقضى عندها بقية أيام الشتاء ، وسأكتب إليك عند وصولى لتكون على بينة من ذلك ؛ فلعلك تجد السبيل إلى موافاتى هناك ، فأراك — ولو على البعد — والسلام .

٤٧

من ماجدولين إلى استيفن

وصلنا منذ ثلاثة أيام أنا وأبى إلى كوبلانس ونزلنا ضيفين فى منزل سوزان وأنا مغتبطة بلقائها وبالسعادة التى أجدها فى منزلها اغتباطا عظيما ؛ وقد أخبرتنى اليوم أنها ابتاعت لنا مقصورة فى ملعب « الأوبرا » نذهب إليها مساء كل أحد ؛ فها نحن أولاء قد وجدنا المكان الذى يمكننا أن نتراءى فيه أو نتلاقى إن استطعنا .

فتعال إلىّ يا استيفن ، ولا يحل بينك وبين ذلك أنك سترى مرة ثانية وجه ذلك البلد الذى أبغضتَه واجتويتَه وخرجت منه ناقما عليه ، واغتفر كل شىء من أجلى .

٤٨

الحياة الجديدة

سافرت ماجدولين مع أبيها إلى كوبلانس ونزلت فى ضيافة صديقتها سوزان فأدهشها منظرُ القصر وأبهاؤه وحُجراته ، وما يشتمل عليه من أثاث ورياش ، وما يتلألأ فى جوانبه من زخرف وآنية ؛ وأعجبها منظر الوصائف فى إقبالهن وإدبارهن ، وما يتراءين فيه من ألوان الثياب وأنواع الأزياء . حتى خيل إليها وهى واقفة أمام المرآة تنظر إلى نفسها وإلى موقفهن بجانبها أنهن فوق أن يخدُمنها أو يسعين بين يديها ؛ بل تمثل لها أنهم يسخرون فى أعماق نفوسهن بمنظرها ، ومنظر ثيابها القروية القصيرة المخططة التى خاطتها بيدها ، وكثيراً ما كانت تحدّثها نفسها كلما بدت لها حاجة من الحاج أن تقوم إلى قضائها بنفسها خجلا منهن وحياء ، والله يعلم كم ناالها فى مبدإ أمرها من حيرة وارتباك كلما جلست إلى طعام أو شراب ، أوشهدت مجمعاً ، أو حضرت ملعبا ؛ وكم كابدت من عناء فى صياغة نفسها على أوضاع تلك الحياة الجديدة التى انتقلت إليها حتى أسلست واستقادت .

وكانت سوزان قد أعدّت لها أنواع الأقمشة من حرير ومخمَل وخز وصوف وفرو ، فخاطت لها خياطة ماهرة ثوباً للرقص ، وآخر للملعب ، وآخر للمائدة ، وقُمصا للبيت ، وغلائل للنوم ؛ فرقصت وغنّت وأنست بمنظر الراقصات والمغنيات ، وتحدّثت بأحاديث فتيات كوبلانس ، وذهبت مذاهبهن فى آرائهن وتصوراتهن ، ولذّت لها هذه الحياة الجديدة لذة عظمى

وملأت مابين جوانحها حتى غلبتها على أمرها ، فتضاءل فى نظرها كل شىء فى ماضيها إلا حبها لاستيفن .

٢٩

الفتنـــة

دخلت ماجدولين على سوزان ذات ليلة فى غرفتها الخاصة فى القصر ، وهى غرفة بديعة فاخرة قد كسيت أرضها وجدرانها بالقطيفة الحمراء المطرزة وأُسبلت على نوافذها وأبوابها ستائر حريرية بيضاء تتراءى فى خلالها أسلاك الفضة اللامعة ، وتدور فى أطرافها ألوان الفصوص المتلألئة وانتثرت فى جوانبها وأركانها المقاعد الثمينة ، والمناضد الجميلة ، وآنية الفضة والذهب ، وأُصص الريحان والزهر ، فرأت بين يديها صناديق صغيرة من الفضة فقالت لها سوزان حين رأتها : لقد أرسل إلىَّ خطيبى اليوم هدية الزواج فهل تحبين أن تريها ؟ قالت لا أحبّ إلىَّ من ذلك : ففتحت سوزان الصناديق أمامها واحداً بعد آخر فإذا عقود ودمالج وأساورُ وأقراطٌ مصوغة أجمل صياغة وأبدعها ، مرصعة بأنفس اللآلئ وأثمن الجواهر ، فدهشت ماجدولين لمنظرها وظلت تقلبها بين يديها ساعة ، ثم تناولتْ قرطاً صغيراً من الماس فوضعتهُ فى أُذنيها ، فاقترحت عليها سوزان أن تتقلد الحليةَ بأجمعها لترى منظرها عليها ، ففعلت ووقفت بها أمام المرآة وأقبلت بها وأدبرت ، فقالت لها سوزان : ما أحوج جمالك يا ماجدولين إلى مثل هذه الحلية وما أحوج هذه الحلية إلى مثل هذا الجمال ؛ وإنى لا أتمنى

على الله شيئاً سوى أن أراك خطيبة رجل من ذوى النعمة والثراء يحبك ويستهيم بك، ويملأ فضاء حياتك هناءاً ورغدا، ثم أنشأت تصف لها قصرا بديعاً ابتناه لها خطيبها فى إحدى ضواحى كوبلانس وأعدّ لها فيه من أسباب النعمة والرفاهية مالا يعدُّ مثله أصحاب التيجان للساهم وحظيّاتهم [1] وختمت حديثها بقولها: وفردريك فوق ذلك فتى جميل ساحر لا تقع العين على أبدع ولا أظرف منه، وهو يحبنى حباً شديدا، ولا أحسب أن الذى أضمر له من الحب أقل مما يُضمر لى، فأطرقت ماجدولين هنيهة ولم تكن قد أفضت إلى صديقتها حتى الساعة بسر حبها لاستيفن، ثم رفعت رأسها وقالت: هل تكتمين سرى ياسوزان إن أفضيتُ به إليك؟ قالت نعم ومن يكتمهُ إن لم أكتمه؟ فقصت عليها قصتها مع استيفن وذكرت لها ذلك العهد الذى أخذه كل منهما على صاحبه أن يعيش له، وألا يفرق بينهما إلا الموت، فقالت سوزان: إنى أذكر أنك كتبت لى عنه وكان حديث عهد بالنزول بداركم أنه غير جميل ولا جذاب، قالت نعم هو كذلك، ولكننى أحببت فيه أخلاقه أكثر من كل شىء، وإن رجلا يخاطر بنفسه من دون الناس جميعاً فى سبيل إنقاذ غريق لا يعرف من هو حتى أنقذه وكاد يهلك دون ذلك لهو أشرف الرجال، وأنبلهم قصداً، وأعلاهم همة، ولقد شهدتِ أنت بنفسك ذلك المنظر، وكتبت لى عنه، وعلمتِ منه أكثر مما أعلم، قالت أهو الرجل؟ قالت نعم، قالت إنى أذكر ذلك، ولقد أُعجبت به فى ذلك اليوم إعجابا عظيما، وهل

(١) الحظية: السرية المكرمة عند سيدها، من الاحتظاء: وهو النزول منزلة الكرامة.

هو غنيّ ؟ قالت لا ، ولكنه يسعى إلى الكفاف من العيش وسينالـه ، وحسبي منه أنه يحبني حباً لا يحبه أحد أحداً ، قالت ما أقبح المهر يا ماجدولين إذا كان كله حبا ، إنك إذاً تريدين أن تتبتلي وتستوحشي وتهجري العالم كله بجماله ورونقه إلى غرفة خاملة فى أحد المنازل المهجورة المنفردة تقتلين فيها نفسك هما وكمداً .

فصمتت ماجدولين ولم تستطع أن تقول شيئاً ؛ لا اقتناعا برأى صديقتها ، بل حياء منها وخجلا ، ثم افترقتا ،

٥٠

الملعب

جلست ماجدولين وسوزان فى مقصورة الأوبرا وجلس بجانبهما ألبرت ابن عمة ماجدولين ، واشميد ابن عم سوزان ، وهما فتيان جميلان متأنقان فى ملبسهما وحليتهما ، شأنهما فى حياتهما شأن أمثالهما من الفتيان الأثرياء المستهترين الذين تنقسم حياتهم كلها إلى ساعتين اثنتين ، واحدة للضحك والسرور ، والأخرى لتصبى النساء واستغوائهن ، فينفقون على الأولى عقولهم ، وعلى الثانية أموالهم ، حتى لا يبقى لهم من هـذا ولا ذاك شيء .

جلسا يقلبان النظر فى وجوه الجالسين فى المقاصير المقابلة لهما ، فإن وجدا وجها جميلا تغامزا وتهامسا ، أو قبيحا ضحكا وسخرا ، ثم علا صوتهما

بالضحك والسخرية ؛ فلم تلبث سوزان أن اشتركت معهما ، ثم تبعتها بعد قليل ماجدولين ، ولم يكن ذلك من شأنها أو مما يلتئم مع مزاجها ولكنها فعلته مجاملة لها ، ثم لم تلبث أن طَرِبَتْ لهذا الأسلوب من المجون وأنست به فأخذت فيه إخذَهما ، وبينا هي تقلب نظرها فى المقاصير المجاورة لمقصورتها إذ رأت امرأة فى سن الشيخوخة تلبس زينة الفتيات وحليتهن فالفتت نظر أصدقائها إلى ذلك فضحكوا لفطنتها ضحكا عالياً رناناً ، لا لأن هناك فطنة تستحق الإعجاب والإطراء ، بل لأنهم أرادوا أن يجازوها مجاملة بمجاملة ، ومصانعة بمصانعة ، فخدعها هذا الإطراء ، فاسترسلت فى نِكاتها ومجونها حتى كادت تستأثر بالحديث وحدها من دونهم جميعاً .

وإنهم لكذلك إذ هتف ألبرت وأشار إلى رجل جالس على كرسى فى مؤخرة الصفوف وقال : هل رأيتم أعجبَ من هذا القرد اللابس ثوب الإنسان ؟ فقال اشميد : أذكر أنى رأيتُ هذا الوحش المستأنس مرة قبل اليوم ولا أدرى أين رأيته ؟ وقالت سوزان : أظنه قدم الملعبَ الساعة فإنى لم أره قبل هذه اللحظة ، وما أحسبه إلا الشيطان الذى كانوا يخيفوننا به صغاراً ولا نراه ، فقال اشميد : إن حلته وإن كانت ثمينة فاخرة فهى من الحلل التاريخية التى لا يلبسها إلا الممثلون ، فأجاب ألبرت : لعله سرقها من قبور الفراعنة أو دور الآثار ، فإن من يملك مثل هذه الحلة الثمينة لا يعجز عن أن يشترى مشطا يمشط به شعره المشعث ، فقالت سوزان لا عار على الرجل أن يكون قبيحاً ، ولكن القبيح أن يلبس ثياباً جميلة تختلف صورتها عن صورته ، فتلفت الأنظار إلى قبحه ودمامته ، ثم التفتوا

جميعاً فرأوا ماجدولين قد تراجعت إلى الوراء وهى ترتعد وتضطرب ، وقد استحالت حمرة وجهها إلى صفرة كصفرة الموت فسألوها ما بالها ؟ فزعمت أنها مقرورة وأنها تشعر برعدة فى جسمها ودوار فى رأسها : ولم تكن صادقة فيما تقول ، ولا يمكن أن تصدقهم فيما تقول : لأن الرجل الذى يسخرون منه ويتناولونه منذ حين بألسنتهم ويذهب كل مذهب فى تحميقه وتجهيله والسخرية به ؛ إنما هو خطيبها الذى تحبه وتستهيم به ، فأمسكوا عن الضحك هنيهة وأقبلوا عليها يعللونها حتى هدأ ما بها ؛ فانصرفوا إلى الرواية يشاهدون فصولها وعادت هى إلى مجلسها الأول ، وظلت تخالس استيفن النظرة بعد الأخرى حتى انتبه لها فحياها بابتسامة خفيفة لم يشعر بها أحد غيرها ؛ ثم ما لبثت الرواية أن انتهت فنهضوا للانصراف ؛ وألقت ماجدولين على استيفن نظرة ضمنتها معنى شكرها إياه على اهتمامه بها ، وحضوره لرؤيتها ، ثم انصرفوا .

٥١

الرجل والمرأة

ينظر الرجل إلى المرأة فى حبه إياها بعين غير العين التى تنظر بها إليه فى حبها إياه ؛ فهو يراها أداته الخاصة به التى لا حقّ لإنسان غيره فى التمتع بها بوجه من الوجوه ؛ ويرى أن حقا عليها أن تختصه بجميع مزاياها وصفاتها فلا تقع على حسنها عين غير عينه ، ولا تسمع رنة صوتها أُذنٌ غير أُذنه ،

ولا يشعر بروعة جمالها قلب غير قلبه ؛ فيغار عليها من النظرة واللفتة ، وكلمة الاستحسان ، وبسمة الإعجاب ويخيل إليه أن الناظرين إليها والمحتفلين بها ، والمتحدثين بأحاديث حسنها وجمالها ، إنما هم قوم جناة متلصصون قد مدوا أيديهم إلى خزانة ذخائره التى يملكها وحده من دون الناس جميعاً ، فاختلسوا من جواهرها جوهرة لا حق لهم فيها ، وفازوا بها من دونه : فيلم بنفسه من الألم والامتعاض ما يلمّ بنفس الشحيح المختبل إذا رأى السائلة تفتر من حرّ الهاجرة إلى جدران داره لتستذرىَ بظلالها ساعة من الزمان ، وإن لم يضره ذلك شيئاً ؛ وقد يكون من أشهى الأشياء إلى نفسه وأعجبها إليه أن يرى الناس قد أجمعوا رأيهم على استقباحها والزراية عليها ووصفها بأقبح الصفات وأشنعها ، وأنها قد أصبحت فى نظرهم ضحكة الضاحكين ، وآية السابلين ، حتى يكون جمالها سرا من الأسرار الخفية ، لا تراه عين غير عينه ، ولا يبلغ صميمه نفس غير نفسه .

أما المرأة فتنظر إلى الرجل الذى تحبه نظرها إلى حليتها التى تلبسها وتعتزّ بها وتدلّ بمكانها على أترابها ونظائرها ، فلا أوقع فى نفسها ، ولا أشهى إلى قلبها من أن تسمع الرجالَ يقولون عنه إنه رجل عظيم ، والنساء يقلن عنه إنه فتى جميل ، فهى تحبه لخيلائها وكبريائها ، أكثر مما تحبه للذاتها وشهواتها ، وترى فى إعجاب المعجبين به وافتتان المفتتنات بحسنه وجماله ، اعترافاً منهم بحسن حظها وسطوع نجمها ، واكتمال أسباب سعادتها وهنائها . وهذا كل ما يعنيها من شؤون حياتها .

لذلك شعرت ماجدولين بلوعة الحزن فى أعماق قلبها حينما عرفت أن

حليتها التى كانت ترجو أن تفاخر بها أترابها غداً ، وتكاثرهن بحسنها وجمالها ، قد بدأتها العيون ، واقتحمتها الأنظار ، وسخر منها الرجال والنساء جميعاً ، وظلّت تفكر فى ذلك ساعة كابدت فيها من آلام النفس ولواعجها ما تكابد نفسُ المحتضر فى ساعته الأخيرة ثم لم تلبث أن عادت إلى نفسها وظلت تقول : إنهم لا يعرفون من أمره ولا أمر نفسه شيئا ولو أنهم علموا من شأنه بعض الذى أعلم ، وعرفوا ما تنطوى عليه جوانحه من الفضائل والمزايا ، لأعظموا منه ما استصغروا ، وأجلوا ما احتقروا . ولأنزلوه من نفوسهم المنزلة التى يستحقها فضله وكرمه .

وهنا ذكرت آماله وأحلامه ، وبؤسه وشقاءه ، وما يكابده فى حياته من شدة وبلاء ، فى سبيل عيشه مرة وحبه أخرى ، فبكت ، رحمة به ، وإشفاقا عليه .

وهكذا أخذ حبها يستحيل إلى رحمة وشفقة ، والحبّ إذا استحال إلى هذين فقد آذن نجمه بالأفول .

٥٣

من استيفن إلى ماجدولين

رأيتك يا ماجدولين بعد افتراقنا عاما كاملا ، وكانت ساعة من أسعد الساعات وأهنئها ، فغفرت للدهر من أجلها كل سيئاته عندى ، بل نسيت عندها أننى ذقت طعم الشقاء ساعة واحدة فى يوم من أيام حياتى ، ظللت

أقول فى نفسى : هذا شأنى ولم أرها إلا لحظة واحدة على البعد ، فكيف بى إذا أصبحت كل ساعاتِ حياتى ساعات لقاء واجتماع ؟ إنى أذكر ذلك ياماجدولين فيخيل إلىَّ أن قلبى أضعف من أن يحتمل هذه السعادة كلها ، وأنها يوم توافينى ستذهب إما بعقلى أو بحياتى .

عفواً ياصديقتى فقد أذنبت إليك بينى وبين نفسى ذنباً لابد لى من أن أعترف لك به حتى لا أكون قد أذنبت إليك ذنباً آخر بكتمانه وإخفائه .

تركت جوتنج وقلبى يخفق رعباً وخوفا أن تكون الحياة الجديدة التى انتقلتِ إليها قد نالت من نفسك مناها من نفوس الفتيات الضعيفات اللواتى تتلوّنُ قلوبُهن وأهواؤهن بلون الهواء الذى يستنشقنه ، والجو الذى يعشن فيه ، فلما رأيتك ورأيت تلك السحابة السوداء من الحزن التى كانت تغشى وجهك وتظلله ، ومنظرَ عينيك الساجيتين المنكسرتين المملوءتين كآبة وحزناً ، علمتُ أنى مخطىء فى هواجسى وظنونى ، وأن المكان الذى شغلتُه من قلبك لا يزال آهلا بى كعهدى به ، وأن تلك الريبة التى عرضت لنفسى فيك إنما هى وساوس الحب وأوهامه .

غير أن لى عندك أُمنية واحدة : أن تأذنى لى بذكرها وأن تتولينى إياها .

رأيتك فى الملعب تلبسين ثياباً رقيقة ناعمة تشف عن ذراعيك وكتفيك ونحرك ، وتكاد تنم عن صدرك وثدييك ، ورأيت الأنظار حائمة حولك تكاد تتهبك انتهابا ، فاشتد ذلك على كثيراً وألمَّ بنفسى من الغيظ والألم ما الله عالم به ، وما أحسب أنك كنت راضية عن نفسك فى هذا المظهر

الذى ظهرت به بين الناس ، ولكنك خضعت فيه لرأى النساء ، ورأيهن فى هذا الشأن أخيب الآراء وأطيشها ، فرجائى عندك أن تنزعى عنك هذه الشفوف المهلهلة ، وأن تعودى إلى ثيابك القروية الأولى ، صونا لجسمك من عبث الأنظار وفضولها ، فليس يكفينى منك أن تهبينى قلبك ، وتؤثرينى بمحبتك ، بل لابد لك من أن تذودى عنك قلوب الرجال وأفئدتهم ، فلا تجعلى لها سبيلا إلى الافتتان بك ، أو الاهتمام بشأنك ، لا بالبشاشة والوداعة ولا بالتزين والتحلى ، ولا بالتجمل والتأنق ، واعلمى أن المرأة لا تخلص للرجل الذى تحبه الإخلاصَ كله حتى تؤثره بجميع مزاياها وصفاتها ، فلا تحفل برأى أحد فيها غير رأيه ، ولا تنزل منزلة الرضا فى قلب غير قلبه ، ولا تأذن لكائن من كان أن يقول لها فى وجهها ، أو بينه وبين نفسه ، أو فى رُؤاه وأحلامه ، إنها جميلة أو فتانة ، أو ما أظرفها وأبدعها حتى توافِيَهُ يوم توافيه طاهرة نقية كاللؤلؤة المكنونة التى يلتقطها ملتقطها من صدفتها .

تحيتى إليك وإلى السيدة سوزان ؛ وسأذهب مساء كل أحد إلى الملعب لأراك ، وألتمس السبيل إلى لقائك .

٥٣

الدسيسة

دخلت سوزان على ماجدولين فى غرفتها فرأتها جالسة جلسة الحزين المكتئب ؛ ورأت ذلك الكتاب فى يدها فاختطفته منها قبل أن تتمكن من

إخفاقه ، فقرأته ثم ابتسمت وقالت لها : لم يبق على خطيبك هذا ياماجدولين سوى أن يأمرك بأن تشوهى وجهك ، أو تفقئى إحدى عينيك ، أو تجدعى أنفك ، أو تهشمى مقدم أسنانك ، حتى تبذأك العيون ، وتقتحمك الأنظار ، وتقشعر لرؤيتك الأبدان ، فلا يجرؤ أحد على أن يقول لك بلسانه ، أو بينه وبين نفسه : إنك جميلة أو فتانة ، وأن تحملى بيدك قيثارة رنانة تطوفين بها أحياء البلاد كما كان يفعل شعراء اليونان والرومان فى عصورهم الأولى ، وتغنين عليها بمدحه والإشادة به ، وتُنشدين أناشيد الثناء على حسنه وجماله ، فما أقلّ عقلك ، وأقصر نظره ، وأجهله بالحياة وشؤونها ! إنى لأحسبهُ قد أعدّ لك فى بيته منذ الساعة قفصاً من حديد يستقبلك به يوم تُزفين إليه ، ليَسجُنك فيه ، ثم يقف على بابك حارساً يقظاً يصونك من عبث العيون وفضول الأنظار ؛ فلا ترينَ إلا وجهه ، ولا تسمعين إلا صوته ، ولا تشعرين بوجود أحد فى العالم سواه .

فقالت ماجدولين إنك تتهمينه ياسيدتى بما ليس فيه ؛ فهو من أحسن الناس أدباً ، وأشرفهم نفساً ، وأطيبهم قلباً . ولكنه محب ، وكلُّ محب غيور ، قالت أعاذنى الله وإياك من حب يختلس الحياة اختلاساً ، ويأتى عليها بأسرع من ضربة السيف ، وكزة الطرف ؛ والله لوجاء فى خطبتى ملك من ملائكة السماء يحمل على رأسه تاج الملإ الأعلى . ويُمهرُنى بالجنة التى أعدّها الله للمتقين وما فيها من حور وولدان ، وروح وريحان ، ويَعِدنى بالخلود الدائم ، والنعيم الذى لايفنى ، على أن يضعنى فى قفص مثل هذا القفص الذى أعدّه لك هذا الخطيب المأفون لآثرت موتى

الفجأة ، والتغلغل فى أعماق السجون ، والفرار إلى أديرة الصحارى المنقطعة ، على الرضا به ، والنزول على شرطه .

ثم نهضت قائمة وقالت عالماً أن أخاطر بك وبمستقبلك ياماجدولين ؛ وأن أتركك فريسة فى يد هذا الوحش المفترس ، يُنغص عليك عيشك ، ويكدر صفو حياتك ، ويقتطف زهرة شبابك الغضة قبل أوانها ، ثم حيّتها وانصرفت إلى مخدعها .

فقضت ماجدولين بعد انصرافها ليلة ليلاء لاتستريح فيها من الضجعة إلا إلى القعدة ، ولامن القعدة إلا إلى القومة ، تتلمس بارقة الصواب فى هذه الدّجنّة الحالكة فلاتهتدى إليه ، وتقلب أمرها ظهراً لبطن فلايزيدها التقليب إلا جهلا ، حتى غلبتها السنة على عينيها فنامت .

٥٤

من أوجين إلى استيفن

صدر أمر القيادة العليا للتهيؤ للسفر بعد بضعة أيام إلى جهة لانعرفها ، ويقول ضباطنا إن هناك ستكون الواقعة الكبرى التى يفصل فيها فى مستقبل الحرب ، ولاأعلم ماذا يَعدّه القضاء لى فى ذلك اليوم ، فإن قدر لى الله النجاة فسأكتب إليك ، وإن كانت الأخرى فستقرأ اسمى بين أسماء القتلى فى جريدة الحرب ، ولا يحزنك فى ذلك اليوم مصيرى ، فهو مصير كل رجل شريف .

لى اليك حاجة يا استيفن أرجو ألا تضنّ علىّ بها :

قد بَلِيَ سرجى ، ووهت علائقه ، ولم يَبق معى من المال بعد ما أنفقت عطائى كله فى هذا الشهر بين اللعب والشراب ما أبتاع به سرجاً غيره ، فابعث إلىّ بعشرين فرنكا قبل مرور عشرة أيام ، فإن فاتك أن ترسل إلىّ فى ذلك الوقت فلا ترسل إلىّ شيئاً فإنه لا يصلنى ؛ وتحيتى إليك وإلى السيدة ماجدولين .

٥٥

العـــرس

استطاع استيفن بعد سفر صديقه إدوار أن يستفضل جزءًا من مرتبه الشهرى ، فاجتمع له بعد بضعة أشهر خمسون فرنكا . استأجر بسبعة منها الحلة التى ذهب بها إلى ملعب الأوبرا لرؤية ماجدولين ، وابتاع بخمسة تذكرة الملعب ، غير ما أنفق على طعامه وشرابه وسفره ؛ وبقى معه بعد ذلك اثنان وعشرون فرنكا ، فلما عاد إلى جوتنج لبث بضعة أيام ينتظر كتاباً من ماجدولين رداً على كتابه الأول فلم يأته ، فساء ظنُّه ووقع فى نفسه أنه قد أغضبها وآسفها فيما كتب به إليها ، فاشتد حزنه وغمه ، وكتب لها رسالة أخرى يعتذر إليها فيها عما ورد فى رسالته الأولى ؛ فكتبت إليه أنها كانت عاتبة عليه فى سوء ظنه بها ، واشتداده فى مؤاخذتها ، وأنها قد قبلت عذره ، وسألته ألا ينقطع عن زيارة الملعب لتراه ، فعزم على أن يسافر يوم الأحد ليراها ويلتمس السبيل إلى مقابلتها بكل وسيلة ، ليجدد لها اعتذاره بنفسه ، ويشكر لها صفحها عنه ورضاها .

فبينما هو جالس فى غرفته صباح اليوم الذى عزم فيه على السفر إذ جاءه كتاب أخيه فحزن عند قراءته حزناً شديداً ، وذكر أنه لا يملك من متاع الدنيا غير هذه القطع القليلة وأنه فى حاجة إليها لينفقها على زيارة ماجدولين ، فلبث حائراً لا يدرى ماذا يصنع ، ثم غلبته عاطفة الحب على كل عاطفة سواها ، فقام ليهيئ نفسه للسفر ، وابتاع نعلا جديدة لأن نعله القديمة كانت قد بليت ، وبلغت آخر درجات الاحتمال ، فعجز عن استئجار الحلة التى استأجرها فى المرة الأولى ، فلم يجد بدا من أن يستصلح حلته التى يلبسها ، فرتق فتوقها وصبغ بالمداد الأسود ما ابيض من خيوطها ، ثم ركب عجلة وسافر إلى كوبلانس فى الساعة الأولى من الليل ، فأكل فى بعض المطاعم الصغيرة ، ثم ذهب إلى الملعب فلم ير ماجدولين فى مقصورتها ، فلم يقلق لذلك كثيراً ، وقال لعلّ لها شأناً شغلها عن التبكير ، وهى آتية مامن ذلك بد ، وأقبل على المسرح يتلهى بالنظر إلى فصوله ، فرأى بين القطع الممثلة مشهد رجل من أرباب الثراء والنعمة قد استهام بحب امرأة واستهامت به ، ثم نزلت به نكبة من النكبات المالية فتنكرت له ، وبرمت به وعزمت على مقاطعته والرحيل عنه ، فجثا الرجل بين يديها يستعطفها ويسألها ألا تفعل ، فأبت ، وصارحته بالسبب الذى يدعوها الى مقاطعته ، وقالت له فيما قالت « ان المرأة لا تحب الرجل قط ، بل تحب فيه نفسها ، فإن كان من أرباب المال أحبت فيه زيتها وطوها ، أو من أرباب الجمال أحبت فيه لذتها وشهوتها ، فإن لم يكن أحد الاثنين ، فهى لا تحب إلا هذين » ، فاشمأز استيفن عند سماع هذه الكلمة وقال فى نفسه :

إنهم يمثلون أخلاق البغايا الفاسقات ، ويزعمون أنهم يمثلون أخلاق النساء عامة ، هاهي ذي ماجدولين تكاد تعبدني حبا ، وما أنا من أرباب الجمال فنحبّ فيّ شهوتها ولا من أرباب المال فتحبّ فيّ زيتها ، ولقد أراد الله بها خيراً إذ كفاها مؤونة سماع هذه الكلمات المنفرة ، ولو سمعتها لآلمتها ونالت من نفسها منالا عظيما .

ثم انتظر بعد ذلك ساعة فلم تأت ، فلم يبق له أمل فى مجيئها ، وعلم أن هناك شأناً عظيما عرض لها فشغلها عن الحضور ، فاشتد عليه الأمر كثيراً ، ورأى ألا بد له من الوقوف على شأنها قبل العودة إلى قريته ، وخشى أن تكون مريضة ، فخرج من الملعب ومشى فى طريق قصر سوزان وهو لا يعلم كيف يلتمس السبيل إلى الوصول إليها حتى داناه فرأى أنواراً كثيرة تتلألأ فى أبهائه وحُجُراته ، وتتدفق من نوافذه وكواه ، وسمع ألحاناً مختلفة تتردد فى أنحائه ، ورأى الخدم رائحين غادين فى صحونه وأفنيته يحملون على أيديهم آنية الشراب وصحف الطعام ، فعلم أنها وليمة عامة ، ولكنه لم يدر ما المراد بها ؟ فدنا من الباب فرأى عجلات كثيرة مصطفة أمامه ، ورأى حوذياً متكئاً على كرسى عجلته ، فسأله ماهذه الليلة الحافلة فى هذا القصر ، فصعّد الرجل نظره فيه وصوّبه ثم قال له وهو لا يفارق متكأه إنه عرس السيدة سوزان ابنة صاحب هذا القصر ، فاطمأن وهدأ ، وعلم أن مابصاحبته من بأس ، وعزم على الانصراف ، ثم حدثته نفسه أن يحتال لرؤيتها ولو على البعد لحظة واحدة قبل انصرافه ، فمشى إلى ظُلة دانية من ظُلل القصر فوقف تحتها يفكر فى الوسيلة التى يتذرع بها إلى الدخول ،

فما لبث أن رأى عجلة مقبلة تحمل بعض الكبراء ؛ ورأى الخدم يهرعون إليها ، فانفتل من مكانه واختلط بهم كأنه واحد منهم ، ولا تختلف هيئته عن ذلك إلا قليلا ، ثم نزل الزائر فمشى بين يديه مع الماشين حتى اجتازوا فناء القصر ووصلوا إلى قاعة الرقص ، فدخل الرجل ودخل معه الخدم وبقى هو وحده على الباب يستشف من ألواح زجاجه ماوراءها من المناظر ، فرأى الراقصين والراقصات يسبحون فى بحر من الهناء والسرور ، ويطيرون فى أجواء مختلفة من اللذائذ والمناعم ، فظل يدير عينيه بينهم يفتش عن ماجدولين حتى لمحها ترقص مع رجل فتبيّنه فإذا هو صديقه إدوار ، فلم يأبه لذلك كثيراً ، إلا أن ماراعه وأزعجه وكاد يطير بلبه أنه رآها ترقص فى ثوب رقيق شفاف لايكاد يحجب جارحة من جوارحها . وخيل إليه أن صدرها ملتصق بصدر مُخاصرها ، وأن رأسها ملقىً على كتفه ، وخدّها تحت متناول لثماته ، وأنه يحتضنها أكثر مما يخصرها ، فأنّ أنيناً مؤلما وقال فى نفسه : ماذا فعلت بكِ الأيام يا ماجدولين ، وحدّثته نفسه أن يقتحم الباب ويتغلغل بين الزائرين حتى يبلغ مكانها ويلقى عليها نظرة عتب وتأنيب ثم يعود أدراجه ، ولكنه استحيا لها ولنفسه أن يراه الناس فى هذه الأثواب الجافية الغليظة ، فتماسك على مضض ، وأنشأ يسرّى عن نفسه ويقول : هذا شأن جميع الراقصين والراقصات ، وهذه أثوابهم التى يلبسونها ، ومواقفهم التى يقفونها ، بَرّهم وفاجرهم ، تقيّهم وعاهرهم ، فلا ألومها ولا أعتب عليها ، فلتلبس ماتشاء من الثياب ، ولترقص مع من تشاء من الرجال ، فحسبى منها أنى أنا الشخص الوحيد

الذى يُتيمُها ويخلبها ، ويملأ فراغ قلبها ، من بين هؤلاء جميعاً ، ثم أعاد النظر مرة أخرى فرآها قد فرغت من الرقص ومشت هى وإدوار إلى مقعد قريب من الباب فجلسا عليه فلم ير فى مجلسهما بأساً ولا مستراباً ، فهدأ ثائره ، بل أعجبه مارأى من عناية صديقه بها . وعطفه عليها ، وخيل إليه أنه مارقص معها ولا احتفل بها إلا من أجله ، وأنهما ما اجتمعا على هذا المقعد فى هذه الساعة إلا ليتحدثا بشأنه ويتذكر أيامه وعهوده ، ثم مالبث أن لمح فى أصبعها خاتما فتبينه فإذا هو الخاتم الذى نسجته من شعره ، والذى لا تزال تحدثه عنه فى رسائلها كلما كتبت إليه ، فاغتبط بذلك اغتباطا عظيما ولم يبق فى نفسه من ذلك الخاطر المؤلم الذى مرّ بذهنه منذ ساعة أثر واحد .

وإنه لكذلك إذ دُفع الباب بغتة وخرج منه فتى متأنق من الزائرين يهزّ فى يده سوطا مستطيلا فرآه واقفاً فظنه بعض الخدم ، فصرخ فى وجهه بلهجة الآمر أن يدعو له سائق عجلته ، وسماه له ، فارتبك قليلا ، ثم لم ير بدّاً من الامتثال مخافة أن ينكشف من أمره ما كان خافياً ، فهرع إلى الباب الخارجى يهتف باسم غير الاسم الذى سمعه ، وكان قد نسيه ، فأدركه الفتى وقد طار الغضب فى دماغه فضربه بالسوط على وجهه ضربة أدمته ، وأخذ يسبه ويشتمه ، فاحتمل استيفن تلك الضربة صامتاً ، ومشى فى طريقه لا يلوى على شىء .

وما أبعد الا قليلا حتى انحدرت من جفنه دمعة جرت على خده فأصابت موضع الضربة منه فآلمته فهتف صارخاً : ماذا لقيت فى سبيلك ياماجدولين

٥٦

المـــريض

عاد استيفن إلى جوتنج فوجد كتابا من قريبه الذى كان قد أحسن إليه بتلك القطع الذهبية يوم خروجه من كوبلانس شريداً طريداً يقول له فيه انه مريض مشرف . وإنه يحب أن يراه بجانبه فى ساعته الأخيرة ؛ فرثى له وحزن عليه حزناً شديداً ورأى ألا بد له من موافاة رغبته فى الذهاب إليه ؛ فاستأذن المدرسة فى بضعة أيام يقضيها بجانبه ، فلم تأذن له إلا بثلاثة ؛ فسافر إليه وكان يسكن وحده بيتاً فى ضاحية من ضواحى كوبلانس لايرى فيه إلا وجه خادمه وطبيبه ؛ وكانت زوجته قد ماتت منذ عهد قريب ، وليس له من الأقارب الأدنين غير ابن عم له من قساة الأغنياء وجفاتهم لايحبه ولا يحفل بشأنه ؛ فدخل عليه استيفن فى ساعة من ساعات الليل فرآه ساهراً يئن من الآلام والأوجاع ، وقد نال منه الداء منالا عظيما ؛ فأصبح لايستطيع النطق إلا همهمة وتجمجما ؛ فجلس بجانبه يتوجع له ويواسيه حتى استطاع الرجل بعد لأى أن يقول له : لقد مرت بى بضعة أشهر وأنا طريح هذا الفراش لا أفارقه لحظة واحدة حتى مللت وبَرِمت ، وأصبحت أخشى غائلة الضجر أكثر مما أخشى غائلة المرض ، فلا تفارقنى بعد اليوم حتى يحكم الله فى أمرى بما يشاء .

فلبث معه الثلاثة الأيام التى أجازوه بها ثم عزم على العودة فتوسل

إليه المريض بانكسار عينيه وترقرق الدمع فيهما ألا يفارقه حتى يقضى الله فى أمره بقضائه : وكان قد ثقل وأشرف وأصبح على حالة لاترجى له معها الحياة ، فتذمم استيفن أن يفارقه على حاله تلك وكتب إلى المدرسة يستأذنها فى بضعة أيام أخرى يتخلفها وأدلى إليها بعذره فى ذلك ؛ ولبث ينتظر جوابها فلم يأته واشتد به القلق ، ثم جاءه منها بعد حين كتاب تقول له فيه : إنها لم تر بدا من الاستغناء عنه والاستبدال منه ، وأنها قد أرسلت إليه ما بقى له عندها من مرتبه ، فما أتى على آخر الكتاب حتى صاح صيحة كادت تنقد لها أضالعه وسقط مغشياً عليه وهو يقول : « رحمتك اللهم قد عجزت عن الاحتمال » .

٥٧

الموت

نامت العيون وهدأت الجنوب فى مضاجعها ؛ وسكنت كل سارية فى الأرض ؛ وكل سابحة فى السماء ؛ وظل استيفن ساهراً وحده بجانب مريضه المحتضر يسمع حشرجة الموت فى صدره ترن فى هدوء الليل وسكونه فيخيل إليه أنه واقف فى وسط فلاة موحشة تعزف جنانها ، وتزمجر غيلانها فامتلأت نفسه رهبة ووحشة ؛ وأن هناك معركة قائمة بين الروح والجسد ، تأبى إلا أن تفارقه ، ويأبى إلا أن يتشبث بها ، فيدركه من التعب والنصب مالا يحتمله محتمل ، حتى عىّ بأمرها فتساقط خائراً مستسلما لاتطرف

له عين ، ولا ينبض له عرق ، فوضع استيفن أذنه على صدره فلم يسمع شيئاً ؛ فعلم أن الأمر قد انقضى ، وأن الراقص قد ألقى قناعه ، والممثل قد خلع ثوب تمثيله ، وأن عنصرى الحياة قد افترقا وعاد كل منهما إلى أصله ، فطار منهما ما طار ، ورسب ما رسب ، فجثا بجانب الميت يرثيه ويتوجع له ويبكى عليه مرة ، وعلى نفسه أخرى ، ومرت أمام نظره فى تلك الساعة رواية حياته الماضية من مبدئها إلى منتهاها ، فظل يقرؤها صفحة صفحة ، ويقلب نظره فى سطورها وكلماتها ، فرأى بؤساً وشقاء ، وأحزاناً ودموعاً ، وجدوداً عاثرة ، ونحوساً متتابعة ؛ حتى انتهى إلى الصفحة الأخيرة منها فقرأ فيها كتاب العزل الذى جاءه من المدرسة ، فانتفض عند قراءته انتفاضاً شديداً ، وصاح صيحة عظمى دوت بها أرجاء الغرفة قائلا : ماهذا ! هل فقدتُ ماجدولين ؟ ثم أطرق إطراقاً طويلا لايعلم إلا الله أين سَبحت نفسه فيه ، ولبث على ذلك ساعة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه جمرتان ملتهبتان وإذا وجهه أسود مربدٌ كأنما قد لبس نسيجاً غير نسيجه ، فدار بنظره فى أنحاء الغرفة دورة الحية الرقطاء بجوهرتيها فى جنبات جُحرها حتى وقع على خزانة المال التى كان يأمره الميت فى حال مرضه بالانفاق منها ، فعَلِقَ بها ساعة لاينتقل عنها ولا يتحول ، كأن عينيه قد استحالتا إلى مسمارين لامعين من مسامير ها ، ثم وثب على قدميه فجأة وقد أصابه مثلُ الجنون وهتف صارخاً : لابد لى من النجاح فى حياتى ، ولا أسمح لعقبة من العقبات مهما كان شأنها أن تقف فى طريقى ، وإن الدهر لأعجز من أن يعترض سبيلى ، أو يغلبنى على أمرى ، فهو لا يغلب إلا الضعفاء ، ولا يقهر

إلا الأغبياء ، وما أنا بواحد منهم ، وإنّ من الجبن والخور أن أضع حياتى بين يديه يتصرف بها كيف يشاء ، فلأكن أنا دهراً وحدى ، أتولى شأن نفسى بنفسى ، وأتصرف بحياتى على الصورة التى أريدها ، لا أتقيد بقانون ولانظام ، ولا أسجن نفسى فى هذه الدائرة الضيقة التى يسمونها الفضيلة ؛ فما سقط الساقطون فى معترك الحياة ، ولا داستهم أقدام المعتركين فيه ؛ إلا لأنهم وقفوا من الميدان فى نقطة واحدة لا يتحولون عنها ولا يتحلحلون فلم يلتبهوا إلى الضربات المختلسة التى جاءتهم من خلفهم فقضت عليهم ، ولو أنهم داروا مع المعركة حيث دارت ، وتقلبوا فى جنباتها كرّاً وفرّاً ، لظفروا بالغنيمة مع الظافرين ، ولنجوا من غائلة الموت الزؤام .

لا رذيلة فى الدنيا غير رذيلة الفشل ، وكل سبيل يؤدى إلى النجاح فهو سبيل الفضيلة ، وما نجح الناجحون فى هذه الحياة إلا لأنهم طرقوا كل سبيل يؤدى إلى نجاحهم فاقتحموه غير متذمّمين ولا متلومين ، وما سقط الساقطون فيها إلا لأنهم تأثموا وتحرجوا وأطالوا النظر والتفكير ، وقالوا : هذا حلال وهذا حرام .

من هم الذين يملكون الدور والقصور ، والضياع الواسعة ، والرباع الحافلة ، والذين تموج خزائنهم بالذهب ، موج التنور باللهب ، أليسوا اللصوصَ والمجرمين الذين يسمون أنفسهم ويسميهم الناس سرَاة ووجوهاً ؟

من هم الذين يسهرون الليل طاوين لا يطرق النوم أجفانهم ، ويقضون أيامهم هائمين على وجوههم يفتشون عن الرزق فى كل مكان فلا يظفرون

منه باللقمة أو الجرعة إلا إذا أراقوا فى سبيلها حجما من دماء قلوبهم ، أليسوا الأشرافَ والفضلاء الذين يسميهم الناس ويسمون أنفسهم معهم رعاعا وغوغاء ؟

أنا لا أعترف بقانون الملكية ولا قانون الوراثة ، لأن المالكين سارقون ، ولأن الوارثين أبناء السارقين ، فلا أسمى نفسى لصا إلا إذا سرقت فقيراً يكدح لقوته ليله ونهاره فلا يبلغ منه إلا الكفاف ، ولا أسمى نفسى ظالما إلا إذا ظلمت عادلا مستقيما لم يظلم فى حياته نملةً فى حبة شعيرة يسلبها إياها .

إن نشاط الرذيلة وشطاطها أحرص من أن يترك للفضيلة المتئدة المترفقة فى سيرها شيئاً وراءه تبلغه فتلتقطه ، فلأغامر فى ميدان هذه الحياة مغامرة ، فإن ظفرت فذلك مارجوت ، أو لا ، فقد أُبليتُ فى حياتى عذراً .

وكان يهذى بأمثال هذه التصورات وهو يضرب فى أرجاء الغرفة ذهاباً وجيئة بخطوات واسعة متلاحقة ، ثم وقف بغتة وألقى نظره على الجثة المسجاة أمامه وقال : لقد أصبحتَ ميتا أيها الرجل ، فلا يعنيك من المال الذى تركته وراءك شىء ، ولا شأن لك بمن يَخلفك عليه من بعدك أكانَ صديقك أم عدوك ، أم أقرب الناس إليك ، أم أبعدهم عنك ؟ ولقد كان جديراً بك وأنا صديقك وحميمك الذى واساك وجاملك فى ساعاتك الأخيرة . وقام لك بما لم يقم لك به صديق ولا حميم ، حتى أضاع آماله ومستقبل حياته فى سبيلك ، أن توصى إليه بمالك ، فهو أحوج إليه

من ابن عمك السعيد المجدود الذى لا يبالى أزاد مالك على ماله ، أم نقص منه ؟ فأنا قائم عنك بعد موتك بما فاتك أن تقوم به فى حياتك .

ثم أدار ظهره الى الجثة ومشى الى الخزانة وكانت على كتف منه فوضع يده على مفتاحها فشعر برعدة شديدة تتمشى فى أعضائه ، وخيل اليه أن الغرفة كلها عيون ترقبه وتحدق فى وجهه ، وأن روح الميت تلقى عليه من نوافذ جثتها نظرات شزراء ملتهبة يكاد أُوارها يصل اليه فيحرقه ، فتريث فى مكانه قليلا ثم تماسك واستجمع لبه وأناته وأدار المفتاح فدار الباب على عقبه وصرَّ فى دورانه صريراً خشناً ، فارتعد وتمثل له أن صوتاً أجش من أصوات الحراس الأشداء يهتف به ، ويخاشنه ، فابتعد عن الباب خطوة ، ثم التفت يمنة ويسرة فلم ير شيئاً ، فقال إنها خيالات الشقاء تلاحقنى فى كل مكان ، ومد يده الى الأوراق يقلبها على نور مصباح ضعيف كان فى يده حتى عثر بالسفاتج التى يريدها ، فما وضع يده عليها حتى شعر أن دمه الذى كان يغلى فى عروقه غليان الماء فى مرجله قد هدأ وبرد ، حتى كاد يقف عن الجريان ، وأن قطراتٍ باردة من العرق تتحدر من جبينه على وجهه متتابعة ، وأحس فى نفسه بذلك السكون العميق الذى يشعر به الهائج المصروع بعد استفاقته من صرعته ، وخيل اليه أن الخزانة التى أمامه تهتز وتضطرب ويموج بعضها فى بعض ، ثم مالبثت أن استحالت الى مرآة صقيلة لامعة فوقع نظره على صورته فيها فامتلأ قلبه خوفا وذعرا ، وأنكرت نفسُه نفسَه ، فقد رأى من أسارير وجهه تلك السحنة المنكرة التى يعرفها فى وجوه المجرمين ، ورأى فى عينيه تلك النظرات

الطائرة الشاردة التى ينظر بها المحكوم عليه بالموت إلى سيف الجلاد حين يلمع فوق رأسه ، فظل يرتعد ويضطرب ، وظلت الأوراق تتساقط من يده واحدة بعد أخرى ، وإنه لكذلك إذ أحس بيد ثقيلة قد وضعت على كتفه فلم يأبه لها فى أول الأمر ، وظنها بعض الخيالات التى لاتزال تعاوده منذ الليلة ؛ إلا أنه لم يلبث أن أحس ببرودتها فوق كاهله ، فتهالك فى نفسه وتجمع تجمع المتوقع ضربة هائلة تسقط على أم رأسه ، ثم التفت قليلا قليلا ليرى مادهاه ، فإذا الميت واقفٌ خلفه عارىَ الجسم ينظر إليه بعينين جامدتين فصرخ صرخة عظمى ودفعه بيده دفعة شديدة فسقط على الأرض بعيداً عن مضجعه الأول ، فرنت عظام رأسه على أرض الغرفة رنيناً شديداً ، فاختبل وأصابه مثل الجنون وألقى المصباح من يده فانطفأ فازداد رعبه وفزعه ، وهرع يطلب الباب للفرار منه فلم يهتد إليه ، فظل يعدو فى أنحاء الغرفة ويتلمَّس جدرانها مقبلا مدبراً ، لايعثر حتى يقوم ، ولايقوم حتى يعثر ، وقد خيّل إليه أن الجثة تعدو وراءه وتتعقبه حيثما ذهب ، حتى أعياه الجهد ، وعجز عن الحركة ، فسقط مغشيا عليه .

ولم يكن مارآه فى هذه المرة خيالا بل حقيقة لاريب فيها ، فقد عاودت الميتَ الحياةُ لحظة ففتح عينيه للمرة الأخيرة فرأى باب خزانته مفتوحاً ، ورأى إنساناً لايعرف من هو يقلب أوراقه ، فدفعه الحرص الغريزىّ الذى لايفارق الإنسان من مبدإ ساعات حياته إلى نهايتها إلى الوثوب على قدميه والإهواء بيده على كتف السارق ، ثم كان ماكان من سقوطه على أرض الغرفة ، فكان فى سقطته القضاء عليه .

لم يستفق استيفن من خشيته حتى طلع الفجر وأرسل بعض أشعته من نافذة الغرفة ففتح عينيه وظل ينظر يمنة ويسرة ، فرأى المصباح الساقط والخزانة المفتوحة ، والأوراق المبعثرة ، والجثة الملقاة ، فذكر كل شيء ، وقام يتحامل على نفسه فأعاد كل شيء إلى مكانه ، ونقل الجثة إلى مضجعها وأسبل عليها غطاءها ، ولم يلبث أن جاء الطبيب : فلما رأى الصدع الذى فى رأس الميت قال لاستيفن : أحسبُ أن المريض قد ثار من فراشه فى ساعته الأخيرة ولم يكن معه من يتولى شأنه فسقط بعيداً عن مضجعه فأصابه ما أصابه ؛ فارتعد استيفن وقال : نعم يا سيدى ، ولقد كنت نائماً فى تلك الساعة فلم أستطع مساعدته ، ولم أستيقظ إلا على صوت سقطته ؛ فاحتملته إلى مكانه ، وكان أسفى لذلك عظيما ، فلم ير الطبيب بأساً فيما قال ، وانصرف لشأنه .

وما انقضى النهار حتى دفن الميت وحضر دفنه وارثه ، وسافر استيفن إلى جوتنج وهو يردد فى طريقه قوله « ويل لى من مجرم أثيم » فما وصلها حتى كان قد بلغ آخر درجات الاحتمال فسقط فى فراشه مريضاً مدنفاً ، لا يفارقه خيال تلك الليلة الهائلة التى كابدها ، لحظة واحدة .

٥٨

إدوار

علق إدوار بماجدولين منذ الليلة التى رآهما فيها استيفن من وراء ألواح الزجاج يرقصان معاً ، فأنشأ يختلف إلى منزل سوزان وكان يمتّ إليها بحبل قرابة ليرى حبيبته ويستدنىَ قلبها ، وكان من أقدر الناس على مثل ذلك ، لعذوبة يعرفها له النساء فى أخلاقه ، وحلاوةٍ تجتذب قلوبهن فى أحاديثه فأنست به وبمحضره وأعجبها منه أنه كان يسرد عليها كلما جلس إليها أحاديث المحافل والأندية ، ويُطرفها بغرائبهما ونوادرهما ، ويذكر لها أسماء الراقصين والراقصات وفضلَ مابينهم فى البراعة والافتتان ، ويشرح لها أنواع الرقص غربيه وشرقيه ، قديمه وحديثه ، وتاريخ كل نوع منه ومنشأه ومصيره ويقص عليها قصص الغرام التى تنشأ كل يوم فى قاعات الرقص بين النساء والرجال ، وكانت حديثة عهد بذلك كله ، فلم يكن شىءٌ من الأشياء أعجب إليها من ذكره وترديده ، وكان إذا جرى ذكرُ استيفن بينهما أثنى عليه وأطراه ، وقص عليها طرفا من نوادر طفولتهما وصباهما ، وما مر لهما فى حياتهما الأولى من بؤس ورغد وشدة ورخاء ، ثم يصف لها بلهجة الحزين المتفجع حياة البؤس والشقاء التى يحياها اليوم فى جوتنج وغرفته التى يسكنها ، وأثاثها الذى تشتمل عليه ، وثيابه التى يملكها ، ثم يتبع ذلك بالتوجع له ، والتألم لبؤسه وشقائه ، ومحاربة الدهر إياه فى مساعيه وأغراضه

فتصغى إلى حديثه : وتقبل عليه إقبالا عظيما .

ولم يزل بها حتى خلبها : ووقع من نفسها ، وأصبحت لاتكاد تصبر عن مجلسه ساعة ، ولا تزال تفتقده وتسائل نفسها عنه كلما غاب عنها ، وهى تظن أنها إنما تحبه من أجل استيفن ، ولو كشف لها عن دخيلة نفسها لعلمت أنها قد بدأت تنسى استيفن من أجله .

ولقد أعجبت سوزان تلك الصلة التى نشأت بين صديقتها وقريبها ، ورضيت عنها الرضا كله ، ورأت أن الله قد أراد به وبها خيراً ، فرزقه أفضل الفتيات جمالا وأدباً ، ورزقها خير الفتيان ثروة وجاهاً ، وكانت تعرف شيئاً من عيوب إدوار ولكنها كانت ترى أنها عيوب خاصة به لاتتعداه إلى غيره ، وكانت تعتقد أن المرأة لاترى فى زوجها الغنىّ الذى يملأ فضاءَ بيتها نعمة ورغداً عيباً واحداً مهما كثرت عيوبه ، فأنشأت تسعى سعيها للبلوغ بهما إلى الغاية التى تريدها لها ، فأشارت على إدوار أن يتودد إلى الشيخ مولر ويداخله مداخلة الصديق صديقه وقالت له : إنه رجل مفتون بحب النبات والزهر ، فلا يعجبه إلا الحديث عنهما ، ولا ينزل من نفسه المنزلة العليا إلا من يعلم أنه يشاركه فى العلم بهما ، والاهتمام بأمرهما ، وكان إدوار قد درس شيئاً من علم النبات فى مدرسته فاستعان ببستانىّ حديقته على معرفة ماكان يجهله منه ، وغرس فى حديقة بيته بعض أنواع الزهر الغريبة ، وعرف خصائصها وصفاتها ثم خالط الرجل وداخله ودعاه إلى بيته وأراه حديقته ، ومشى معه فى كل مكان ، وجاراه

فى كل حديث ، فلم يلبث أن أعجبه ووقع من نفسه ، وهكذا أصبح أثيراً عند الأب وابنته .

٥٩

سريرة المرأة

ما أبغضت ماجدولين استيفن ، ولا أحبت إدوار ، ولكنها لبست حالا جديدة لم تكن تلبَسها من قبل ، فكان لابد لها من أن تلبس معها جميع آثارها ومتعلقاتها ؛ فقد ألفت المجامع والمحافل ، وأنِست بالمراقص والملاعب ، وصادقت النساء المتحضرات المتأنقات ، وغنت كما يغنين ، ورقصت كما يرقصن ، ومشت فى مثل أزيائهن ، وتحدثت بمثل أحاديثهن ، وفهمت من سعادة الحياة وهنائها المعنى الذى يفهمن ، ورأت فى الرجال والنساء والصلة التى بينهما الرأىَ الذى يرين ، فتناست استيفن لأنه صورة من صور الحياة الماضية التى عافتها واجتوتها ، وأحبت إدوار لأنه مظهر من مظاهر الحياة الجديدة التى أحبتها وافتتنت بها .

على أنها كانت إذا خلت إلى نفسها ، وهدأت عنها ضوضاء الحياة وضجيجها ، واستطاعت أن تمد نظرها إلى أعماق سريرتها حتى ترى مافى قَرارتها تراءى لها شبح استيفن فى تحوله واصفراره ، وحزنه واكتئابه ، وبؤسه وشقائه ، ومنظر عينيه الممتلئتين حزناً ودموعاً ، وقلبه المتقد حبا وغراماً ، ونفسه الشعرية الهائمة فى أودية الهموم والأحزان ، فتحن إليه حنين الغريب إلى داره ، والشيخ إلى عهود صباه ، وتذكر أيامه الماضية

التى قضاها معها ، فتبكى حسرة عليه وإشفاقاً : بل وجدا به وغراما : ثم لاتلبث أن ترى سحابة بيضاء من النور ماثلة أمام عينيها ، فلا تزال تنبسط وتستفيض حتى تشف عن قاعة الرقص التى شهدتها ليلة عرس سوزان ، فترى الوجوه المشرقة ، والثغور الباسمة ، والذهب اللامع ، والجوهر الساطع ، والغلائل المطرزة ، والحلل المدبجة ، والصدور اللاصقة بالصدور والأذرع المحيطة بالخصور ، والجو المائج بالأنوار ، والروض الحافل بالأزهار . وترى العروسين كالفرقدين ، يبسمان للسعادة المقبلة عليهما ، ويتدفق تيار الحب والصبابة بين قلبيهما ، فيتضاءل أمام عينيها ذلك الشبح الأول ، ثم لا يلبث أن يتغلغل فى ظلمات الوجود الحالكة حتى يغيب عن نظرها ، فلا يبقى له عين ولا أثر .

ولقد دخلت سوزان عليها صبيحة يوم فى غرفتها وكان قد مضى على زفافها شهران فقالت لها : أتدرين ما اتفقنا عليه أنا وأبوك ليلة أمس يا ماجدولين ؟ قالت : لا ، قالت : أن نسافر جميعاً إلى ضياع زوجى فى « سان مارك » لنقضى فيها أسبوعين أو ثلاثة ، ثم ننتقل إلى ولفاخ وهى على بضعة أميال منها فنستضيفكم أسبوعا واحداً نقضيه فى التنزه بين مزارع القُرى ودساكرها ، ثم نفترق بعد ذلك . فتهلل وجه ماجدولين فرحا بتلك السياحة الجميلة التى ستقضيها مع أصدقائها فى أجمل البقاع وأبهجها ، ثم مالبثت أن اكتأبت وتغضّن جبينها لأنها ذكرت ساعة الفراق القريبة ، وأنها ستعود بعد أيام قلائل إلى عزلتها فى قريتها ، وتعيش فيها عيش الوحشة والوحدة بعيدة عن كوبلانس ومجامعها ، ومزدحم الحياة فيها ،

فاشتد ذلك عليها كثيراً ، وألمّت سوزانُ بما دار فى نفسها وعرفت مأتاه ، إلا أنها تبالهت واستمرت فى حديثها تقول : وسيصحبنا فى سياحتنا هذه إدوار ، وسيكون أنسنا به وبعشرته عظيما ، ألا ترين رأيى فى ذلك ياماجدولين ؟ ففهمت ماجدولين مقصدها وأين تريد أن تذهب فى حديثها ، فقالت : ليذهب معكم من تشاؤون من أصدقائكم وخلطائكم ، فلا شأن لى فى ذهاب من يذهب ، أو بقاء من يبقى . فابتسمت سوزان واستطردت فى حديثها تقول : ولقد اتفقنا كذلك على ألا يسافر إدوار معنا إلا باسم خطيبك ، وقد قطعنا هذا الأمر من دونك ، لأنا نعلم أنك لاترين لنفسك إلا الرأى الذى نراه لك ؛ فاضطربت ماجدولين وقالت : لقد قلتُ لك ياسوزان قبل اليوم إنى لاأستطيع أن أتزوجه ، قالت : لماذا ؟ وهل تطمع الفتاة فى زوج أفضل منه عقلا وأدباً ، وشرفا وجاهاً ، وهو فوق ذلك يحبك ويستهيم بك . ولا يؤثر على سعادتك وهنائك غرضاً من أغراض الحياة ، ولا مأرباً من مآربها ؟ قالت : ولكنه لا يستطيع أن يحبنى محبة استيفن إياى ، قالت : أما هذه فنعم ، لأنه يحبك حب العقلاء والأكياس ، لاحب النوكى والمأفونين .

إن هذا الذى تزعمين أنه يحبك ويستهيم بك ، لايحبك ، بل يحب فيك المرأة الخالية التى يتخيلها فى ذهنه ، والتى لم يخلق الله لها مثالا فى هذا العالم ، ولا يعبدك ، بل يعبد إلهه الموهوم الذى يظن أنه حالٌّ فى جثمانك ، كما كان يعبد آباؤنا الأولون آلهتهم الماثلة فى جذوع الأشجار ؛ وقطع الأحجار .

إنه يتخيلك ملكا من ملائكة السماء تحيط بوجهه هالة من النور ، ويرفرف فى جنبيه جناحان أبيضان متلألئان تلألؤ الأشعة ، ويحمل بين أضلاعه نفساً غريبة عن النفوس فى جوهرها ومعدنها ، قد جملها الله بجميع صنوف الكمال وطهرها من أدناس الحياة وأرجاسها : فلا تفهم شهوة من الشهوات ، ولا تشعر بلذة من اللذائذ ، ولا تعرف فرق ما بين السعادة والشقاء ، والغنى والفقر ، والراحة والتعب ، والسرور والحزن ، فويلٌ لك منه يوم تنحسر عن عينيه بعد ساعة واحدة من بنائه بك غشاوة الحب الأول ، فيراك كما أنت ، ويرى فرق ما بينك وبين تلك الصورة الخيالية الهائمة فى رأسه أنه لا بد يُبغضك ويحتقرك ، ويهوى بك إلى أدنى دركات الذل والشقاء ، ولا نهاية للإغراق فى الحب ، غير الإغراق فى البغض ، فإن كان لابد لك من أن تحتفظى بمكانتك فى قلبه فلا تتزوجيه ، ودعيه ينظر إليك دائما بهذه العين التى ينظر بها إليك اليوم ، ولا تخشى عليه أن يشقى بفراقك فليست فجيعتُه فيك يوم يفقدك ، بأعظم من فجيعته فى آماله وأحلامه يوم يراك ، ويرى فى ثوبك إمرأةً غير المرأة التى كان ينتظرها ، ويطير شوقاً إليها .

أنت لا تعلمين من شؤون الحياة ودخائلها مثل ما أعلم ياماجدولين ، ولقد خبرتُ فيما خبرتُ من صروفها وتجاريبها أن الغرام أضعف العلائق بين الزوجين ، والمصلحةَ أقواها وأوثقها ، وأن الحب كالزهرة ، والمالَ كالطلّ الساقط عليها ، فإذا انقطع الطلّ عن الزهرة بضعة أيام ذَوت أوراقها وتساقطت ، ثم تطايرت فى مهاب الرياح الأربع ، وأن هذه الثورة

النفسية التى يسمونها الصبابة أو الوجد أو الوله أو الهيام ، والتى لا يزال يهتف بذكرها الشعراء ، وتطير فى سماء خيالها ألباب الرجال والنساء ، إنما هى عرض من أعراض الأعصاب المريضة يلهبه البعد ، ويطفئه القرب ، ثم تبقى بعد ذلك الحاجة إلى العيش ومرافقه ، والسعادة وأسبابها ، فإن أعوز ذلك فقد مات الحب فى القلب ، ودفنت جثته فى ضريح الفقر ، والفقر يطوى فى أحشائه جميع عواطف القلوب وخواطرها ، بل ربما دارت الوساوس والأوهام فى رأس ذينك الزوجين اللذين كانا متحابين بالأمس ، فرأى كل منهما فى وجه صاحبه صورة الشؤم له ، وألقى عليه تبعة بؤسه وشقائه ، فاستحال حبهما إلى بغض متغلغل فى سويداء القلب لا ينتزعه إلا الموت .

أنت فقيرة يا ماجدولين ، واستيفن أفقر منك ، فلا تضمى فقره إلى فقرك ، وليختر كل منكما لنفسه العشير الذى يعلم أنه يسعده ، ويملأ فضاء حياته غبطة وهناء ، فإن كان لابد لك من الوفاء له فإن أوفى ما يكون المرء لصاحبه حين يؤثر مصلحته على مصلحة نفسه ويكفكف من نزعات قلبه وأهوائه فى سبيل سعادته وهنائه ، فليكن ذلك شأنك معه ، واحتملى مرارة فراقه وألم الحرمان منه رحمة به وإبقاء على حياته التى توشك أن تعيث بها نكبات الدهر وأرزاؤه ، فقد أصبحت أخشى عليه — وفى رأسه مثل هذا العقل الصغير المختبل ، وبين جنبيه مثل هذا القلب الضعيف المستطار — أن يعثر به جده فيما يحاوله من الأمل الذى يسعى إليه من أجلك ، فيدفعه جنون الطمع إلى سلوك طريق غير طريق الشرف ، فيقترف جريمة ،

أو ينتهك حرمة ، أو تثور برأسه ثائرة اليأس فيقتل نفسه طلباً للراحة من عناء الحياة وشقائها ، فإن فعل فأنت الجانية عليه ، والموردةُ إياه هذا المورد من التلف ، فانظرى كيف يكون موقفك بين يدى ربك وضميرك غداً إن تم ذلك على يدك ؟

فاستعبرت ماجدولين باكية ، وما بكت إلا رحمة بذلك البائس المسكين وإشفاقا عليه أن يناله بسببها هذا الشقاء العظيم ، وأطرقت مليًّا ثم رفعت رأسها وقالت : دعينى الساعة وحدى يا سوزان فإننى فى حاجة إلى الخلوة بنفسى .

٦٠

الجريدة العسكرية

التحم جيشنا أمس بجيش العدو واستمرت المعركة عشر ساعات لقى فيها جنودنا من بأس العدو وشدته وقوة مراسه هولا عظيما ، حتى بلغ منهم اليأس أو كاد ، ثم برز من بين صفوفنا ضابط من ضباط الفرسان اسمه « أوجين ولتز » فهتف بجنوده « ورائى أيها الأبطال » وانقضّ على العدو انقضاض النازلة السماوية فانقضّ معه جنوده فسرت الحمية فى نفس الجيش بأجمعه فهجم وراءه ! وما هى إلا جولة أو جولتان حتى تمت الهزيمة للعدو ففرّ يطلب النجاة لنفسه فى كل مكان فتبعناه وأمعنا فيه قتلا وأسراً وغنمنا منه غنائم كثيرة .

إلا أنه حدث لذلك الضابط الشجاع فى نهاية المعركة حادث كدّر

صفو ذلك الانتصار، فإنه بينما كان يتتبع آثار العدو ويضرب فى مؤخرته إذ انقطع حزام سرجه وكان بالياً واهياً فعجز عن التماسك فسقط عن جواده فداسته حوافر الخيل، ثم انتبه له بعض الجنود فداروا به واحتملوه إلى المعسكر وكانت فيه بقية من الحياة فقضى ساعة يتألم ألماً شديداً ويهتف باسم أخ له اسمه «استيفن» حتى فاضت روحه فحزن الجيش عليه حزناً شديداً، وبكاه القواد ورؤساء الفرق، ثم دفن باحتفال عظيم لائق بشجاعته وإقدامه، وحميته التى ليس لها مثيل.

٦١
البيت الجديد

وقف استيفن على عتبة باب بيته الجديد وكان البناءون لا يزالون يشتغلون باستصلاح بعض أنحائه فهتف بصديقه فرتز فلباه فقال له: هل تم بناء الغرفتين الجديدتين على الصورة التى اتفقنا عليها، قال: نعم يا سيدى وتم كذلك تجصيصهما وتزجيج نوافذهما، فجزاه خيراً، ثم التفت إلى البستانى وقال له: هل غرستَ أشجار الفاكهة التى أرسلتها إليك بالأمس؟ قال نعم ياسيدى، وستكون الكرمةُ المنبسطة فوق الجدار من أبدع الكرمات وأجملها، قال لاتنس أن تكسو السور كله باطنه وظاهره بأزهار البنفسج كما أمرتك، قال: سأفعل ياسيدى إن شاء الله، فتركه ودخل المنزل فألقى على الطبقة السفلى نظرة عَجلى، ثم صعد إلى الطبقة العليا ووقف فى بهو متسع

تدور به الحجرات وقال : هاقد أصبح البيت على الصورة التى اتفقنا عليها منذ عامين أنا وماجدولين ، ففى الطبقة السفلى غرفة المائدة والمطبخ وغرف المؤونة والمرافق ، وفى الطبقة العليا غرفة الأضياف ومخدع النوم وقاعة الكتب وغرفة الشيخ مولر ، ثم فتح باب الغرفة الخامسة وألقى نظرة ألمت بجميع مافيها فاغرورقت عيناه بالدموع وقال : لقد كنت أرجو يا أوجين أن تشركنى فى سعادتى كما شركتنى فى شقائى ، ولكن هكذا أراد القدر أن يفرق بينى وبينك ، وأن تكون سعادتى منغصة بذكراك أبد الدهر ، فوا أسفاه عليك يا أخى أسفاً لا يفارقنى حتى الموت ، وستمر الأيام وتكر الدهور والأعوام ، وسأنسى كل مامر بى من حوادث الدهر خيرها وشرها وبؤسها ورغدها ، ولا أنسى أننى ضننت عليك بتلك الدراهم القليلة التى سألتنيها أحوج ماكنت إليها ، وأن يدى هى اليد الخفية التى أوردتك هذا المورد من الردى ، فاغفر لى ذنبى واعف عنى ، والقنى يوم تلقانى فى آخرتك بذلك الوجه البشوش الغض الذى كنت تلقانى به فى حياتك ، فأنا من لايعيش إلا بذكرك ، ولا يموت إلا بغصتك ؛ وأقفل باب الغرفة وقال : لن يفتح هذا الباب بعد اليوم ، ثم كفكف عبرته ، وسرّى عن نفسه ، وأشرف على الحديقة يتلهى بالنظر إليها ، فوقع نظره على حوض الماء المبنى فى وسطها فعاد إلى مناجاة نفسه يقول : وهاهو الحوض الذى سنربى فيه الأسماك ذوات الألوان المختلفة ، وهاهو السياج الذى رأينا أن نقيمه من حوله خوفا على أولادنا المستقبلين من السقوط ، وهاهى أزهار البنفسج التى تحبها ماجدولين وتؤثرها على الأزهار جميعها تملأ البيت

داخله وخارجه .

إنها لا تعلم الآن شيئاً عن هذه السعادة المهيأة لها ، وربما كانت تكابد اليوم أشد حالات يأسها وحزنها بعد انقطاع رسائلي عنها أياماً طوالا ، وسأباغتها بها مباغتة لا يزول أثرها من نفسها أبد الدهر ، فقد شقينا ما استطاع الشقاء أن يكون ، وسنسعد بعد اليوم سعادة تنسينا همومنا الماضية وآلامنا ، ولا نذكرها إلا كما نذكر دموع طفولتنا وبكاءها .

ثم نزل ومشى فى الحديقة مع صديقه فرنز يناظر القائمين بتنظيم أغراسها ، وتمهيد طرقاتها ، ويتنقل بين أشجارها وأزهارها مسروراً مغتبطاً وكأنه لم يذق طعم الشقاء فى دهره يوماً واحداً .

٦٢

بروتس

ما كان استيفن قبل اليوم آمراً ولا ناهياً ، ولا صاحب بيت ولا حديقة بل ولا صاحب أى شىء من الأشياء ، إلا إذا كانت أثوابه البالية المرقعة شيئاً تتعلق به الحيازة والملك ، فقد عاد إلى جوتنج بعد تلك الليلة الليلاء التى كابدها فى غرفة قريبة صفر اليدين من كل شىء حتى من آماله وأمانيه ، فقضى فى فراش مرضه بضعة أيام كابد فيها من آلام جسمه ونفسه ما يعجز عن احتماله ، ثم أبلّ قليلا فأنشأ يفكر فيما يصنع بعد الذى كان من فشله وانقطاع رجائه به ، فخطر له الانتحار ثم منعه منه أنه سيكون آخر عهده

بماجدولين فلا يراها بعد اليوم ، وفكر فى الرجوع إلى أهله والإذعان لهم فى رغبتهم التى يرغبونها إليه ، ثم ذكر المواثيق التى أعطاها لماجدولين ألا يبتغى بها بدلا حتى الموت ، فعظم عليه أن يخيس بعهده ومر بخاطره الفرار بنفسه إلى أية بقعة من بقاع الأرض يطلب فيها السلوّ والراحة والتفرّجَ مما به ، ولكنهُ أشفق على ماجدولين أن يقتلها الحزن عليه من بعده ، وهو إنما يحيا فى هذا العالم من أجلها .

ولم يزل يُراوح بين هـــذه الفكَر ويستدنى بعضا منها ويذود بعضا حتى صحت عزيمته على أن يكتب كتابا إلى ماجدولين ، ولم يكن قد كتب إليها منذ عهد بعيد يقص عليها فيه قصته . وما آل إليه أمره ويحللها من اليمين التى أقسمتها له ، ثم يضع أمره بين يديها ؛ فإما أحيته فعاد إلى أمله وسعيه ، أو قتلته فاكتفى مؤونة قتلِ نفسه بنفسه .

فإنه ليكتب ذلك الكتابَ إذ دخل عليه رسول البريد يحمل إليه رسالة من مسجل القرية التى مات فيها قريبه يقول له فيها : إن الميت قد أوصى إليه فى كتاب وصيته بعشرين ألف فرنك يأخذها فى الحال وعشرة آلاف يأخذها فى كل عام . فاستطير فرحا وسروراً وقال : أحمدك اللهم فقد غَللتَ يدى عن أن آخذ هذا المال حراما ، حتى بعثت به إلىّ حلالا ، ومزق الكتاب الذى كان يكتبه وعلم أن أيام محنته قد انقضت ، وأنه قد أدى للدهر ما عليه له من ضريبة الشقاء فلم يبق بين يديه إلا أن يستقبل السعادة المقبلة عليه خالصة هنيئة لا يكدرها عليه مكدر حتى الموت .

وأنشأ يفتش بمعونة صديقه فرتز عن بيت صغير يشرف على نهر

جو تنج ويكون على الصفة التى تمناها هو وماجدولين ليلة ركبا زرق البحيرة وتحدثا عن آمالها ومستقبلهما ، فوجد بيتاً يشبهه فابتاعه واستصلحه ، وحوله إلى الصورة التى أرادها ، وأخذ يؤثث غرفه ، ويغرس أشجار حديقته .

وإنه لكذلك إذ قرأ فى الجريدة العسكرية خبر وفاة أخيه فبكاه كثيراً ، ثم مالبث أن تجلد واصطبر ، ودفن حزنه فى أعماق قلبه ، وألهاه سروره بحاضره عن التفكير فى ماضيه ، فابتاع خاتماً للخطبة ثميناً وأعد عدته للسفر إلى ولفاخ وكان قد علم أن ماجدولين قد عادت إليها من كوبلانس منذ عهد قريب ، ليباغتها بتلك السعادة التى هيأها لها ، ويخطبها إلى أبيها ، ثم يعود بها إلى جو تنج ليريها البيت الجديد .

ثم ركب عجلته فى صباح أحد الأيام وسافر وقلبه يخفق فرحاً وسروراً حتى وصل إلى ضاحية القرية ، فترك العجلة مكانها ، وأمر السائق أن ينتظره حتى يعود ، ونزل يمشى على قدميه ويقلب نظره فى تلك المعاهد التى قضى فيها أيام سعادته الأولى ، وأشرق على قلبه من سمائها أول شعاع من أشعة الحب ، فرأى الغابة التى كان يهيم فيها وحده فى الليالى المقمرة مناجياً نفسه بحبه وغرامه ، مصوراً لها أعذب الآمال وأحلاها ، ومر بالنهر الذى اقتحمه منذ عامين لاستنقاذ ذلك الرجل الذى كان مشرفا على الغرق حتى كاد يغرق معه لولا معونة الله وعنايته ، ووقف على ضفة البحيرة التى كان يتنزه فيها هو وماجدولين ساعة الأصيل ويقضيان الساعات الطوال بين سمائها ومائها .

ثم أشرف على بيت الشيخ مولر فلاحت له أعالى أشجار الزيزفون التى كان يجلس تحتها هو وماجدولين كما كان يراها فى ذلك العهد ، ورأى من خلال أوراقها غرفته العالية التى كان يسكنها ، فعادت إلى ذهنه تلك الأيام الماضية التى قضاها فى هذه المواطن ، فرأى صبحها ومساءها ، وليلها ونهارها ، وبكورها وأصائلها ، وكلّ ما مر له فيها من سرور وحزن ، ورجاء ويأس ، وصحة ومرض ، ورخاء وشدة ، حتى خيل إليه أنه لايزال مقيما فى ذلك المنزل حتى اليوم ، وأنه إنما خرج الساعة من غرفته لقضاء بعض حاجاته وهاهو ذا عائد إليها .

ولم يزل يهيم فى أمثال هذه التصورات حتى وصل إلى باب الحديقة فوقف على عتبته وقال : هاهو ذا الباب الذى خرجت منه بالأمس طريداً شريداً لا أملك من أمر نفسى ولا أمر مستقبلى شيئاً ، وها أنذا أدخله اليوم آمناً مطمئناً كما أدخل بيتى ، وأزور أهله وقومه كما أزور أهلى وقومى ، لا أخشى عيناً ولا رقيباً ، ولا أتقى غائلة من غوائل الدهر ، ولا رزيئة من رزاياه ، فما أعجب تقلبات الأيام ، وأغرب ما تأتى به الأقدار ! !

ثم مشى فى الحديقة يقلب نظره فى أشجارها وأغراسها ، وجداولها وطرقاتها ، ويقول فى نفسه : لقد بقى كل شىء على ماهو عليه ، فها هى ثغرة الحائط الغربى لاتزال باقية كما هى ، وها هى الصخرة العاتية السوداء ملقاة فى مكانها تحت الجدار كما تركتها ، وها هى أعشاش الطيور فوق قمة شجرة السنديان ، تختلف إليها عصافيرها غادية رائحة كعهدى بها ، ثم التفت

إلى يمينه وقال ، وها هو الجذع الذى حفرنا عليه اسمينا أنا وما جدولين ، ثم مشى إليه فرأى الكتابة لا تزال على حالها كأنما قد حفرت بالأمس ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، وجثا بين يدى الجذع وأهوى بفمه إليه فلثمه كأنما يشكر له تلك اليد التى أسداها إليه فى احتفاظه بتلك الذكرى القديمة التى أودعه إياها ، وهبت على وجهه فى تلك الساعة نسمة مرت قبل مرورها عليه بأزهار الحديقة وأعشابها ، فحملت إلى رأسه تلك المجموعة العطرية البديعة التى طالما استروحها فى هذا المكان نفسه مع ماجدولين ، ولا يحمل الذكرى القديمة مثل الأريج العطر ، فهاج وجدُهُ وحنينه ، وأخذ يعانق الهواء ويضمه إليه ، كما يضم حبيباً ملقى بين ذراعيه .

ولم يزل سائراً حتى وصل إلى رأس الطريق الموصل إلى مكان المقعد الذى كان يجلس عليه هو وماجدولين تحت أشجار الزيزفون ، ولم يبق بينه وبينه إلا خطوات قليلة ، فاشتد تأثره ، وخفق قلبه خفقاناً شديداً ، وحدثته نفسه أن ماجدولين جالسةٌ هناك الساعة وحدها تبكى وتلتحب ، وتندب آمالها وأحلامها ، وتفكر فى انقطاع كتبه عنها ، فأشفق عليها أن يباغتها بالخبر مباغتة فيقتلها ، فأخذ يهيئ فى نفسه طريقة إلقائه ، ثم مال برأسه قليلا فرأى طرف المقعد ، ورأى ذيل ثوب حريرىّ أبيض منسدلا عليه ، فاستطير فرحا وسروراً وقال : هاهى ذى جالسة كما كنت أتوقع أن أراها ؛ فثبت اللهم قدمى وقدمَها فى ذلك الموقف الجلل العظيم .

ثم انعطف فما وقع نظره على المقعد حتى جمد واصفر : ووقفت دورة الدم فى عروقه ؛ وتعلقت أنفاسه بين لحييه فما تصعد ولا تهبط ؛

فقد رأى ماجدولين جالسة بجانب فتى غريب تبسم له ويبسم لها ، وقد أخذ يدها بين يديه وألقى رأسه على صدرها ، وحنا عليها حنو المحب على حبيبه ؛ فظل يقول فى نفسه : ماهذا الذى أرى ! إننى لا أفهم من كل ذلك شيئاً ، إنها ماجدولين بعينها ! فمن هو هذا الإنسان الجالس إليها ؟ أليس هو صديقى إدوار ؟ نعم هو بعينه فما مجيئه هنا فى هذه القرية ؟ وما وجوده فى هذا البيت ؟ وما جلوسه بجانبها هذه الجلسة الغريبة ؟ ثم شد بيده على قلبه كأنما يحاول أن يحبسه عن الفرار ومشى يقتلع قدميه اقتلاعا كأنما هو شبح من الأشباح الهائمة فى ظلام الليل حتى دنا منهما ، ففزعا إذ رأياه ، ووثبا على أقدامهما وثبة واحدة ، ثم مالبثا أن اختلف شأنهما ، فأخذ إدوار بطرف شاربه يعبث به ويقلّب عينيه فى السماء كأنه منجم يفتش عن النجم السابع والسبعين بعد المائة والخمسة والعشرين مليوناً كما يصنع المنجمون ، وأطرقت ماجدولين إلى الأرض فسكنت فى إطراقها سكوناً عميقاً لا تتخلله حركة ولا نأمة ، فظل استيفن يردد نظره بينهما باهتاً مشدوهاً لا يقول لهما شيئاً ، ولا يفهم من موقفهما أمراً ، ثم مشى خطوة إلى ماجدولين ، وقد أخذ الذهول مأخذه من عقله فنسى المنظر الذى رآه منذ لحظة ، وأنشأ يخاطبها باسماً متطلّقاً ويقول لها : لقد انقضت أيام شقائنا ياماجدولين . ولقد أصبحت والحمد لله صاحب ثروة لا أقول إنها عظيمة ولكنها كافية لسعادتنا وهنائنا ؛ فجئت إليك أتنجّزُ وعدك ، وأخطبك إلى أبيك ، ثم أذهب بك إلى جوتنج لأريك البيت الجديد الذى ابتعته لك منذ عهد قريب ، وسترين حين ترينه أنه على الهيئة التى تمنينا أن

يكون عليها ليلة ركبنا زورق البحيرة وتحدثنا عن آمالنا وأمانينا ؛ فارتعدت ماجدولين وامتقع لونها وقالت بصوت ضعيف خافت كأنها تهمس فى نفسها ببعض الأحاديث « إنى أهنئك بصلاح حالك يا سيدى » فعجب استيفن لذلك واستطير عقله وقال فى نفسه : ما هذا الذى أسمع ؟ إنها تهنئنى بصلاح حالى كأنها ترى أن لى حالا خاصة بى مستقلة عن حالها ، فليت شعرى ما بالها ! وما هذا السكون المخيم عليها ! وما هذا الوجه الغريب الذى تلقانى به ؟ ! لقد كنت أخشى أن أقتلها فرحا وسروراً ، فإذا هى تقتلنى هما وكمداً ؛ ثم نسى هذا المنظر الأخير كما نسى الأول ؛ فأخرج من جيبه خاتم الخطبة ومشى إليها خطوة أخرى ليقدمه إليها ، فما وقع نظره على أصبعها حتى تراجع خائفاً مذعوراً ؛ فقد رأى فيه خاتماً غير ذلك الخاتم الذى نسجته من شعره ؛ وكانت تحدثه عنه فى رسائلها كثيراً وتقول له إنه لا يفارق أصبعها لحظة واحدة ؛ فاشتد خفوق قلبه واضطرابه ؛ وظل يدور بعينيه حائراً ملتاعا لا يعلم أخيالا يرى أم حقيقة ؟ وازدحمت الدموع فى عينيه تتبادر إلى السقوط ، فمد يده إلى ماجدولين ضارعاً وقال لها : ألا تستطيعين يا سيدتى أن تقولى لى كلمة واحدة ، فإنى أشعر أنى على وشك الجنون ؟ فرفعت رأسها ونظرت إليه كأنها تريد أن تقول له شيئاً ، ثم عادت إلى إطراقها وسكونها ، وهنا تقدم نحوه إدوار ووضع يده على كتفه وقال له : حسبك هذا يا استيفن فإنك تقتل السيدة قتلا ، فانتبه استيفن إليه وكأنه لم يكن رآه قبل هذه اللحظة ، فصعّد نظره فيه وصوّبه وقال له : إننى لم أكن أتوقع أن أراك هنا فى هذا المكان يا إدوار ، فقال له

سواء أتوقعت أم لم تتوقع ، فقد كان يجب عليك أن تستأذن قبل الدخول ، ولم يكن يجمل بك وأنت فى هذه السن المتقدمة أن تنسى أول درس يتلقاه التلميذ فى مدرسته فى أدب الزيارة والاستئذان ، فانتفض استيفن انتفاضة شديدة وعلت جبينه سحابة بيضاء لم تزل تتسع وتستفيض حتى لبست وجهه كله فصار كأنه البردَ الناصع ، واسترخت يداه كما يكسِرُ الطائر جناحيه للوقوع ، وشعر بتخاذل أطرافه فتراجع إلى شجرة وراءه فاستند إليها ، ثم نظر إلى إدوار نظرةً يقطر منها الدم ، وقال له تلك الكلمة التى قالها يوليوس قيصر حينما طُعن من خلفه ، فالتفت فرأى أن الذى طعنه هو صديقه وصفيُّه « حتى أنت يا بُروتس » ! ؟ وصمت لحظة حتى رجعت إليه نفسه ثم التفت إلى ماجدولين وقال لها بصوت خافت متهدج تتطاير معه أجزاء نفسه : أصحيح ما يقول هذا الرجل يا ماجدولين ؟ وهل تَرَين كما يرى أننى أخطأت فى دخولى عليك بغير استئذان ؟ وهل تعتقدين أن له شأناً عندك يسمح له بأن يتولى أمر مؤاخذتى بالنيابة عنك ؟ فاعترض إدوار بينهما ومد يده إليها وقال لها : هيا بنا يا سيدتى فقد طال جلوسنا فى هذا المكان حتى مللناه ، فأعطته يدها وتبعته صامتة مطرقة حتى دخلا البيت وتركاه فى مكانه ينظر إليهما وهما يبتعدان عنه شيئاً فشيئاً حتى اختفيا وسمع خفق الباب وراءهما فظل شاخصاً إلى الباب الذى دخلاه لا يتحرك ولا يَطرف ، ولا تنبعث له جارحة ، ولا ينبض له عرق ، ومرت به على ذلك ساعة ، ثم أخذ يحدث نفسه ويقول :

إن إدوار يخاطبنى بلهجة الآمر الناهى كأن له شأناً فى هذا البيت فوق

شأنى ؛ فلا بد أن يكون له هذا الشأن الذى يزعمه ؛ ولابد أن يكون قد استمده من ماجدولين نفسها ، فقد رأته بعينها وهو يحتقرنى ويزدرينى ، بل يسبنى ويشتمنى فلم تقل له شيئاً ، لا ، بل إنها وافقته على أكثر من ذلك ، فقد مد يده إليها ودعاها للدخول معه إلى المنزل وهى تعلم أنه لايريد بذلك إلا طردى وإذلالى ، فتبعته طائعة مذعنة ، ولم تلتفت إلىّ ساعةَ انصرافها التفاتة واحدة تعتذر بها عن عملها هذا ، وها قد مضت ساعة بعد ذهابها ولم تعد إلىّ لترى ماذا حلّ بى من بعدها ، فليت شعرى ما دهانى عندها ؟ وماهذا الذى بينها وبين إدوار ؟ إننى أخشى أن يكون خطيبها ، وأن يكون هذا الخاتم الذى فى يدها خاتم الخطبة الذى أهداه إليها ، وأن تكون تلك الجلسة التى رأيته يجلسها بجانبها جلسة غرام يتشاكيان فيها الحب ويتباثانه ، فإن كان ماظننته حقاً ، فهى فتاة مجرمة خائنة ، لأنها وعدتنى بالانتظار حتى ييسر الله لى سبيل الرزق فلم تف بوعدها ، بل أقسمت لى الأيمان التى لا فسحة فيها على الوفاء حتى الموت فلم تبرّ بيمينها .

لا لا ، إنها لاتستطيع أن تفعل ذلك ، لأنها تعلم حق العلم أنها لى ، وأنى صاحب الشأن فيها من دون الناس جميعاً ، فقد اشتريتها بدم حياتى وبجميع دموعى وآلامى ، وكابدت فى سبيلها من نكبات الدهر وأرزائه مايخرج احتماله عن طوق البشر ، فجعتُ حتى أشرفت على الموت ، وعريت حتى حبست نفسى عن الخروج من غرفتى إلا فى ذمام الليل وحمايته ، ونمت فى الليالى القرة الباردة فى ممر الهواء الجارى بلا غطاء ولا دثار ، وخرجت تحت جنح الظلام أُفتش فى صناديق القمامة عن لقمة متروكة أو عظمة

مطروحة أسد بها رمقى ، وبعت الخبز الأبيض بالخبز الأسود لأستطيع أن أجد لقمة لغدائى ، وأخرى لعشائى ، وما زلت أرقع قميصى حتى صار القميص الرقاع وذهب القميص بأجمعه ، بل ركبت فى سبيلها ماهو أعظم من ذلك فقد قتلت أخى ، ومثلت بالرجل الذى أحسن إلىَّ فى حياته وبعد مماته ، وحدثت نفسى بسرقة ماله ، بل مددت يدى إليه ، فأصبحت بذلك من المجرمين .

إنها لاتستطيع أن تنتزع يدها من يدى ، ولا أن تفصل حياتها من حياتى ، فقد خُلِقتْ لى كما خُلِقتُ لها ، وها هو اسمى محفور بجانب اسمها على جذوع أشجار حديقتها ، وها هى شعرات رأسها منسوخة فى الخاتم الذى ألبسه منذ عامين ، وها هى الأرض والسماء ، والبحيرة والفلك ، والشمس والقمر ، والأشجار والأعشاب ، والطيور والأزهار ، تشهد بحبنا وغرامنا ، ومواقف آمالنا وأحلامنا . وأيماننا التى أقسمناها ألا يفرق بيننا إلا الموت ، فإن كانت نفسها قد حدثتها بمقاطعتى ، واتخاذ سبيل فى الحياة غير سبيلى فقد قضت علىَّ وعلى نفسها فى آن واحد ، لأن الحياة الواحدة لا يمكن أن تنقسم إلى حياتين تعيش كل منهما مستقلة عن الأخرى .

ثم تأوه آهة طويلة وقال : مَن لى بمن أبيعه نصف حياتى على أن يكشف لى الحقيقة التى أجهلها ؟ ولقد كان جديراً بى أن أقف فى طريقهما عندما حاولا الفرار منى وآبى عليهما أن ينصرفا إلا بعد أن يعترفا لى بحقيقة أمرهما ، ويمزقا عن وجهيهما هذا الستار الذى أسبلاه عليهما ، فإن أبيا قتلتهما غير ظالم ولا آثم ، فليس من العدل ولا من الرحمة أن يذهبا إلى

خلوتهما لينعما فيها بما يشاءان أن ينعما به ، ويتركانى فى هذا المكان وحدى أعالج ما أعالج من الهموم والآلام .

ثم قام يتحامل على نفسه حتى خرج من باب الحديقة ومشى يترنح فى مشيته ترنح الشارب الثمل ، فما أبعد إلا قليلا حتى سمع صوتاً شديداً يخفق وراءه ، فالتفت فإذا إدوار خارج من باب الحديقة ممتطياً صهوة جواد أصهب فاختبأ استيفن وراء ربوة على الطريق حتى دنا منه فخرج إليه وأمسك بعنان جواده ، فذعر إدوار إذ رآه ولكنه تماسك وتجلد ، وقال له ماذا تريد يا استيفن ؟ قال أريد أن أسألك عن سبب اختلافك إلى هذا البيت ، وعن الشأن الذى لك فيه ، وما أعرف لك فيه شأناً قبل اليوم ، قال لا أستطيع أن أجيبك على سؤالك هذا وأنت آخذ بعنان جوادى لا تتركه ، فدعه وسلنى ماتريد ، فترك استيفن العنان إلا أنه وقف فى وجه الجواد ، فقال له إدوار : لوغيرك سألنى هذا السؤال بهذه اللهجة الجافية الخشنة التى تخاطبنى بها لما كان له جواب عندى سوى أن أقول له إنى حر مطلق أتصرف فى شؤون نفسى كيف أشاء ، فأزور ما أزور من المنازل ، وأترك ما أترك منها ، دون أن أعرف لإنسان فى الوجود حقا فى مراقبتى أو مساءلتى عما أفعل ، ولكن إكراماً للصداقة التى بينى وبينك أستطيع أن أجيبك على سؤالك هذا جواباً موجزاً فأقول لك : إنى أختلف الى بيت الشيخ مولر لأنى خطيب ابنته ، وسأبنى بها بعد شهر واحد ولو شئتَ لحضرت حفلة عُرسنا ، بل أنا أدعوك الى ذلك ، فارتعدت شفتا استيفن ، وشعر بالموت يتسرب إلى قلبه قليلا قليلا ، وقال له بصوت خافت ضعيف : أتعنى

ماجدولين ؟ قال : نعم ، وليس لمولر ابنة غيرها ، فأطرق استيفن هنيهة ثم رفع رأسه وقال له : ولكنك تعلم يا إدوار أنى أحبها ، وأنها كل حظى فى هذه الحياة ، وأن انتزاعها من يدى إنما هو بمثابة انتزاع حياتى من بين جنبىّ ، فهل يهون عليك وأنا صديقك ورفيق صباك وشريكك الدائم فى سرّاء الحياة وضرّائها أن تقتلنى ؟ قال : أنا أعلم أنك تحب هذه الفتاة ، وأنك استملتها فى بعض أيام حياتك الماضية بعض الاستمالة ، حتى كادت تسقط فى أحبولة الشقاء التى نصبتها لها ، لولا أن تداركها أبوها فاستنقذها من يدك ، وطردك من بيته طرداً قبيحاً ، وحماها ذلك المستقبل المظلم الذى كنت تهيئه لها ، فقاطعه استيفن وقال له : ولكنك لم تجبنى على سؤالى الذى سألتُكه ، قال : وما سؤالك ؟ قال سألتك : هل يهون عليك قتلى وأنت أخى وصديقى ، ورفيق طفولتى وصباى ؟ قال : إنى ماأردت قتلك ، بل أردت حياتك ، فقد تركت لك السبيل بعملى هذا إلى الرجوع إلى نفسك ، والتفكير فى شأن حاضرك ومستقبلك ، فلعلك إن رويتَ فى أمرك قليلا علمت أن خيراً لك من هذه الحياة المضطربة المبعثرة التى تقضيها بين أحلام خائبة ، وآمال كاذبة : الرجوع إلى أهلك والانضواء إليهم والكون تحت أجنحتهم والإذعان لهم فيما يريدون لك من الخير فى تزويجك من تلك الفتاة الثرية التى اختاروها لك ، ولا يذهب عليك أن زواجك من فتاة موسرة تظلل بوارف نعمتها ضاحى[1] فقرك ، خير لك من القعود مقعد الذل والمتربة بجانب فتاة فقيرة تضم شقاءها إلى شقائك ، فتعيا بحملهما معاً ،

---

(١) ضحى الشىء : برز للشمس فهو ضاح .

فها أنت ترى أنى قد أردت لك الخير فيما فعلت ، وأسديت إليك نعمة إن جهلتها اليوم فستعرفها غداً ، وستهدأ عما قليل هذه العاصفة الثائرة فى رأسك ، فتعرف لى مكان تلك اليد التى اتخذتُها عندك وتشكرها لى شكراً جزيلا .

فما أتى إدوار على آخر كلماته حتى طار الغضب فى رأس استيفن ، وبرزَت من مكمنها تلك السَّورةُ التى كانت رابضة وراء سكونه فانقض عليه ولبَّبه[1] وهزه هزا شديداً حتى كاد يقتلعه من سرجه وأنشأ يقول له : الآن عرفتُ مكان الخديعة التى خدعتم بها تلك الفتاة المسكينة أيها القوم الأشرار ، ومن أى باب دخلتم إلى قلبها فعبثتم به ، وإلى عقلها فطرتم بصوابه ، فقد علمتم ماتضمره لى بين جوانحها من الحب والإخلاص ؛ وأنها لاتبتغى بسعادتى بدلا من أغراض الحياة ومآربها ، فألقيتم فى رُوعها أنها علة ماألاقيه فى هذه الحياة من بؤس وشقاء ، وألا سبيلَ لى إلى أن أنال فى حياتى حظا من سعادة العيش وهنائه إلا إذا أيأستنى من نفسها وانتزعت يدها من يدى ، وقطعت ماكان موصولا من الود بينى وبينها ، فصدقت حديثكم وأزعجها هذا المصير الذى خيَّلتم لها أنى سأصير إليه بسببها ، فأذعنت لرأيكم ، واستفادت لكم ، وفعلت ما اقترحتم عليها ، رحمة بى ، وإشفاقا علىّ ، وكذلك استطعتم أن تستثمروا ضعفها وتستغلوه لأنفسكم ، وما بكم من رحمة بى ولا بها ، ولكن هكذا أراد ذلك الشيخ الجشع المأفون أن يستمتع بنعمة المال الذى يعبده ويدين به ، فباعك

---

(١) لببه : أخذ بتلبيبه أى جمع ثيابه .

ابنته بيع الإماء فى سوق الرقيق ، وهكذا أردت أنت أن تتمتع بشهوتك البهيمية التى لا تفهم من شؤون الحياة شأناً غيرها ، ولا يعنيك من زواجك من مثل هذه الفتاة أمرٌ سواها ، فمثلك من يعجز عن إدراك السريرة نفسها وما تضمره بين جوانحها من نبل وشرف ، وكلّ ماتستطيع أن تفهمه منها أنها فتاة وضيئة حسناء تشبه فى بهائها ورونقها رونق أولئك الفتيات الجميلات اللواتى طالما خدعتهن عن أنفسهن ، وقضيت لياليك فى مقاصيرهن ؛ ثم مالبثت أن نفضت يدك منهن ، وتركتهن يندبن حياتهن وآمالهن ، ولو استطعت أن تسلك إلى المتعة بهذه الفتاة تلك السبيل التى سلكتها إلى المتعة بأولئك الفتيات لفعلت ، ولما جشمت نفسك مشقة الزواج منها ، ولأغنتك ليلة واحدة تقضيها فى مخدعها عن أن تحبس نفسك عليها الدهر كله .

ومن كان هذا همه من حياته فويلٌ لزوجته منه ، وويل له منها ، وويل لهما من شقائهما الدائم الطويل .

فقال له إدوار : إن كنت تريد أن تقول إنها أُرغمت على زواجها إرغاماً ، أو خُدعت فيه خديعة ، فأنت مخطئ فى ظنك ، لأنها قد نسيت كلّ ماضيها خيرَه وشره ، ولم يبق بين يديها إلا حبها لخطيبها ، وإخلاصها إليه ، وتعليل نفسها باليوم الذى تسعد فيه بجانبه .

فاستطير استيفن غضباً وقال : كذبت أيها الرجل الساقط ، إنها أشرف مما تظن ، وانقض عليه يريد الفتك به ؛ فأمسك إدوار بيديه وقال له بنغمة المستعطف المسترحم : أتريد أن تقتلنى يا استيفن ؟ فاستخزى

استيفن وتضاءل ، وتراءى له طيف ذلك الود القديم الذى كان بينه وبينه ، ونظر إليه بعينين مغرورقتين بالدموع وقال له : لا يا إدوار ، لا أستطيع أن أقتلك لأنك صديقى ، ولقد وُفّقتُ مرة فى حياتى أن أسفك بضع قطرات من دمى فداء عنك ، فلا أندم على معروفى قط ، ولا أسترد يدى التى اتخذتها عند الله فيك أبداً .

ثم ألقى برأسه على قَرَبوس السرج وأخذ يد إدوار بين يديه يبللها بدموعه وظل يناشده ويقول : إننى لا أدعوك يا إدوار باسم الصداقة التى رضعنا ثديها منذ طفولتنا معاً كما يتقاسم الأخوان ثدىَ أُمهما ، ولا باسم المدرسة التى أظلّتنا سماؤها وأقلتنا أرضها خمسة أعوام كاملة آنس بك فيها وتأنس بى ، وأعينك على أمرك وتعينى على أمرى ، ولا باسم ذلك الشهيد المسكين أُوجين الذى كان كريما عليك وعلىّ ، وكان يرعى لك ودك ويحفظ عهدك ، حتى مات وهو يعتقد أنه قد تركنى من بعده فى كلاءة أخ كريم ، وصديق حميم ، ولا باسم اليمين التى أقسمتها لى ليلة سفرك من جوتنج ألا يهدأ لك فى حياتك رُوع ، ولا يثلج لك صدر ، حتى أنال أُمنيتى من حياتى ، بل أدعوك باسم الرحمة والشفقة ، لأنك محسن كريم ولأنى بائس مسكين ، وليس للبائس المسكين من سبيل فى حياته غير رحمة المحسن الكريم .

فلم يعبأ إدوار بذلك كله وتغفله وهمز جواده فطار به ملء فروجه ، فركض استيفن وراءه فلم يدركه ، وكان قد أعياه الجهد فسقط فى مكانه وهو يقول « لابد أن يكون ماقاله صحيحاً » .

ولم يزل فى سقطته تلك حتى مرّ به بعض السابلة وكان قد رآه عند حضوره فعرفه فآذن به سائق عجلته فهرع إليه الحوذى وأخذ بيده حتى أركبه العجلة ثم ذهب به إلى منزله .

فما انفرد بنفسه فى غرفته حتى أخذ يصيح صياح المجانين ويضرب رأسه بالجدران وهو يقول : « آه لقد فقدتكِ ياماجدولين » .

رسائل استيفن

٦٣

من استيفن إلى ماجدولين

أصحيح ياماجدولين أن ماكان بيننا قد انقضى ؟ ! وأننا أصبحنا متناكرين غير متعارفين لايذكر الواحد منا صاحبه إلا كما يذكر حلماً من أحلام صباه قد عفّت آثاره الأيام والأعوام !

أصحيح أننا إذا التقينا بعد اليوم فى طريق واحد مضى كل منا فى سبيله دون أن يَلوِىَ على صاحبه ، أو فى مجتمع لايكون بيننا من الشأن إلا كما يكون بين سائر رجال ذلك المجتمع ونسائه ، أو فى خلوة لا نجد مانتحدث به أو لانتحدث إلا بحديث الأجواء والأمطار ؟ !

ما أسرع تقلبات الأيام ! وما أغرب تصاريفها وشؤونها ؟ !

أفيما بين يوم وليلة تنهدم جميع الآمال الجسام التى بنيناها وأحكمنا بناءها وبذلنا فى سبيلها همومنا وآلامنا ، وأرقنا من أجلها كل ما نملك

من دموع وشؤون ، وتصبح أثراً من الآثار الدارسة التى يتحدث عنها التاريخ الحاضر كما يتحدث عن التاريخ الغابر ! ؟

هكذا تقوم الساعة ، وهكذا ترجف الراجفة ، وهكذا تتناثر الكواكب فى الفضاء ، وتطوَى السماء طىَّ السجل للكتاب .

لقد كنت أحسب يا ماجدولين ألا يتولى ذلك الأمر منا غيرُ الموت ، أما وقد تولياه من أنفسنا بأنفسنا ، ونسجنا خيوطه بأيدينا ، ونحن أحياء ، فتلك أُعجوبة الدهر التى لم ير مثلها راء ، ولا سمع بمثل حديثها سامع .

ماذا أنكرتِ منى ياماجدولين ؟ وماذا دهانى عندك ؟

لقد أحببتك حبا لم يحبه أحد من قبلى أحداً ، وأخلصت لك إخلاصاً لايضمر مثله أخ لأخيه ، ولا والد لولده ، وأجللتك إجلال العابد لمعبوده فما خُنتُك فى سر ولا جهر ، ولا كذَبتك فى قول ولا عمل ، وملأت فراغ حياتى كله بك ، فلا أنظر إلا إليك ، ولا أشعر إلا بك ، ولا أحلم إلا بطيفك ، ولا أطرب لرؤية الشمس ساعة شروقها إلا لأنى أرى فيها صورتك ، ولا لسماع أغاريد الطير فى أفنانها ، إلا لأنى أسمع فيها نغمة حديثك ، ولا لمنظر الأزهار الضاحكة فى أكمامها إلا لأنها تمثل لى ألوان جمالك ، ولا تمنيت لنفسى سعادة فى هذه الحياة إلا من أجل سعادتك ، ولا آثرت البقاء فيها إلا لأعيش بجانبك ، وأستمتع برؤيتك .

إن كنت ترين أنى لا أستحق محبتك ، وأنى أصغرُ شأناً من أن أملأ فراغ قلبك ، فأحبِّى فىَّ حبى إياك ، وإخلاصى لك وأجزينى خيراً بما بذلت

لك فى حياتى من دموع وآلام، وشجون وأحزان، واعلمى أنك إن استطعت أن تجدى بين الرجال من يرضيك بجماله أو ماله، أو حسبه أو جاهه، فإنك لا تستطيعين أن تجدى فيهم من يحبك محبتى، أو يخلص لك إخلاصى.

إنهم قد خدعوك يا ماجدولين، وزينوا لك حب المال والشهوات وخيلوا إليك أن الحياة طعام وشراب، وثوب فاخر، وقصر باذخ، وعقد ثمين، وفرط جميل، وأن الزواج شركة مالية يتعاون فيها الزوجان على جمع المال واكتنازه، وما علموا أن الزواج المالى نوع من أنواع البغاء، وأن المرأة التى تتزوج الرجل لماله لا تتزوجه كما تزعم، بل تبيعه نفسها بيعاً كما تبيع البغى جسمها لعاشقها، بل هى أحط من البغى شأناً، وأسفل غرضاً، لأنها لم تبع نفسها من أجل لقمة تقيم بها أودها، أو خرقة تستر بها ضاحىَ جلدها، فينفسح لها صدر العذر فى ذلك، بل من أجل عقد ثمين تطمع فى أن تزين به صدرها، أو ثوب فاخر تكاثر به أترابها، أو قصر جميل تستمتع فى جوه بأنواع لذائذها.

لا تصدقى يا ماجدولين أن فى الدنيا سعادةً غير سعادة الحب، فإن صدقت فويل لك منك، فإنك قد حكمت على قلبك بالموت.

لقد كنتِ عندى آخر من يحفل بأمثال هذه المظاهر الكاذبة ويأبه لها، وكان أكبرَ ما أعظمك فى عينى، وأجلك فى نفسى، واستعبدنى لك، أنك المرأة التى وجدت فيها وحدها من بين النساء جميعاً قلباً نقيا طاهراً يفيض بالحب النقى الطاهر الذى لا تشوبه شوائب النوازع والشهوات،

ولا يكدره مكدر من أغراض الحياة ومطامعها . فهل كنت مخطئاً فى ظنى ؟

لالا ، إنك لاتزالين صاحبة ذلك القلب الذى أعرفه حتى الساعة ، وهذا هو الذى أخافه عليك ، وأرثى لك من أجله .

أنتِ لاتعلمين شيئاً من شؤون إدوار ، وأنا أعلم من شؤونه كل شىء ، وأخص ما أعلم منها أنه لايحمل بين جنبيه قلباً مثل قلبك ، ولا يفهم من معنى الحب وسره المعنى الذى تفهمين ، ولا يستطيع أن يكون شريكا لك بحال من الأحوال فى شعورك ووجدانك ، وكل شأنه معك أنه رآك فاستملحك فاشتهاك ، والملاحة عرض زائل ؛ والشهوة ظل متنقل عليك أن ينالك بعد قليل على يده ذلك الشقاء الذى تفرين منه اليوم ، وألا ينفعك ولا يجدى عليك شيئاً فى ذلك الحين مال ولا نسب ، ولا فضة ولا ذهب ؛ ولئن تم لك ذلك لأكونن أشقى الناس عيشاً ، وأعظمهم بؤساً ، لأنى أحبك ، وأحب لك السعادة فى كل موطن تكونين فيه ، من أجلك ؛ لا من أجل نفسى .

ليت شعرى ! هل يصل صوتى إلى أعماق قلبك يا ماجدولين كما كان يصل إليه قبل اليوم ؟ وهل تستطيعين أن تتصورى كما كنت تتصورين من قبل أنى أحبك أكثر مما أحبك لنفسى ، وأنى فيما أمضيت به إليك من تلك النصيحة إنما أردت سعادتك وهناءك ؛ أكثر مما أردت سعادة نفسى وهناءها !

٦٤

من استيفن إلى ماجدولين

لقلما أبقى على ما أرى .

الحياة مظلمة فى عينى ، والدنيا موحشة مقفرة لا أسمع فيها حسا ولا حركة ، كأن الليل متواصل لاينقطع ، وكأن الناس رُقودٌ فى مضاجعهم ليلهم ونهارَهم ، لايستيقظون ولايستفيقون ، ويخيل إلىّ أننى أعيش فى صحراء نائية منقطعة عن العالم وما فيه ، لايمر بها طير ، ولايجرى فيها نهر ، ولا يطأ تُربَتها إنسان ، ولا يحول فى أكنافها حيوان ، وأننى أهيم فيها وحدى ليلى ونهارى ، أطلب الخلاص منها فلا أعرف السبيل إليه ، وأحمل نفسى على البقاء فيقتلنى الضجر والضيق .

فمتى يحين حينى وتأتى ساعتى فأرتاح من همومى وآلامى ؟

لاشىء يعزينى عنك فى العالم ياماجدولين ، لأنك كنت لى كل شىء فيه ، فلما فقدتك لم أجد منك عوضاً ولا بدلا ، وكنتُ كمن قامر فى ساعة واحدة بجميع ماتملك يده فلما خسِر خسِر كل شىء .

كانت لى آمال كبار ، وأمانى حسان ، وكانت لى نفس مملوءة بعظائم الأمور وجلائلها ، وكنت أشعر بقوة فى جسمى لايقوم لها شىء فى هذا العالم ، فأصبحت رجلا ضعيفاً خامداً متألما يائساً قانطاً لا أشعر ولا أفكر ، ولا آخذ ولا أدع ، ولا أتجه إلى مقصد ، ولا أتعلق بغرض ، ولا أجلب لنفسى خيراً ، ولا أدفع عنها ضرا ، ولا شأن لى بين الناس

أكبر من شأن جثة ملقاة لا روح فيها ، أو حجر مطّرح فى قارعة الطريق

ألا تخافين يا ماجدولين أن يأخذك الله بذنبى يوم يأخذ الناس بذنوبهم ؛ ويسألك عن هذه النفس الطيبة الطاهرة التى قتلتها وجمعتها فى جميع فضائلها ومواهبها ، وأن يتبعك صوتى فى كل مكان تكونين فيه ، فى خلواتك ومجتمعاتك ؛ ومنامك ويقظتك ؛ وبين ذراعى زوجك ، وبجانب مهود أولادك ؛ ويصيح بك : إنك قد قتلت رجلا لو عاش لكان أفضل مثال للأزواج الصالحين ؛ والآباء الرحماء ، والأصدقاء الأوفياء ، ولكان خير الناس للناس جميعاً ؟ !

ألم تعدينى يا ماجدولين أن تسهرى على سعادتى وتحرسيها كما تحرس الملائكة سعادة البشر وهناءهم ؟ فهأنذا أشقى الناس جميعاً ؛ وأعظمهم بؤساً وبلاء . فأين ماوعدتنى به ؟ .

تعالى إلىّ وقفى أمامى ساعة واحدة لأراك وأرى فى وجهك صورة سعادتى الزائلة ، وآمالى الضائعة ، وأسمعينى صوتك العذب الجميل الذى أسمعتنيه من قبل ، وألقى علىّ نظرة واحدة من نظراتك العذبة الرائقة تحيى بها نفسى الميتة ، وقولى لى صدقا أو كذباً إنك لا تزالين تحبيننى وتعطفين علىّ ، ثم لاتزيدى على ذلك شيئاً ، فقد أصبحت أقنع منك بكل شىء .

أقسم لك ياماجدولين أننى لو رأيتك فى طريقى لهرعت إليك وجثوت تحت قدميك كما يجثو العابد تحت قدمى معبوده وسألتك البر والإحسان كما يفعل السائل المستجدى ، فإن أعرضت عنى زحفت وراءك على ركبتىّ وتعلقت بأهداب ثوبك حتى تصغى إلىّ وتسمعى شكاتى .

ولكن ماذا أقول لك ! وماذا عندى من الأحاديث فأحدثك به ! لاشىء عندى سوى أن أذرف دموعى تحت قدميك ، وأمد يدى إليك صامتاً ثم أضع حياتى بين يديك ، فإما أحييتنى أو قتلتنى .

إننى أتألم كثير يا ماجدولين ، ولا أحسب أن فى العالم نفساً تحتمل ماتحتمله نفسى من الآلام والأوجاع ، فارحمينى وأعطنى علىّ ، فإن لم أكن كفؤاً لمحبتك ، فامنحينى صداقتك ، فإن أبيتها فاسلى علىّ ستر حمايتك ، فإن ضننت بها فائذنى لى أن أسير وراءك فى كل مكان تسيرين فيه كما يتبعك كلبك الذليل ، لأراك وأسمع صوتك ، واستنشق الهواء الذى يحيط بك ، لأنى لا أستطيع أن أعيش فى العالم دون أن تكون لى صلة بك

كنت قد وضعت قبل اليوم بين يديك سعادتى وهنائى ؛ أما الآن فقد حالت الحال ؛ وتراجعت الآمال ؛ وأصبحت لا أطمع فى أن أضع بين يديك شيئاً غير حياتى .

١٥

من استيفن إلى ماجدولين

لى الله من بائس مسكين ؛ فقد ذبلت زهرة حياتى قبل أن تتفتح ، ودبت إلىّ الشيخوخة وأنا لاأزال فى ريعان الشباب ؛ وانطفأ ماكان مشتعلا فى قلبى من الهمة ، وفى رأسى من الذكاء ، وفى جسمى من القوة ؛ وانقطع ماكان موصولا بينى وبين الناس جميعاً ؛ فمات أخى ، وطردنى أبى . وعادانى أهلى . ولم يكن باقياً لى فى العالم سواك . ثم انقضى ماكان بينى وبينك

فأىّ أرب لى فى العيش من بعد ذلك ؟

أتدرين لم أُوثر الحياة على الموت ياماجدولين وقد كان الموت أروحَ لى مما أُكابده ؟ لأنى لست على يقين مما بعده ، وأخشى إن حلّ بى أن ينتزع منى ذكرى تلك الأيام الجميلة التى تمتعت فيها بحبك وعطفك وبحلاوة الأمل فيك ، والتى هى كل مابقى فى يدى بعد الذى كان ولولا ذلك لقتلت نفسى ، ثم استحالت روحى إلى طائر جميل يطيف بك ويرفرف على رأسك حيثما ذهبت ، ويتناول الحب من يدك مرة ، والقُبلات من فمك أخرى ، فأظفر منك ميتاً بما عجزت عنه حيا .

إنكِ سلبتنى سعادتى ياماجدولين ، ولكنك لم تعطنى شيئاً بدلا منها أعيش به ، بل تركتنى وشأنى كما يترك المسافر رفيقه الجريح الظامئ فى الصحراء المحرقة التى لاظل فيها ولاماء وينجو بنفسه غير مبال بما تصنع به المقادير من بعده ، فما أقساك وما أبعد الرحمة من قلبك !

رُدّى علىّ أمانىّ وآمالى ، ولياليّ التى قضيتها فيك ساهراً متململا ؛ وحياتى التى وضعتها بين يديك ، ووكلت أمرها إليك ، وأعيدى إلى عطفى وحنانى ، ورحمتى وإشفاقى ، وجميع عواطف قلبى التى ضننت بها على أهلى وقومى جميعاً وآثرتك بها من دونهم ، وعقيدتى فى الحب والهناء ، وإيمانى بالله وبقاء الخير فى الأرض .

ماذا تقترحين علىّ ياماجدولين ، وأية ذخيرة من ذخائر الأرض أو كنز من كنوز السماء تحبين أن أضعه بين يديك ؟ أتريدين قصراً من المرمر الأبيض ، أم صهريجاً مملوءاً باللؤلؤ الرطب ، أم بساطا مصوغا من الجوهر ،

أم حلة ملسوجة من أشعة الشمس ، أم تاجا مرصعاً تتضاءل بين يديه تيجان الملوك والأقيال ، لقد أصبح ذلك كله لك ، وليس بينك وبينه إن أردته إلا أن تعيدى إلى قلبي الأمل الذي سلبتنيه فأصبح أقوى الناس جميعا وأقدرهم على امتلاك ناصية الكون بأجمعه ، أرضه وسمائه .

آه ما كان أشد سروري وفرحي يوم أعددت لك ذلك البيت الصغير في جوتنج ، وبنيت لك فيه تلك الغرفة الزرقاء الجميلة ، ووضعت فيها ذلك السرير ، كنت أرجو أن يكون الدوحةَ الفيْنانة التي أنعم بك في ظلالها ، وأنشأت تلك الحديقة البديعة التي لم أدع زهرة تحبها أو يحبها أبوك إلا غرستها فيها ، وكنت كلما دخلت ذلك المنزل ووقفت في فنائه لحظة خيل إليّ أنه آهل بك ، وأن صوتك العذب الشجي يرن في أنحائه ، وأن أولادنا يلعبون بين أيدينا في حديقته ، ويقطفون أزهارها وورودها ويقدمونها هدية إلينا ؛ بل كنت أتخيل عند ما كنت أدخل غرفة زينتك أني أراك جالسة إلى مرآتك فيها تمشطين شعرك الأصفر الجميل ، وأني واقف وراءك أغمس يدي في ذلك الخليج الذهبي الرّجراج وأختلس منه قبلة بعد أخرى

أما اليوم فقد ذبل كل شيء فيه وضوَى ، فانقطع الماء عن حديقته ، وذوت أشجاره وأزهاره وعصفت ، الريح بنوافذه وأبوابه ، وكست التربُ أرضه وسقوفه ، فأصبح كالعروس الحسناء التي نزلت بها منيتها ليلة زفافها

أصبحت لا تكتبين إليّ حرفا واحدا ، ولا تجيبين عن كتاب واحد من كتبي ، وما كان ذلك من شأنك قبل اليوم ، فاكتبي إليّ كلمة واحدة قولي لي فيها ما تشائين من خير أو شر ، فقد وطنت نفسي على احتمال كل شيء

٦٦

من استيفن إلى ماجدولين

لم تكتبي إليّ تلك الكلمة التي ضرعت إليكِ فيها ، وعهدي بك أنك مشيت قبل اليوم على قدميك بضع ساعات كابدت فيها ما كابدت من الآهال العظام حتى وصلتِ إلى صندوق البريد في قرية بعيدة عن قريتك فبعثت إليّ برسالتك ، فهل ذهب ذلك الماضي بأجمعه ولم يبق في نفسك منه أثر واحد ؟

لا أستطيع أن أصدق ذلك ، فكل ما حولك يذكرك بي وبأيامي التي قضيتها معك ، فهنالك الشمس التي كنا نستقبلها معاً طالعة ونودعها غاربة ، والقمرُ الذي كان يشرف علينا من علياء سمائه ، ويرسل إلينا أشعته الفضية البيضاء فتضمنا غلالتُها معاً ، والمقعد الذي كنا نجلس عليه بين الظل والماء ، ويدك في يدي ورأسك على صدري ، وخدك تحت متناول ثماتي ، والبحيرة التي كنا نقضي فيها كل يوم ساعة الأصيل سائرين على ضفتها صامتين تتحدث قلوبنا ، بما تمسك عنه ألسنتنا ، ثم نعود وبودنا أن لو استمر بنا المسير أبد الدهر إلى دار الخلود ؛ والغرفة التي التقينا فيها ليلة الوداع وبللنا تربتها بدموعنا وأقسمنا بين سمائها وأرضها يمين الوفاء حتى الموت .

إني أناديك في اليوم مائة مرة يا ماجدولين صارخا مستغيثا باكيا

مقتحما ، لا أهدأ ولا أقر ، وأنت لاهية عنى بذلك الشأن الجديد الذى استحدثته لنفسك ، لا تسمعين ندائى ، ولا ترثين لمصابى ، وما أعلم أنى أذنبت إليك فى حياتى ذنباً واحداً تأخذيننى به ، بل أعلم أنى اقترفت جميع الذنوب والآثام من أجلك .

إن كنت مررت مرة فى حياتك بامرأة جاثية على قبر زوجها تندبه وتبكيه أحرّ بكاء وأشجاه لأنها كانت تحبه حبا جما ، ولأنه تركها فى ريعان شبابها فقيرة معدمة ، وترك لها أطفالا صغاراً لا حول لهم فى الحياة ولا قوة ، فحزنتِ حزنها ، وبكيت لبكائها .

أو رأيتِ فى طريقك فتاة فقيرة هائمة على وجهها تبكى وتنتحب وتسأل الغادين والرائحين أن يمنحوها درهما واحداً تبتاع به دواء لأخيها الصغير المريض الذى لا سند له غيرها ، ولا عائل له سواها ، فأويتِ لها ، وأسعفتها بطلبتها .

أو مررتِ بضفة نهر فرأيت امرأة واقفة به تعول وتصيح وتستصرخ الناس لوحيدها الذى يغرق فى النهر أمامها فلا تجد من يعينها عليه حتى سقط سقطة لم يطفُ من بعدها فجن جنونها واندفعت وراءه بثيابها فطواهما البحر معاً فى لحظة واحدة ، فأعظمتِ نكبتها ، وبكيت مصيرَها .

أوسمعت بقصة ذلك الشيخ المسكين الذى دخل عليه الجند منزله وهو جاث بجانب زوجه المحتضرة وابنته المريضة ليأخذوه إلى السجن لأنه كان سرق من أجلهما بالأمس رغيفاً يقيم به أودهما ، فسأل الجند أن يمهلوه ساعة واحدة حتى يرى مايصنع القضاء بعليلته ، فأبوا ذلك عليه فعظمت

عليه النازلة فذهبت بعقله ، فعدل به الجند عن طريق السجن إلى طريق المارستان .

أو سمعت بقصة ذلك الرجل الذى ضل فى مفازة مقفرة فاشتد به العطش وهام على وجهه فى كل مكان يطلب الماء فلا يجده حتى أعياه الجهد ، وعجز عن المسير ، ثم لمح على البعد صفحة ماء تترقرق ، فما زال يزحف على ركبتيه إليها ويخضب الحصى بدمه المتدفق ، حتى إذا داناها ولم يبق بينه وبينها إلا خطوة واحدة سقط من دونها ميتاً .

أو قرأت قصة تلك المرأة التى رآها الناس فى إحدى المجاعات جالسة أمام كوخها وفى حجرها كتلة لحم حمراء مختلطة وبين يديها قدر يتصاعد بخارها فلما دنوا منها هالهم أن رأوا فى يدها سكيناً مخضبة بالدم ، ورأوا قدماً صغيرة بارزة من القدر ، فعلموا أن الجوع قد أفقدها عقلها ، وأن هذه الكتلة الحمراء التى فى حجرها إنما هى رضيعها قد ذبحته وأنشأت تقطع أوصاله بمديتها وتطبخها لتأكلها .

إن كنتِ سمعت بخبر هؤلاء المنكوبين ، وسمعت أنين المعذبين فى السجون ، وصراخ المرضى فى المستشفيات ، وضحك المجانين فى المارستانات . فرثيت لهم ، وأويتِ لمصابهم . فاعلمى أننى أشقى من هؤلاء جميعاً ، وأننى أولى منهم برحمتك وإشفاقك ، وعطفك وحنانك .

لم تبقَ فىّ بقية تحتمل أكثر مما احتملت ، ورمما لا أستطيع أن أكتب إليك غير هذا الكتاب فقد بلغ بى الضعف منتهاه ، وأظلم بصرى فما أكاد أبصر شيئاً ، فالوداع ياماجدولين ووداع الحياة إن كان لايزال

فى الأجل بقية ، أو وداع الموت إن كانت الأخرى .

« انتهت الرسائل »

٦٧

من ماجدولين إلى استيفن

لا أكتمك يا سيدى أنى بكيت كثيراً عند قراءة رسائلك ولكننى عدت إلى نفسى وقلت إنها زفرة من زفرات اليأس ستطفئها الأيام كما أطفأت غيرها من زفرات البائسين ، وربما علمتَ بعد قليل من الأيام أن الله قد خار لك فيما كان ، وأنه قد أعدّ لك من حيث لاتحتسب حياة أسعد وأهنأ من هذه الحياة التى تندبها وتبكيها .

أنت تعلم يا استيفن أنى فتاة فقيرة وأنك فتى لامال لك أو لاتملك من المال ما يقوم بشأنك زوجا ووالداً ، فخير لى ولك أن نفترق وأن يسلك كل منا فى حياته الطريق التى يعلم أنها تنتهى به إلى سعادة عيشه وهنائه أحببنا ذلك أم كرهنا ، فتناسى كل شىء ياصديقى ، وسافر إلى كوبلانس واستصلح عليك أباك وأهلك ، وتزوج من الفتاة التى اختاروها لك ، وحسبك منى أن أكون صديقتك الوفية لك ماحييت ، ولاتحمل فى نفسك ضغينة لصديقك إدوار فقد علم الله أنه ليس له يد فى شىء مما كان وإنما هو رأى رأيته لنفسى ، ولم أستشر فيه إلا عقلى وضميرى ؛ فأنا

صاحبته والمأخوذة به إن كنت لابد آخذاً به أحداً ، والسلام عليك من صديقتك التى ترجو عفوك غفرانك .

٦٨

من استيفن إلى ماجدولين

قد نسيت كل شيء ياماجدولين ، فاختارى لنفسك فى حياتك ماشئت وهاهى ذى رسائلك عائدة إليك فليس من الرأى بقاؤها عندى بعد اليوم وإنى أتقبل صداقتك بالصدر الرحب الذى تقبلت به حبك من قبل ، أما النقمة فإنى لا أنقم عليك ولا على خطيبك شيئاً ، بل أسأل الله لكما السعادة فى حاضركما ومستقبلكما .

٦٩

الزفاف

ازدحمت الكنيسة بسكان قرية ولفاخ رجالا ونساء وظلوا جميعاً ينظرون إلى الباب بشوق وتلهف ينتظرون حضور العروسين ، ثم مالبثوا أن سمعوا صوت العجلات وهى مقبلة فنهضوا جميعا على أقدامهم واصطفوا صفوفا متتالية لاستقبال القادمين ، ثم دخل إدوار آخذاً بيد ماجدولين وهى لابسة ثوبا أبيض ناصعا كأنما قد قدمن جرم الزهرة وعلى رأسها إكليل من الزهر يتلألأ فى شعرها الذهبي الجميل ، ودخل وراءهما الشيخ

مولر وسوزان وأبوها وزوجها واشميد ابن عمة ماجدولين وألبرت ابن عم سوزان وكثير من أهله وأهلها فرأى الناس أجمل فتاة رأوها فى حياتهم فدعوا لها ولزوجها بالسعادة والهناء وملأوا أرجاء المعبد هتافا بهما وثناء عليهما ، ثم مشيا إلى المذبح وركعا بين يدى القسيس على وسادتين من القطيفة المزركشة فركع الناس بركوعهما ، وركع استيفن معهم ، وكان قد جاء إلى المعبد قبل حضور الناس واختبأ وراء سارية من سواريه فلم يشعر به أحد ، وظل يقول فى ركوعه بصوت ضعيف خافت لا يحسه أحد « اللهم احرسها بعين عنايتك ، وأسبل عليها ستر حمايتك ، وأمنحها السعادة والهناء فى نفسها وفى عيشها ، واكتب لها فى صحيفة حياتها ما كنت أسألك أن تكتب لى فى صحيفة حياتى » .

ثم بدأ القسيس يتلو صلاته وجاءت الساعة التى ينطق فيها بكلمته الأخيرة التى لا مرد لها ولا رجعة فيها . فشعر استيفن أن قلبه يخفق خفقاناً شديداً ويضرب ضرباً يعلو صوته على أصوات النواقيس فأمسك بكفيه على أحشائه وأغمض عينيه وقبع فى أعماق نفسه واستلهم الله الصبر على نكبته ، ثم غشيته غاشية لم يشعر بما كان فيها حتى استفاق بعد ساعة فإذا الكنيسة خالية مقفرة تعتلج الظلمة فى أرجائها وتضرب رياح الليل الباردة فى نوافذها وكواها ، فزفر زفرة حرى كادت تتساقط لها أضلاعه وجعل يقول فى نفسه : لقد قضى الأمر ، وخرجت ماجدولين من يدى ، وأصبحت كفّى صفراً من جميع أمانىّ وآمالى ، فما العمل ؟ وكيف أعيش ؟ وأين أقضى بقية أيام حياتى ؟ وأية غاية بقيت لى فى هذا العالم

أحيانا من أجلها ، ثم خرج هائما على وجهه لايعلم أى فجّ يسلك من فجاج الأرض ، والأرض أضيق فى عينيه من كفة الخابل ، فإذا هو أمام بيت الشيخ مولر فرأى المدعوين منصرفين من الحفلة زمراً زمراً فسدك بركن مظلم من أركان السور حتى انقطع خفق الأقدام ، وعلم أن المكان قد خلا بأهله ، فرمى البيت بنظرة شزراء ملتهبة لو اتصلت شرارة من شررها بسقف من سقوفه أو كوةٍ من كواه لأتت عليه فى لحظة واحدة ، ثم مالبث أن رأى النور قد انطفأ فى جميع الغرف والقيعان إلا غرفة واحدة ، فعلم أنها غرفة العرس ، فلم يتمالك أن ثار من مكمنه ثورة الأسد المهتاج وأخذ يدور حول السور ذهابا وجيئة وهو لايعلم لِمَ يدور ، وأين ينتهى ؟ حتى وقع نظره على ثغرة مفتوحة فيه فوقف أمامها لحظة ، ثم حدثته نفسه باقتحامها ، فرأى حجراً ضخما معترضاً فى فوتها ، فما زال به حتى زحزحه عن مكانه ، ثم انحدر إلى الحديقة غير خائف ولا وجل ولامبال ما أقدم عليه ، وأخذ سَمْته إلى سلم الدار حتى بلغه فصعده يختلس الخطى اختلاسا حتى وصل إلى باب الغرفة المضيئة فوقف به وأحس أصواتا من ورائه ، فشعر برعدة تتمشى فى جميع أعضائه : وخيل إليه أن قلبه ينحدر فى هوّة عميقة لاقرار لها وأخذ يقول فى نفسه : إنها الآن له وبين يديه لايحول دونهما حائل ؛ وكأنى به وهو يضمها الآن إلى صدره ويلصق فمه بفمها ، ويوسعها لثما وتقبيلا ، فتعطيه من نفسها مايعطيها من نفسه ، ثم نظر من ثقب الباب فلم ير شيئا أمامه فوضع أذنه عليه وأصغى إلى حديثهما فرنّت فى مسمعه أصوات الضحكات والقبلات ، وسمعها تقول له فيما

تناجيه به « أنت حياتى التى لاحياة لى بدونها » فجُن جنونه وحدّثته نفسه أن يضرب الباب بقدمه ضربة هائلة تطير به ثم يقتحمه عليهما فيقتلهما ويخضب سرير العرس بدمهما ، ثم يقتلُ نفسه على أثرهما ، واستنصر قوته على ذلك فخذلته ، فوقف بين الإقدام والإحجام يغلى دمه فى عروقه غليان الماء فى مرجله ، ويمزق صدره بأظافره تمزيقاً شديداً ، حتى امتلأ قميصه دماً ، وتناثرت أفلاذ جلده بين أصابعه ، وهو لايشعر بألم ، بل لا يعلم أنه يصنع من ذلك شيئاً ، حتى أعياه الجهد ، فزلّت به قدمه . فانقلب إلى أسفل السلم ، وهو بين الحياة والموت .

ولم يزل فى سقطته تلك حتى استيقظت الخادم جنفياف مبكرة قبل أن يستيقظ أحد من أهل البيت وضيفانه فرأته صريعاً فى مكانه ، فراعها أمره ، وأدهشها وجوده فى هذا المكان ، ثم رأت الدم العالق بثوبه وأظافره فظنته قتيلا فحاولت أن تصيح فخانها صوتها ، فأكبت عليه لتعلم ماشأنه فأحست رجع أنفاسه فهدأت قليلا وعلمت أنه فى غشية شديدة فأشفقت عليه وكانت تحبه وتكرمه ، ولم تزل تنضح جبينه بالماء وتمسح صدره حتى استفاق . فدار بعينيه حول نفسه فذكر ماكان ورأى جنفياف بين يديه ، فاحمر وجهه خجلا وسألها هل عرف شأنه أحد غيرها ؟ قالت لا ، فاعترف لها بمُجمل قصته ، وناشدها الله والمودّة أن تكتم عليه ماكان ، فوعدته بذلك فقام يتحامل على نفسه حتى خرج من المنزل ومشى فى طريق قريته .

٧٠

الهنديان

قالت جوزفين زوجُ فِرِتز للطبيب وكانت تتولى تمريض استيفن :
لقد أصبحت أخشى على الرجل أن يصيبه شر عظيم ، وأخوفُ ما أخاف عليه أن تنزل بعقله نازلة من نوازل الجنون ، فقد أصبح لا ينطق إلا باسم تلك المرأة ، ولا يفكر إلا فيها ، ولا يرى فى يقظته أو فى منامه غيرها ، فيتخيلها تارة مقبلة عليه فيبتسم لها ويتهلل ويفتح ذراعيه لاستقبالها ، وأخرى منصرفة عنه فيضرع إليها ويستعطفها ويهتف باسمها هتافا عاليا ويحاول النهوض من فراشه لإدراكها والتشبث بها ، فهو إما ضاحكٌ أو باكٍ أوهاتف أوضارع أومسترحم ، ولئن دامت له حالته هذه بضعة أيام أخرى ذهبت النكبة بعقله أوبحياته ، وما أحسب أن شيئا غير ظفره بتلك المرأة أو اتصاله بها يشفيه من دائه ، فقال الطبيب لقد خاطرت اليوم بآخر ما فى كنانتى من الأسهم ، فسافرت إلى قرية ولفاخ وقابلت ماجدولين على غير سابق معرفة لى بها ووصفت لها حالة المريض فى جنونه واستهتاره بها ، وقيامه وقعوده بأمرها ليله ونهاره ، وسألتها أن تزوره زورة واحدة عسى أن تنفعه وترفه عنه بعض مابه ؛ فأبى زوجها عليها ذلك إباء شديداً ، فلم أزل به أسترحمه وأستعطفه وأنشده الله والمروءة حتى أذعن بعد لأى ، واشترط أن يصحبها فى زيارتها فقبلت ذلك منه على مضض وقد تركتهما الآن يتهيآن للحضور على أثرى .

ثم مشى إلى المريض وجس نبضه وأمر يده على رأسه وقال : ياللعجب ! لقد فصدته ليلة أمس مرتين فى ساعة واحدة فما أجدى ذلك عليه شيئاً ، ثم جلس بجانبه ينضح جبينه بالماء ويجرعه بضع قطرات من الدواء .

وإنه لكذلك إذ قرع الباب قرعا خفيفا ففتح فدخلت ماجدولين ووراءها إدوار ، فلم يشعر استيفن بهما عند دخولها ثم فتح عينيه بعد قليل ونظر إلى جوزفين وقال لها : أين ثيابى التى أمرتك بإحضارها ؟ أما تعلمين أن اليوم يوم الأحد وهو موعد ذهابى إلى الكنيسة للاحتفال بعقد زواجى ؟ فأطرقت المرأة واجمة ، وأدارت ماجدولين وجهها لايرى أحد اصفرارها ، فتقدم نحوها الطبيب وسألها أن تدنو منه وتناديه باسمه لعله يعرفها ، فدنت من سريره ووقفت أمام وجهه ، فنظر إليها نظرة ذاهلة ثم أدار رأسه وأغمض عينيه ، فعلمت أنه لم يعرفها . فنادته باسمه بذلك الصوت الرخيم العذب الذى طالما سمعه من قبل فملك عليه مداركه ومشاعره ؛ فكأن موجة كهربائية اندفقت فى جسمه دفعة واحدة ، فانتفض من مكانه وفتح عينيه وتناهض متكئاً على إحدى يديه ، وظل يضرب بيديه على جبهته كأنما يستحيي فى ذهنه ذكرى قديمة طال عليها العهد ، ويدير رأسه يمنة ويسرة ويقلب نظره فى وجوه الجالسين حتى وقع على ماجدولين ، فأخذ يحدق فى وجهها تحديقا شديداً ، ثم ابتسم ومد يده نحوها وقال لها : شكراً لك ياماجدولين ، فقد جشمت نفسك مشقة المجيء إلىّ وقد كنت على وشك أن أذهب إليك الساعة لولا أن النوم طرقنى فغلبنى على أمرى ، فهلمى بنا الآن فقد حان الوقت ، وما أحسب إلا أن

أصدقاءنا ينتظروننا الآن فى الكنيسة ، وكأنى أراهم وقد جلسوا فى دهليزها صفوفا متتالية ينظرون إلى الباب بشوق وتلهف يترقبون حضورنا ، وأرى القسيس يعد لنا وسادتين من القطيفة المزركشة لنركع عليهما أمام المذبح ، وكأنى أشم رائحة البخور متصاعدة من المواقد ، وأسمع أصوات النواقيس تقرع قرعا متتابعا ، ثم صعد نظره فيها وصوبه وقال لها : ما أجملك ياماجدولين وما أجمل هذا الثوب الأبيض الذى ترتدينه ، إنك لا ينقصك الآن غير إكليل الزهر ؛ ثم مد يده إلى أزهار كانت بجانبه فأخذ يضفر منها إكليلا جميلا ويتأنق فى تنسيقه وتنظيمه ، ثم نظر إلى الطبيب وقد خُيل إليه أنه الشيخ مولر فقال له : ائذن لى يا أبتاه أن أضع هذا الإكليل على رأس ابنتك ، فنظر الطبيب إلى ماجدولين نظرة استعطاف يسألها فيها أن ترحمه وألا تنغص عليه هناءه الذى يتخيله ؛ فوضع استيفن الإكليل على رأسها وهى واجمة صفراء كأنما قد انتفضت من كفن وقال لها : أتذكرين ياماجدولين يوم وضعتُ على رأسك منذ عامين فى ساعة من ساعات أُنسنا ولهونا إكليلا مثل هذا الإكليل فتفاءلنا بذلك خيراً وقلنا ليس بكثير على الأيام أن يصبح جِدّا مالهونا به ؛ وحقيقة ماحسبناه خيالا ؟ فهاقد صدق اليوم فألنا ، وصحت آمالنا وأحلامنا فالحمد لله على ذلك ، وله الشكر على آلائه ونعمائه ، ثم نظر إلى جوزفين وقال لها : إنى أشعر بضيق فى صدرى لا أعلم له سببا فافتحى هذه النافذة لأستنشق هواء هذا الصباح الجميل : ففعلت فأخذ يقلب وجهه فى السماء ويقول : ها هى ذى الطبيعة تهدى إلينا فى يوم عُرسنا أجمل ذخائرها وأعلاقها ، هواءها

الجليل ، وشمسها الساطعة ، وسماءها الصافية الجميلة ، فشكراً لها على يدها عندنا ، وشكراً للدهر الذى أنالنى أمنيتى وأظفرنى بها بعد أن كنت على وشك اليأس منها ؛ ثم التفت فوضع نظره على إدوار فهش له وابتسم فى وجهه وقال له : شكراً لك ياصديقى ، ما أحسب إلا أنك الذى أشرت على ماجدولين بزيارتى فى منزلى ولولاك لحال بينها وبين ذلك الحياء الذى لايفارقها فى جميع آناء حياتها ، فامدد إلىَّ يدك ، وكن أوّل من يهنئنى بسعادتى من بين أصدقائى ، فأنت أكرمهم علىَّ جميعاً ، وآثرهم عندى ، أتذكر يا إدوار أيامَ كنا نعيش فى هذه الغرفة الصغيرة التى نحن فيها الآن عيشَ البؤس والشقاء ، وكنا نتساقى من الود كؤوساً مترعات تنسينا حلاوتها مرارة الحياة وآلامها ، وكنت لا أجلس إليك مجلساً إلا قصصت عليك فيه شأنى مع ماجدولين . وأبثثتك وجدى بها ، ورجائى فيها ، وقلت لك كلما رأيتك تنظر إلىَّ نظرات الهزء والسخرية إنها قد أقسمت لى يميناً مُحرِجة ألا يفرق بينى وبينها إلا الموت ، وإنها لن تخيس بعهدها أبداً ، وإن هذه السحابة السوداء التى تراها متلبدة فى سماء حياتى لاتستطيع أن تثبت طويلا على أشعة الحب الحارة المتدفقة ، والحُبّ إله قادر لا يُعجزه شأن فى هذا العالم ولا يثبت على قدرته شىء ؟ فها أنت ترى أنى لم أكن كاذباً فى تصوراتى وأحلامى ، وأن أمانىَّ وآمالى لم تكن كما كنت تظنها خيالات شاعر ، ولاهواجس مجنون .

ثم تناول يد ماجدولين وأهوَى بفمه إليها ليقبلها فلمع أمام عينيه شعاع خاطف من أشعّة الخاتم الماسىّ الذى يتألقُ فى أصبعها فاضطرب

وسرّ بخاطره سرورَ البرق منظرُ ذلك الخاتم بعينه يوم رآه فى يدها للمرة الأولى ، وهى واقفة بجانب إدوار فى حديقة منزلها فتراخت يدُه وامتقع لونه وانطفأ ذلك الشعاع الذى كان يلمع فى عينيه وارفض جبينه عرقا وأخذ صوابه يعود إليه شيئا فشيئا ، فظل يقول بصوت خافت مهدّج : لالا ، لا حق لى فى تقبيل يدها ، لأنها ليست لى ولا شأن لى عندها ، ثم تناول غطاءه فأسبله على رأسه وأخذ يبكى بكاء شديداً ، ويقول للطبيب : ليخرجوا عنى جميعا فلا شأن لهم عندى ولا شأن لى عندهم ، فاغرورقت عينُ ماجدولين بالدموع ومدّت يدها إليه كالضارعة وهمت بالركوع بجانب سريره فجذبها إدوار جذبا شديداً فتبعته متثاقلة ، خطوة والتفاتة ، وهى تقول بينها وبين نفسها « وارحمتاه لك أيها البائس المسكين »

وما انقضى النهار حتى ترك إدوار قرية ولفاخ ، وسافر بزوجته إلى كوبلانس .

٧١

اليأس

لبث استيفن فى سرير مرضه شهرين كاملين كابد فيهما من آلام النفس والجسم ماقُدر له أن يكابده ، ثم أبلّ قليلا فهجر فراشه وأخذ يهيم على وجهه ليله ونهاره ينام حيث يجد مضجعاً ، ليناً أو خشنا ، ويأكل حيث يجد لقمة ، بيضاء أو سوداء ، لا يستقر بمكان ، ولا يأوى إلى ظل ، ولا يتعهد جسمه أو ثوبه بما يصلح شأنهما ، واستبدّ به الحزنُ فدق

جسمُه ، وغارت عيناه ، واسترسل شعر رأسه ولحيته ، وأخذت نضرة وجهه شحوباً ، وحمرة خديه اصفراراً ، وأصبح آية السابلين ، وعبرة الغادين والرائحين .

وكان لايمرّ بكوخ صديقه فِرِنز إلا اتفاقا ، فإذا مرّ به خرج الرجل إليه وزوجه وأولاده وتعلقوا به وناشدوه اللهَ والمودّة أن يدخل معهم كوخهم ، فيدخل فلا يلبث إلا ساعة أو بعض ساعة حتى يدركه الملل فيثور ثورة الوحش المهتاج ويفرّ من بينهم راكضاً وقد عاد إلى شأنه الأول .

وكثيراً ما كان يمر فى تَطوافه بمنزله الصغير الذى بناه فى جوتنج وبنى فيه صروح آماله الذاهبة وأمانيه الضائعة فيصرفُ وجهه عنه ولا يطيق النظر إليه ، وربما انكفأ راجعاً حين يلمح أوّل شرفة من شرفاته حتى لايمرّ به ، ولايقع نظره عليه .

وكان إذا ركب رأسَ طريق مشى فيه قُدُما لايقف ولا يتريث ولا ينظر يمنة ولا يسرة حتى يعترضه نهر أو جدار أو يرى بين يديه مجتمعاً من الناس فيستفيقَ من ذهوله ويعودَ أدراجه .

ولقد استمرّ به المسير يوماً فى بعض غدواته حتى وصل فى منتصف النهار إلى كوبلانس فأخذ يهيم فى شوارعها وطرقاتها ، والناس ينظرون إليه وإلى منظره الغريب وشعوره المشعّثة الثائرة ونظراته الحائرة المتبدّدة ويعجبون لأمره .

وإنه لكذلك إذ مرت على القرب منه عجلة فسمع فيها ضحكا عالياً خيل إليه أنه يعرف نغمته فالتفت فإذا ماجدولين وإدوار فصعق فى مكانه

وتراجع إلى جدار كان وراءه فاستند إليه وهو يقول : « ما أسعدهما وأهنأ عيشهما ، إنهما يبنيان سعادتهما على أنقاض شقائى » ثم ذَهَل عن نفسه وظل فى ذهوله ساعة فلم يستفق حتى رأى حلقة من الناس محيطة به ورأى قوماً يتضاحكون ويتغامزون ويشيرون إليه إشارات الهزء والسخرية فرماهم بنظرة شزراء رجفت لها قلوبهم وخطا خطوة واسعة إلى الأمام فهالهم منظره وتفرّجوا له عن طريقه ، فسار فى سبيله لا يلوى على شىء مما وراءه حتى بلغ ضاحية المدينة فرأى نهراً جارياً على رأس مزرعة خضراء فجلس على ضفته يؤامر نفسه على الموت ويقول :

لقد كذب الذين قالوا إن الانتحار ضعف وجبن ، وما الضعف ولا الجبن إلا الرضا بحياة كلها آلام وأسقام فراراً من ساعةٍ شدة مهما كابد المرء فيها من الغُصص والأوجاع فهى ذاهبةٌ ولا رجعة لها بعد ذلك .

وهل يوجد فى باب الجهالات أقبح من جهالة الرجل الذى يُفضل حياةً يموت فيها فى اليوم مائة مرة على موتة سريعة عجْلى تريحه من هذه الميتات المتقطعة المتداولة ؟

إنى لا أدرى لم يضيقُ الرجل بثوبه فينزعه ، ويسمج فى نظره منزله فيهجره ، ويتبرم بصاحبه فيفارقه ، ويثقل على ظهره حمله فيلقى به ، فإذا ضاقت به حياته لا يخلعها ، ولا يحدث نفسه بالخلاص منها ، والحياةُ إذا بؤست كانت آلم للنفس وأثقل مؤونة عليها من ثوب ضيق ، أو حمل ثقيل .

إنا لأخاف الانتحار إلا لأنا نحب الحياة ، ولأنحبها على ماهى حافلة به

من الكوارث والمحن إلا لأننا جهلاء أغبياء ، نطمع فى غير مطمع ، ونرجو مالا يمكن أن يكون ، فمثلنا فى ذلك كمثل لاعب القمار ، يزداد طمعاً فى الربح كلما ازداد خسارة ، فلا يزال يخسر ، ولا يزال يطمع ، حتى تصفر يده من كل شىء .

إنا لم نأت إلى هذا العالم باختيارنا ، فلم لانخرج منه متى شئنا ؟ وإنا لم نكتب على أنفسنا عهداً بين يدى أحد أن نبقى فيه بقاء الدهر فلم يسعنى سعينا فى الخلاص منه خيانة وغدراً ، أو كفراناً بنعمة الله وإحسانه ؟

إنها هفوة هفاها شيشرون الرومانى فى ذلك العهد القديم حينما قال « إن كان لصاحب الراية فى الحرب حق فى إلقائها عن عاتقه كان للإنسان حق فى قتل نفسه » وجاراه المجتمع الإنسانى كله على هفوته هذه حتى اليوم دون أن يخطر على بال فرد من أفراده أن يقول له : إن لصاحب الراية الحق كل الحق فى إلقائها عن عاتقه إذا ثقل حملها عليه .

وأعجب من ذلك أنهم لايذكرون الانتحار إلا ذكروا اسم الله بجانبه وافتنوا فى تصوير غضبه ونقمته على المنتحرين ، والله أعدل وأرحم من أن يبتلىَ عبداً من عبيده ببلية لا تطيب له معها الحياة ، ثم يأبى عليه إلا أن يرتبط بجانبها مدى الدهر ، ولا يبتغى لنفسه طريقاً إلى الخلاص منها .

وكذلك صحت عزيمته على الانتحار ، وأخذ يفكر فى الصورة التى يفارق الحياة عليها ، فلم يزل يقلب وجوه الرأى فى ذلك حتى اهتدى إلى صورة أعجبه خيالها الشعرى ، وهى أن يكتب كتاباً إلى ماجدولين يبثها

فيه آلامه وأحزانه ويحدثها عن عزمه على الانتحار وعن المكان الذى سيلقى نفسه فيه من النهر ثم ينزع من أصبعه خاتمه الملسوج من شعرها ويضعه على فمه ويضع يده عليه ويقبله بلهفة شديدة ثم يلقى بنفسه فى الماء على هذه الحالة ، فإذا أتت ماجدولين وأخرجته من النهر ورأت هذه الصورة المحزنة التى مات عليها أثر فى نفسها إخلاصه ووفاؤه ، وأسفت على موته أسفاً عظيما ، وألمّ بنفسها الندم على فعلتها التى فعلتها معه ، فلا تزال تذكره طول حياتها وتندب مصرعه ومصيره حتى تلحق به .

وهنا رنّت فى أذنه تلك الضحكة العالية التى سمعها منها منذ ساعة وهى راكبة عجلتها مع زوجها ، فطار ذلك الخيال من رأسه واضمحلّ فى مسراه اضمحلال الأبخرة الذاهبة فى آفاق السماء ، وعادت له أناته ورويته وقال فى نفسه إن من كان مثلها فى خيانتها وغدرها ، وصلابة قلبها وجسوئه ، لا يبالى ما أقدم عليه من شؤونه ، فربما ورد عليها كتابى فأغفلته ثم سمعت بخبر موتى فتنفست تنفس الراحة والدعة واغتبطت بينها وبين نفسها بانقشاع تلك الغيمة السوداء التى كانت تغشى سماء حياتها . وأعجبها أنها قد أصبحت آمنة مدى الدهر أن يُذكرها مذكرٌ بخيانتها ، أو يتراءى لها فى مسلك من مسالكها شبح تلك الجناية التى اقترفتها .

ثم أنّ أنّة مؤلمة وقال « ويل لى من بائس مسكين ! لقد استحال علىّ كل شى حتى الموت » .

٧٣

السعادة

قال فِرتز لاستيفن وقد ركب معه فى زورقه ساعةَ الأصيل فسار بهما يشق عُباب الماء شقًّا : رفِّه عليك قليلا ياسيدى فذلك أمر قد فات واستبدَّ به من قُدِّر له ؛ وليس فى فائت حيلة ، ولا لما قضى الله مردّ ، ولو شئت أن أقول لك لقلت : إنه غير جميل بك فى فضلك وأدبك ، ووفور عقلك واكتماله ، وعزة نفسك وأنفتها أن تحبِس حياتك كلها على امرأة قد علمتَ ألا خير لك فيها . وأنها قد خانتك وخذلتك ، وبلغت بك فى الشقاء المبالغ التى لم يبلغها أحد . وطعنت قلبك تلك الطعنة النجلاء التى يَثلّ منها جريحها إلا بمعونة من رحمة الله وإحسانها ، وإنها — وأنت تشقى هذا الشقاء كله فى سبيلها — تقضى ساعات ليلها ونهارها بين ذراعى زوجها هانئة مغتبطة ، غير حافلة بك ، ولا آسفة عليك ، ولا ذاكرة لك ذمة ولا عهدا ، فأين شرفك وإباؤك ؟ وأين عزة نفسك وأنفتها ؟ وأين ترفعُك الذى أعرفه لك ويعرفه لك الناس جميعاً عن مواطن المهانة والضعة ؟ الحق أقول إنى لا أعرف سهماً أخيب من سهمك ، ولا رأياً أضعف من رأيك ، ولا حياة أضيع من حياتك .

لقد سلبتك هذه المرأة ياسيدى زهرة عمرك ، فحسبك ذلك واستبق لنفسك ما بقى منه ، وتمتع فيه بما أعد الله لك فى هذه الحياة من لذائذ ومُتع لا تَنفد ولا تبلى ، واطلب السعادة إن أردتها بين أحضان الطبيعة وأعطافها ،

وفى كل ما يحمل بساط الأرض وتظلل قبة السماء، فالطبيعة أم حنون تضم بين ذراعيها أولادها البؤساء المحزونين فتمسح همومهم عن صدورهم، ودموعهم عن مآقيهم، وتملأ قلوبهم غبطة وهناء.

اطلب السعادة فى الحقول والغابات، والسهول والجبال، والأغراس والأشجار، والأوراق، والأثمار، والبحيرات والأنهار، وفى منظر الشمس طالعة وغاربة، والسحب مجتمعة ومتفرقه، والطير غادية ورائحة، والنجوم ثابتة وسارية، واطلبها فى تعهد حديقتك، وتخطيط جداولها، وغرس أغراسها، وتشذيب أشجارها، وتنسيق أزهارها، وفى وقوفك على ضفاف الأنهار، وصعودك إلى قمم الجبال، وانحدارك إلى بطون الأودية والوهاد وفى إصغائك فى سكون الليل وهدوئه إلى خرير المياه، وصفير الرياح، وحفيف الأوراق، وصرير الجنادب، ونقيق الضفادع: واطلبها فى مودة الإخوان وصداقة الأصدقاء، وإسداء المعروف وتفريج كربة المكروب، والأخذ بيد البائس المنكوب، ففى كل منظر من هذه المناظر، أو موقف من هذه المواقف، جمالٌ شريف طاهر يستوقف النظر، ويستلهى الفكر ويستغرق الشعور، ويحيي ميت النفس والوجدان، ويملأ فضاء الحياة هناء ورغداً.

إنكم تأبون يا أهل المدن إلا أن تشتروا سعادة الحياه بدمائكم وأرواحكم، والسعادةُ حاضرة بين أيديكم لا ثمن لها ولا قيمة، ولكنكم تجهلونها وتعرضون عنها وتظنون ألا وجود لها إلا فى أحضان النساء، وبين أستارهن وأرائكهن، فتبذلون فى سبيلها من دموعكم وآلامكم،

مالا قبل لكم باحتماله ، فلا تلبثون أن تذبل حياتكم ، وتضوى أجسامكم ، وتنطفىء جذوة نفوسكم قبل أوانها ، فتموتوا أضيع ميتة وأخسرها ، لا أملا أفدتم ، ولا حياة حفظتم .

إنما يشقى فى هذا العالم أحد ثلاثة : حاسد يتألم لمنظر النعم التى يسبغها الله على عباده ، ونعم الله لا تنفد ولا تفنى ، وطماع لا يستريح إلى غاية من الغايات حتى تبعث نفسه وراء غاية غيرها فلا تفنى مطامعه ، ولا تنتهى متاعبه ، ومقترف جريمة من جرائم العرض والشرف لا يفارقه خيالها حيثما حلّ وأينما سار ، وما أنت ياسيدى بواحد من هؤلاء ؛ فمن أى باب من الأبواب يتسرَّبُ الشقاء إلى قلبك ؟

أنت شاعر يامولاىَ ، وقلب الشاعر مرآة تتراءى فيها صورُ الكائنات صغيرها وكبيرها ، دقيقها وجليلها ، فإن أعوزتك السعادة ففتش عنها فى أعماق قلبك ، فقلبك الصورة الصغرى للعالم الأكبر وما فيه .

السماء جميلة ، والشاعر هو الذى يستطيع أن يدرك سر جمالها ، ويخترق بنظراته أديمها الأزرق الصافى فيرى فى ذلك العالم العلوى النائى مالا تراه عين ، ولا يمتد إليه نظر .

والبحر عظيم ، والشاعر هو الذى يشعر بعظمته وجلاله ، ويرى فى صفحته الرجراجة المترجّحة صور الأمم التى طواها ، والمدن التى محاها ، والدول التى أبادها ، وهو باق على صورته لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يَبلى على العصور والأيام .

والليل موحش ، والشاعر هو الذي يسمع فى سكونه وهدوئه أنين

الباكين ، وزفرات المتألمين ، وأصوات الدعاء المتصاعدة إلى آفاق السماء ويرى صور الأحلام الطائفة بمضاجع النائمين ، وخيالات السعادة والشقاء الهائمة فى رؤوس المجدودين والمحدودين (١)

الشاعر يرى الجمال فى كل شيء يتناوله سمعه وبصره حتى فى الزهرة الذابلة ، والنبتة الحائلة ، والنحلة الطائرة ، والفَراشة الحائمة ، وفى مدارج النمال ، وأفاحيص القطا ، والنوى المتهدم ، والجدث البالى ، والشبح المخيف والخيال الرائع ، وفى الضفدعة الملقاة على شاطئ البحر ، والدودة الممتدة فى باطن الصخر ، فهو من خياله الواسع فى نعمة دائمة لا تنفد ولا تبلى .

أنت كالطائر السجين فى قفصه ، فمزق عن نفسك هذا السجن الذى يحيط بك ، وطر بجناحيك فى أجواء هذا العالم المنبسط الفسيح ، وتنقل ماشئت فى جنباته وأكنافه ، واهتف بأغاريدك الجميلة فوق قمم جباله ، ورؤوس أشجاره ، وضفاف أنهاره ، فأنت لم تخلق للسجن والقيد ، بل للهتاف وللتغريد .

فأطرق استيفن ساعة ، ذهبت بها نفسه كل مذهب ، ثم رفع رأسه وقال : إنى أحاول ذلك يافِرتز منذ أيام طوال فلا أستطيعه ، ولوكان لى فيما قضى الله حيلة لسحقت قلبى بقدمى سحقاً ، ثم أسلمت ذراته إلى الرياح الأربع تذهب بها حيث شاء . ولكن لاسبيل لى إلى ذلك ، وإنما هو بلاء قد بليت به لحين قد أُريد لى ، على أنى أُعاهدك منذ الساعة عهداً لا أخيس به ألا ترانى بعد اليوم ذاكراً لها ، ولا باكيا عليها ، أما مايضمره القلب من ثكل

(١) المجدود : صاحب الجد أي الحظ ، والمحدود : المحروم .

ولوعة فأسأل الله أن يعينى عليه. فقال فِرتز: ذلك كل ما أريده منك، والله يتولى شأنك، ويعينك على بقية أمرك.

٧٣

الهدوء

الحب قطرة غيث صافية تنزل بالتربة الطيبة فتثمر الرحمة والشفقة والبر والمعروف، وبالتربة الخبيثة فتثمر الحقد والغضب والشر والانتقام وكان استيفن طيب القلب، طاهر السريرة، فاستحالت تلك الآلام التى كانت تعتلج فى نفسه إلى وجدان طاهر شريف، يشعر ببؤس البائسين فيرثى لهم، وفجيعة المتفجعين فيبكى عليهم، ولقد وفى بعهده الذى عاهد عليه صديقه فِرتز فأمسك عن ذكر ماجدولين والتفكير فيها، وأخذ نفسه بنسيانها ونسيان ماضيها معه، فاستقام له بعض الذى أراد، وتراجعت آلام نفسه وأحزانها إلى زاوية منفردة من زوايا قلبه فكمنت فيها فلم يعد يشعر بها إلا فى الفينة بعد الفينة، ولا يذكرها إلا كما يذكر المستيقظ حلماً ضئيلا من أحلامه المزعجة ساعة أو بعض ساعة ثم يمضى لسبيله.

وكان أكبر ما أعانه على هدوئه وسكونه أنه أخذ نفسه بعمل الخير والمعروف فوجد فيه لذة تفوق لذة تلك الآمال والأحلام، فولع به ولعاً شديداً، وأصبح لا يسمع بمنكوب قريب منه أو ناء عنه إلا ذهب إليه وأعانه على نكبته جهد استطاعته، ولا يطرق عليه بابَه فى دجى الليل

أو ضحوة النهار طارق لحاجة من الحاجات إلا أخذ بيده فيها واحتملها فى نفسه أو فى ماله ، واتخذ أسرة صديقه فِرِنز أسرة له ، فعالها وواساها وخلط نفسه بها ، وأصبح أخاً لكبيرها ، ووالداً لصغيرها ، ووجد فى نفسه من الأنس بها والاغتباط بعشرتها ما كان يتمنى لنفسه طول حياته أن يكون له بين زوجته وأولاده ، وعاد إلى فنه القديم ، فن الموسيقى ، وكانت قد شغلته عنه تلك الشئون الماضية ، فتعهده فى نفسه واستحياه واستجد جميع آلاته وأدواته ، فكان إذا جَن الليل وخلا بنفسه قام إلى قيثارته فلعب بأوتارها أو جلس إلى البيانو فوقع عليه بعض الألحان القديمة أو الحديثة توقيعاً يجيد فيه إجادة لا عهد له بمثلها من قبل ، فقد صقلت تلك الآلام الماضية التى كابدها فى حياته صفحة نفسه وأنارتها ؛ وملأتها شعوراً ووجداناً وسمت بها إلى سماءٍ فوق سمائها الأولى ، فتجلت بجلالها ورونقها فى نبرات صوته حين يتنغم ، وحركات أنامله حين يوقع ، وما هى إلا أيام قلائل حتى ارتقى به الأمر إلى منزلة الابتكار ، فوضع ألحاناً جديدة محزنة كانت تتفجر من ذلك القلب المصدوع تفجر المياه الصافية من صدوع الأحجار ، فتنساب فى أفئدة البائسين والمحزونين ؛ وتغلغل فى أعماق قلوبهم حتى تبلغ سويداءها .

وما كان استيفن عالماً من علماء الموسيقى ، ولا حافظاً من كبار حفاظها ؛ ولا كان نصيبه من الإلمام بقواعدها وأصولها أكثر من نصيب زملائه ولِداته ، ولكنه كان ذا قلب ، والقلب هو الينبوع الثجّاج الذى يتفجر منه الشعر والموسيقى وسائر الفنون الأدبية ، وليس أشعر الشعراء

أحفظهم لقواعد اللغة وقوانينها ، بل أدقهم شعوراً ، وألطفهم حسا ، وليس أفضل المغنين أعلمهم بفنون النغم ، وضروب الإيقاع ، بل أنطقهم قلباً وأفصحهم فؤاداً ، وما ملك نوابغُ الممثلين أفئدةَ الناس وقلوبهم فى مواقف تمثيلهم ، ولا استدروا دموع الباكين من محاجرها ، إلا لأن لهم قلوبا حزينة متفجعة تتأثر بصور الوقائع التى يمثلونها ؛ فإذا بكوا صدقوا فى بكائهم ، وإذا تفجّعوا تفجعوا بقلوبهم ، ولا يفهم لغة القلب غير القلب ولا يشعر بسر النفس غير النفس ؛ ورب أنة بسيطة ساذجة يسمعها السامع فى جوف الليل من ثاكل منكوب تأخذ من نفسه مالا تأخذ قطعة شعرية بليغة مملوءة بغرائب المعانى وبدائع التصورات ، ينظمها شاعر غير باك ، ويغنيها مغنّ غير محزون ، وما قواعد الشعر والموسيقى والرسم والتصوير إلا حدود يتّقى بها المقلدون المحتذون الوقوعَ فى الخطإ الفنىّ ، أما الملهمون فما أغناهم برقة وجدانهم ، ولطف حسهم ، وصفاء نفوسهم ، وسلامة طباعهم ؛ عن التمثّل والاحتذاء .

٧٤

من ماجدولين إلى سوزان

كنت أرجو أن تطول عشرتنا فى كوبلانس أكثر مما طالت ، وألا يفرق بينى وبينك إلا الموت ، ولكن هكذا أراد زوجك أن يطوىَ بك هذه المرحلة البعيدة ، وأن يحرمنى أعز صديقة كنت لا أجد لذة العيش

إلا بجوارها ، ولا أستطيب طعم الحياة إلا معها ، ولعلك هانئة فى موطنك الجديد كما كنت هانئة فى كوبلانس .

أنا سعيدة والحمد لله ، لا أشكو شيئاً غير فراقك ، وحرمانى رؤيتك : وإدوار لايزال يحبنى وينزل عند رغباتى ، ويتفقد جميع مرافق وحاجاتى فله الشكر على ذلك .

لا أكتمك ياسوزان أنى كنت أشعر فى نفسى ببعض الحزن على ذلك الفتى المسكين الذى لقى فى سبيلى ذلك الشقاء العظيم الذى تعلمينه ، ولقد سررت اليوم سروراً عظيما حينما علمت من أخباره أنه قد نسى ذلك الماضى جميعه ، خيره وشره ؛ وأنه قد عاد إلى رشده وصوابه ، ونزع عن تلك التصورات الغريبة والخيالات السوداء التى كانت تخالط عقله ، وتذهب براحته وسكونه ، وأصبح يأنس بالناس ويشعر بلذة المخالطة والاجتماع ، ويعيش فى بيته الذى بناه فى جوتنج عيشاً هادئاً ساكناً لايمازجه حزن ولا كدر ؛ بل سمعت عنه ماهو أكثر من ذلك ؛ وهو أنه يشتغل بفن الموسيقى اشتغالا يستغرق جميع مشاعره وعواطفه ، وأنه قد برع فيه براعة غريبة لا يبلغ مبلغه فيها إلا القليل من الناس ؛ ويقول الذين حدثونى حديثه إن شأنه فى ذلك الفن سيكون شأناً عظيما ، وربما بلغ فيه بعد قليل من الأعوام مبلغ النابهين من نوابغه وأفذاذه ، فحمدت الله على ذلك حمدا كثيرا ، لأنى كنت أشعر فى أعماق نفسى بالحزن عليه والرثاء له ، بل بالنقمة على الدهر من أجله ، وكان يُخيل إلىّ أنه لومات فى سبيله هذه لتنغّص علىّ عيشى ، ولقضيت بقية أيام حياتى محزونة النفس ، موحشة

القلب حتى يوافيني أجلى .

اكتبي إلىّ كثيرا ياسوزان ، وحدثيني عن كل ما يحيط بك من الأشياء ، فذلك ما يعزيني عن فراقك بعض العزاء .

٧٥

من ماجدولين إلى سوزان

أنعى إليك مع الأسف والدى فقد مات رحمة الله عليه بعد مرض لازمه خمسة أشهر ، وكنت قائمة بتمريضه كل هذه المدة فى ولفاخ حتى مضى لرحمة ربه ، ولم أعد إلى كوبلانس إلا منذ أيام قلائل ، وهذا ما حال بينى وبين الرد على كتبك التى أرسلتها إلىّ ، فسامحينى فى تقصيرى وابكى معى ذلك الأب البرّ الرحيم الذى أحبنى فى حياته فوق ما يحب الآباء أبناءهم ومات وهو لا يأسف على فقد شىء فى الدنيا سواى ، ولقد كنت أسمع قبل اليوم أن الفتاة الثاكل لا تبكى أباها وهى متزوجة ، كما تبكيه وهى عذراء ، فأرتاب فى ذلك ارتياباً كثيراً ، حتى مات أبى فبكيته بكاء لا تبكيه متزوجة ولا عذراء ، فرحمة الله عليه وعلى أيامه النزر الحسان ، وعلى نفسه الطيبة الطاهرة .

ولقد عزانى عن فقده بعض العزاء أن كثيراً من صواحبى وأصحاب زوجى كتبوا إلىّ كتب تعزية رقيقة حملت عن نفسى بعض همومها وأشجانها ، والذى عجبت له كل العجب وملأ نفسى دهشة وحيرة أنى وجدت بين تلك الكتب كتاباً من استيفن أرسله إلىّ من جوتنج يعزينى فيه أجمل

تعزية وأرقها ، ويتفجع فيه على الميت تفجعاً عظيما ، ويخاطبنى بتلك اللهجة التى لا يخاطب بها المرء إلا أكرم أصدقائه عليه ، وآثرهم عنده ، فعجبت لأمره كثيراً وقلت فى نفسى إن كان الرجل لا يزال يضمر لى فى قلبه حتى اليوم بقية من ذلك الإجلال القديم بعد الذى كان بينى وبينه ، فهو أكرم الناس خلقاً وأشرفهم نفساً ، وأعلاهم همة : على أن الذى سرنى فى عمله هذا أكثر من كل شىء أنه قد غفر لذلك الشيخ المسكين تلك الإساءة التى كان يظن أنه أسلفها إليه ، فمضى لربه طاهر النفس ، نقىّ الصحيفة ، لا يحمل تبعة ، ولا يجر وراءه إثماً .

ألا تعجبين معى يا سوزان لهذا الإنسان الغريب الذى كنا نتهمه بالأمس فى عقله ، وننزل به إلى مرتبة المخالطين المعرورين الذين لا يصلحون لشأن من شؤون الحياة كيف استحالت حاله ، وهدأت ثورة نفسه ، وأصبح رجلا كريماً مهذبا عاملا مستقيما طيب السريرة والنفس ، لا يحقد ولا يضطغن ، ولا يأبى أن يغفر الذنب الذى لا يغفره أحد . ويلسى الإساءة التى لا ينساها إنسان ! ؟ أهديك يا سوزان تحيتى ، وبلغى فردريك تحيتى وتحية إدوار .

٧٦

من ماجدولين إلى سوزان

لم تكتبى إلىّ يا سوزان منذ ثلاثة أشهر إلا كتابا واحداً لا يزيد على خمسة أسطر وهو قليل لا يقنعنى منك ، فإن لم تكتبى إلىّ لتعزيتى وتسرية

هموم نفسى فاكتبى إلىّ لأعلم أنك سعيدة هانئة فى موطنك الجديد .

أشمر ياسوزان مذ مات أبى أننى ضيقة الصدر خائرة النفس ، ولا أدرى ما الذى طرأ على إدوار ، فقد تغير لى بعض التغير عما كان عليه ، وأصبح لاينظر إلىّ بالعين التى كان ينظر بها إلىّ من قبل ، ولا أُريد أن أقول إنه أبغضنى أو تبرم بى أو فتر عن خدمتى والقيام بشأنى ، بل أُريد أن أقول إننى أصبحت أرى فى عينيه قصراً عنى وازوراراً لاعهد لى بهما من قبل ، وصارت ابتسامته مزيجاً من المجاملة والحب ، وكانت خالصة للحب قبل ذلك ، وأصبحتْ تتخلل أحاديثنا فترات طويلة موحشة ما كانت تتخللها قبل اليوم ، وكنت لا أذهب معه فى الحديث مذهباً أستحسن فيه أمراً أو أستهجنه إلا ذهب معى فيه ، فأصبح يستهجن أكثر ما أستحسن ، ويستحسن أكثر ما أستهجن ، كأنما يتعمد مغايظتى ومحادتى ، وصار يأنس بالزائرين والوافدين ويطيل جلوسه معهم ، وقلما كان يأنس بهم أو يهش إلى لقائهم أو يستخفه شىء غير الجلوس معى والحديث إلىّ ، وكنت لا أبتسم إلى رجل من الرجال ابتسامة ودّ أو مجاملة أو أتبسّط معه فى حديث إلا وجم لذلك وجوماً يظهر فى عينيه وفلتات لسانه ؛ فأصبح لا يأبه لشىء من ذلك ولا يحفل به ، والغيرة دخان الحب ؛ فإذا انطفأت ناره انقطع دخانه .

لايحزنك من ذلك شىء ياسوزان ؛ فربما كنت واهمة أو متخيلة ؛ وربما كتبتُ إليك بعد قليل أننى سعيدة هانئة ؛ وأن هذا الوهم لا أثر له فى نفسى .

٧٧

من سوزان إلى ماجدولين

لاشك أنك واهمة يا ماجدولين ، فإن إدوار يحبك حبا شديداً ، ولا يؤثر على رضاك غرضاً من أغراض الحياة ومآربها ، وأرى لك أن لا تتغلغلى بنفسك هذا التغلغل كله فى بواطن الأشياء وأعماقها ، فعفو الحياة خير من مجهودها ، والسعادة كالزهرة لا تزال ناضرة ماقنع رائيها منها بمنظرها وأريجها ؛ فإذا جاوز ذلك إلى لمسها والعبث بها ذبلت وذوت وذهب جمالها ورواؤها وأهديك تحيتى وسلامى .

٧٨

من ماجدولين إلى سوزان

لقد وقع لى منذ أيام أمر غريب لا أجد لى بدّاً من الإفضاء به إليك دعيت أنا وإدوار منذ أيام قلائل إلى حفلة أُنس قال صاحبها حين دعانا إليها : إن الذى سيقوم بأدوار الغناء والتوقيع فيها صديق له من مهرة الموسيقيين وحذاقهم ، فسألناه عن اسمه فأبى إلا أن يباغتنا به مباغتة ، وقال إنه حديث عهد بذلك الفن وإن هذا أول عهده بالغناء فى المجامع العامة ، وظل يثنى عليه ثناء عظيما ويذهب فى تقريظه والإشادة به كل مذهب ، فلم يكن لى هم عند ما ذهبت إلى تلك الحفلة إلا رؤية الموسيقى الماهر واستماع أغانيه وألحانه ، فظللت شاخصة إلى كرسىّ البيانو أنتظر ذلك

الذى سيتقدم من بين الحاضرين فيجلس عليه حتى رأيت فتى نحيلا سامق الوجه تتراءى بين أعطافه مخايل العزة والشرف قد مشى إلى ذلك الكرسى حتى جلس عليه بلباقة وظرف، فتأملته فإذا هو « استيفن » وما كدت أعرفه فقد اختفى من وجهه ذلك الإنسان الأشعث الأغبر الخشن الأعضاء والملامح، وحل محله إنسان آخر ظريف متأنق هادىء الحركات حلو الشمائل يكاد يحسبه الناظر إليه للمرة الأولى جميلا، وما هو بجميل ولا مستملح، ولكنه جمال نفسه قد فاض على جسمه فكساه رونقه وبهاءه.

ثم بدأ التوقيعَ فأنشأت أنامله تلعب بأوتار البيانو، فكأنما كانت تلعب بأفئدتنا وقلوبنا، وأخذ يغنى فى أثناء توقيعه غناء مشجياً محزناً خيل إلينا ونحن نسمعه أننا قد انتقلنا من هذا العالم إلى عالم آخر من عوالم الأرواح، وأن ما نسمعه ليس صوتاً صاعدا من عالم الأرض بل هابطا من آفاق السماء حتى أتى على النغمة الأخيرة فلم يملك السامعون أنفسهم أن هرعوا إليه جميعاً وداروا به يهنئونه ويقرظونه ويرددون فى أحاديثهم أنهم ما سمعوا فى حياتهم توقيعاً أفضل من توقيعه ولا ألحاناً أبدع من ألحانه وهو يشكر لهم ثناءهم عليه واحتفاءهم به، ويبتسم لهم فيما بين ذلك ابتسامة هادئة غريبة، لا يعلم الناظر إليها أمتكلفة هى أم هى ابتسامته التى لا تنفرج عن غيرها شفتاه؟ وكيفما كان الأمر فقد خيل إلىّ أنى رأيت فيها معنى دقيقاً لا أحسب أن أحداً من الناس أدركه سواى، وهو أنها مصبوغة بصبغة رقيقة من الحزن العميق.

ولقد كادت تحدثنى نفسى لكثرة ما نالنى من الطرب وخالط قلبى من

الجذل والسرور أن أذهب إليه وأهنئه كما يفعل سائر الناس، فلم أستطع حتى أرى رأى إدوار، فلم ألبث أن رأيته يمشى إليه فتبعته حتى هنأه فهنأته مثله، وكنت أتوقع أن أرى على وجهه عند رؤيتنا حالة من حالات الغضب أو الارتباك، فلم أر إلا رجفة خفيفة مرت بشفته عند ما نظر إلينا ثم عاد إلى ابتسامه وتطلّقه، وأنشأ يحدثنا بسكون وهدوء كأنما هو يتمم حديثاً كان بيننا وبينه من قبل، فعلمت أن الرجل قد محا من سجل حياته تلك الاعوام التى شقى فيها، ومحا معها ذكرى علاقتنا ببؤسه وشقائه، وأصبح لايرى بين يديه إلا امرأة قد منحته فى عهد من عهود حياتها الماضية ودها وإخلاصها، وإلا رجلا قد صادقه وآخاه وقاسمه بؤسه وشقاءه فى أيام طفولته وصباه، ثم لا يزيد على ذلك شيئا، فلم ينقض الليل حتى ذهب ما كان بينه وبيننا من الوحشة والجفاء؛ وذهبنا معه فى الحديث مذاهب مختلفة، ووعده إدوار أن يزوره فى منزله فى عهد قريب، ثم افترقنا.

٧٩

من ماجدولين إلى سوزان

لا أزال ياسوزان ضيقة الصدر، كثيرة الهم، ولا يزال إدوار قريباً منى بعنايته واهتمامه، بعيداً عنى بقلبه وعواطفه، فقد ملأ فراغ قلبه بشؤون مختلفة لا أعرفها ولا آبه لشىء منها، ولم يترك فيه للحب إلا زاوية صغيرة محدودة لاتتسع ولا تنقبض، ولا تجد العواطف لنفسها فيها مجالا، فهو

يحبني حبا هادئاً فاتراً ربما لايزيد عن محبته لخيوله وعجلاته ، وقصوره وبساتينه ؛ وأحسب لو أنه أراد أن يزيد على ذلك شيئاً لما استطاع ، لأن نفسه ليست تلك النفس الشعرية المتلألئة التي تذهب في الحب كل مذهب ، وتطير في سمائه كل مطار ، ولأنه لايفهم من الحب أكثر من ذلك المعنى المادي البسيط الذي يفهمه الحيوان الأعجم ، بل لايدرك من شؤون الحياة جميعها غير مايقع تحت حواسه ومشاعره .

والآن أستطيع أن أعترف لك ياصديقتي بأنني ماشعرت في يوم من أيام حياتي معه على حبي إياه وإعجابي به بأن نفسي خالطت نفسه ، أو لامستها ، أو امتزجت بها ذلك الامتزاج الذي يُحيل النفسين المختلفتين إلى نفس واحدة ، بل كنت أرى دائما أنه وإن كان يحبني ويستهيم بي ويبذل لي من ذات نفسه وذات يده كل مايستطيع أن يبذله زوج لزوجته فهو عاجز عن أن يُشعل في قلبي نار ذلك الحب الشعري الجميل الذي لاتقنع المرأة من الرجل بدونه ، ولا تأنس منه بشيء سواه ؛ ونار الحب إن لم يتعهدها متعهدُها بالتأريث والتأجيج فترت وانفثأت واستحالت جمرتها إلى رماد ، والحب كالطائر لاحياة له إلا في الغدو والرواح ، والتغريد والتنقير ، فإذا طال سجنه في قفص القلب تضعضع وتهالك . وأحنى رأسه يائساً ، ثم قضى .

وأعظم ما أشكو من الهموم في حياتي معه أنني أصبحت أشعر منذ أيام طوال أنني أعيش في عزلة منقطعة عن العالم كله لا أنيس لي فيها ولا سمير ، فإذا مرّ بخاطري فكر من الأفكار ، أو اختلج في نفسي غرض من الأغراض ،

أو خفق قلبي خفقة سرور أو حزن أو ارتياح أو انقباض ، لا أستطيع أن أفضى إليه بشيء من ذلك مخافة ألا يفهمه أو يفهم منه غير ما أريد فيزدريه ويزدريني من أجله ، ويوسعني هزءاً وسخرية ، فلا أجد لي بدا من أن أتكتمه في نفسي ، وأطويه بين أضالعي .

ألا ترين بعد هذا ياسوزان أنني في أشد الحاجة إليك ؛ وإلى بقائك بجانبي ، لتأخذي بيدي في ظلمات حياتي وتحملي عني بعض همومي وأشجاني فهل يقدر لي الله أن أراك بين يديّ في عهد قريب ؟

١٠

الوحدة النفسية

لقد صدقت ماجدولين فيما قالت ، فقد ملها إدوار بعد عامين اثنين من زواجه منها وبرم بها وانتهى أمره معها بما ينتهي به كل زواج تعقده يد الشهوة ، ولقد ملّ منها أكثر من كل شيء تلك الوحشة التي كانت سائدة على نفسها ، وذلك السكون المخيم على عواطفها ومشاعرها ؛ وذهابها في تصوراتها وآرائها مذهب الخيال الشعري الذي لا يألفه ، ولا يأنس به ، ولا يلتئم مع طبيعة نفسه ومزاجها ، فلقد كانت نفسه نفساً مادية ضاحكة ونفسها نفساً روحية مكتئبة ، وقد تكلف كل منهما الخروج عن طبعه برهة من الزمان لغرض طارئ من أغراض الحياة ، فأخرجها عن طبعها ذلك اللألاء الساطع الذي بهر عينيها عند انتقالها من القرية إلى المدينة وتلك الضوضاء العظيمة التي أحاطت بأذنيها وحالت بينهما وبين سماع صوت قلبها

وأخرجه عن طبعه أنه أحبها وافتتن بها ، وكان لابد له من أن يقع من نفسها ، وينزل عند رغبتها ، فتجمّل لها فى أحاديثه ومنازعه ، وتصوراته وآرائه ، بما يتجمل به كل رجل لكل امرأة عند خطبتها ، حتى اتصلا بصلة الزواج فأخذا يتراجعان شيئا فشيئا إلى طبعهما وسجيتهما ، ويذهبان فى الحياة مذهبهما الذى فطرا عليه ، فتنافرا وتناكرا ؛ واستوحش كل منهما من صاحبه ، ولقد كان يكون إدوار خير الأزواج لو أنه تزوج امرأة مثل سوزان مادية النفس ، وكانت تكون ماجدولين أسعد الزوجات لو أنها تزوجت رجلا مثل استيفن شعرىّ الطبيعة ؛ وما خدعت سوزان ماجدولين فى تزيين هذا الزواج لها وإغرائها به ، ولا أرادت بها فى ذلك سوءاً ، لأنها لم ترَ لها إلا ما ترى مثله لنفسها ، ولا سلكت بها إلا الطريق التى سلكت مثلها فى حياتها .

والهفوة التى يهفوها الرجال والنساء جميعاً فى مسألة الزواج أنهم يتساهلون عن كل شىء من جمال أومال ، أو خلق أو ذكاء ، أو علم أوعقل أو عفة أو أدب ، ويُغفلون النظر فى ملاك هذه الأشياء جميعها وزمامها ، وهو الوحدة النفسية بين الزوجين ، فالنفس نفسان : مادية تقف عند مظاهر الحياة ومرائيها ، وروحية تتغلغل فى أعماقها وأطوائها ؛ وأصحاب النفس الأولى هم أولئك الجامدون المتبلدون الذين يدورون فى الحياة حول محور أنفسهم ، ولا يحفلون بشىء فيها إلا بما يتصل بمطامعهم أو بشهواتهم والذين إذا شغفوا بالجمال شغفوا به باعتبار علاقته بأجسامهم لا بنفوسهم وإذا أعجبوا بمنظر من المناظر أعجبوا به من حيث قيمته ومنفعته ؛ لا من

حيث بهائه ورونقه ، وإذا وقفوا أمام قصر باذخ جميل شغلهم النظر فى غلته وثمرته عن الشعور بجماله وعظمته ، وإذا أشرفوا على الطبيعة ضاقت صدورهم بمناظر غياضها ورياضها ، وآجامها وأحراشها ، واستوحشوا منها وحشة السائر فى فلاة جرداء ، أو الهائم فى مغارة جوفاء ، وإذا صادقوا الناس صادقوهم على المنفعة أو الشهوة ، أوعادوهم عادوهم فيهما ، يضحكون والعالم باك ، ويُعرسون والدنيا فى مأتم ، ولا يبالون أهلك الناس أم بقوا ما داموا باقين ، وسعدوا أم شقوا ، ما داموا سعداء مغتبطين ؟ وأصحاب النفس الثانية : هم أصحاب الملكات الشعرية الذين صفت قلوبهم ، فأصبحت كالمرائى المجلوّة فتتراءى فيها العالم بما فيه من خير وشر ، ففرحوا بخيره وحزنوا لشره ، ورقت أفئدتهم ، فشعروا بألم المتألمين ، فتألموا معهم وبكاء الباكين ، فبكوا عليهم ، وخفت أرواحهم ، فطاروا بأجنحتهم فى آفاق السماء ، وحلقوا فى أجوائها ، فأشرفوا على الطبيعة ، ورأوها فى جميع مظاهرها ومرائيها ، فوجدوا فى رؤيتها من اللذة والغبطة ما زاحم فى قلوبهم حبّ المال والشهوات ، فاعتدلوا فى مطامعهم ، وترفقوا فى مساعيهم ، وازدروا كل لذة فى الحياة غير لذة الحب ، وكل جمال غير جمال الخيال

ولا تلتئم النفس المادية بالنفس الروحية بحال من الأحوال ، ولا تأنس بها ، ولا تجد لذة العيش معها ؛ وليس الذى يفرّق بين الصاحبين أو الزوجين أو العشيرين تفاوت ما بينهما فى الذكاء أو العلم أو الخلق أو الجمال أو المال ؛ فكثيرا ما تصادق المختلفون فى هذه الصفات ، وتخادنوا وصفت كأس المودة بينهم ؛ وإنما الذى يفرق بينهما اختلاف شأن نفسيهما ،

وذهابُ كل منهما فى منازعه ومشاربه ورغباته وآماله وتصوراته وآرائه غيرَ مذهب صاحبه ، وأن يكون أحدهما ماديا ضاحكا للحياة سعيداً بضحكه ، والآخر روحيا باكياً عليها سعيداً ببكائه ؛ وهذا هو الذى كان بين إدوار وماجدولين .

ولم يكن الجمال وحده هو كل مزايا ماجدولين ، بل كان أقلها شأنا وأدناها قيمة ، ولكن إدوار لم يستطع أن يفهم شيئاً غيره أو يُعنى بأمر سواه ؛ فما هو إلا أن حصل فى يده واستنفد متعته به حتى بدأ الملل يدب فى نفسه دبيباً خفيا ، فلم تشعر به ماجدولين فى مبدإ الأمر ؛ ثم أخذت تحسه شيئاً فشيئا ، فذُعِرتْ وارتاعت ، وملأ الريب ما بين جوانحها ، وماهى إلا أيام قلائل حتى أخذت تنقشع عن عينيها تلك الغيابة السوداء التى كانت تظللها ، فاستطاعت أن تهبط إلى أعماق قلبها ، وتفتش فيه عن صورة الرجل الذى تعاشره وتزعم أنها تحبه ، فرأت صورة لا تعجبها ولا تروقها ، ولا تخالط نفسها ولا تمازجها ، وعادت إلى ماضيها معه ، فأخذت تقرأ صفحاته صفحة صفحة ، حتى أتت على آخرها ، فتبين لها أنها لم تكن تحبه ، أو أنها كانت تحب فيه شيئا غير نفسه ، وأن الصلة التى بينها وبينهُ إنما هى صلة الزوجة بالزوج ، لا صلة القلب بالقلب فعرفت أنها لم تحسن الاختيار لنفسها ، وأن شقاء طويلا ينتظرها فيما بقى لها من أيام حياتها .

من سوزان إلى ماجدولين

٨١

أراك تحدثينى فى كتبك كثيراً عن استيفن ، كأنك قد نسيت أنه أصبح رجلا غريبا عنك لا شأن لك به ، وأن ما كان بينكما قد انقضى وذهب لسبيله ، وأغرب من ذلك أنك تكتبين عنه بلهجة أفضل من اللهجة التى تكتبين بها عن زوجك ، وأخاف أن يكون لالتقائه بك فى تلك الحفلة التى قصصت علىّ قصتها صلة بهذا الألم الجديد الذى أصبحت تشعرين به اليوم ، فما عهدتك قبل الآن باكية ولا شاكية ، ولا ناقمة من زوجك شأنا من شؤونه ، ولا متبرمة بعشرته ، ولا ضيقة الصدر بأطواره وأخلاقه ، ولا طائرة فى سماء الخيال ليلك ونهارك تفتشين عن الحب الشعرى وتتلمسينه تلمس من لا يرى لنفسه غناء عنه ، ولا يعرف معنى للحياة بدونه ، فحذى حذرك من نفسك يا ماجدولين ، واعلمى أن ما كان يعد بالأمس هفوة من الهفوات الصغيرة يصبح اليوم جنونا مطبقا لا يماثله جنون ، ولا يوحشنك منى ما أقول لك ، فأنا لا أتهمك ولا أرتاب فيك ، وأنت أعلم بذلك ، ولكننى أخشى عليك أن يتلاقى فى مكان واحد من قلبك ذكرى ماضيك ، وهناء حاضرك ، فيصطرعا ، فينغص عليك أولهما ثانيهما ، فلا الماضى تدركين ، ولا بالحاضر تسعدين .

هذا ما أريد أن أقوله لك ، وهذا ما أطلب إليك أن تتعهديه من نفسك وتتولى حراسته من قلبك ، قبل أن يأتى يوم لا ينفعك فيه تعهدى ولا افتقاد

٨٣

من ماجدولين إلى سوزان

لا علاقة لاستيفن بهذا الهم الذى أشعر به ، وليس بينى وبينه أكثر مما يكون بين صديقين احتمل أحدهما فى سبيل الآخر فى عهد من عهوده الماضية أقصى ما يستطاع احتماله من المشقة والمؤونة ، فعرف له الآخر يده ، وشكرها له ، وجازاه وداً بود ، ومعروفا بمعروف .

أما هذا الذى تريدين أن تذهبى إليه فى كتابك فأقسم لك أنى لا أعرف له أثراً فى نفسى ، ولا أحسب أن له أثراً فى نفسه ، فقد رأيته فى تلك الليلة التى قصصت عليك قصتها ، ثم رأيته بعد ذلك مرتين ، فلم أر فى نظرات عينيه ، ولا فى ملامح وجهه ، ولا فى نغمة حديثه أثراً من ذلك الحب القديم الذى تعرفينه ، وكل ما يستطيع الناظر إليه أن يلمحه فى وجهه تلك المَسحة الرقيقة من الحزن التى تتراءى فى عينيه حين ينظر ، وفى ابتسامته حين يبتسم ، وما هو بحزين ولا مكتئب ، ولكنها صورة الألم القديم قد رسمها الماضى على وجهه ثم ذهب فبقيت هى من بعده دليلا عليه كما تبقى صورة الجرح بعد التئامه ، فاطمئنى ياسوزان ، وليكن رأيك فىّ اليوم رأيك بالأمس ، ولا يُقم هذا البعد الذى بينى وبينك حجابا بين نفسى ونفسك .

٨٣

قلب استيفن

نَبُه ذكرُ استيفن، وعظم شأنه، وأصبح نابغة من نوابغ الموسيقى، وانتشر له صيت بعيد فى جوتنج وما وليها من البلدان، ثم امتد صيته إلى كوبلانس، فزاره فى قريته كثير من المغنين والممثلين، واقترحوا عليه تلحين القطع التمثيلية، وأجزلوا له الأجر عليها، فلحنها أفضل تلحين وأبرعه ودرّت عليه أخلاف الرزق، وسال واديه بالذهب سيلا، وكان أبوه قد مات وورّثه تلك الصبابة من المال التى كانت فى يده، فكان إذا ذهب إلى كوبلانس ليقضى فيها ليلة أو ليلتين لبعض شؤونه الخاصة نزل فى بيته وزاره فيه أصدقاؤه وخلانه، والمعجبون بفضله، والمعترفون بصنائعه وأياديه.

ولقد وجد فى تلك الخطة التى انتهجها لنفسه فى حياته بعض العزاء كما لقى فى ماضيه، إلا أنه كثيرا ما كان يخلو بنفسه فى هدوء الليل وسكونه فتمر أمام نظره على الرغم منه جميعُ آلامه وهمومه الماضية فيذكر الليلة التى خرج فيها من كوبلانس شريدا طريدا لا يجد مواسياً ولا معيناً، والليلة التى ذهب فيها إلى عرس سوزان لرؤية ماجدولين فضربه أحد الزائرين على وجهه سوطا فأدماه، والليلة التى كابد فيها الأهوال العظام فى غرفة قريبه ليلة وفاته حتى أشرف على الجنون، والليلة التى قضاها طريحاً تحت سلم دار ماجدولين حتى الصباح وهى خالية بزوجها فى غرفة عرسها

تعانقه وتقبله وتقول له : « أنت حياتى التى لاحياة لى بدونها » ويتراءى له مرة شبح أخيه « أوجين » وهو ساقط فى حومة الوغى تحت سنابك الخيل تدوسه وتخوض فى أحشائه ، وأخرى منظر ماجدولين وهى جالسة مع إدوار على مقعد حديقتها تناجيه بالحب ويناجيها ، إلى مابقى من أيام بؤسه ، وليالى شقائه ، ثم تتمثل أمام عينيه روضة آماله وهى مورقة خضراء يتسلسل ماؤها ، ويترقرق هواؤها ، ثم يراها وقد عصفت بها ريح الحوادث فصوح نبتها ، وذبل زهرها ، واستحالت إلى قفرة جرداء لايترنح فيها غصن ، ولا يهتف بها طير ، فيخيّل إليه أنه يعيش وحده منقطعاً عن العالم كله وما فيه ، لأن ماجدولين ليست بجانبه ، وأن مايتمتع به من مجد ومال لا قيمة له عنده ، لأنها لاتقاسمه إياه ، وأن هذه الألحان التى يضعها والأصوات التى يغنيها إنما هى مأتم يقيمه بنفسه على نفسه وعلى آماله الذاهبة ، وأمانيه الضائعة ، فتمتلىء نفسه غما وحسرة فلا يجد له سبيلا سوى أن يتناول قيثارته فيضمها إلى صدره ويبثها هموم قلبه وآلام فؤاده ويبكى ما شاء الله أن يفعل حتى يجد بعض الراحة فى نفسه فيأوى إلى فراشه وينام نوما طويلا ثم يستيقظ بارئا مستفيقا .

ولم يزل هذا شأنه حتى التقى بماجدولين فى تلك الليلة التى قصت هى قصتها على سوزان فاغتبط بمرآها اغتباطا ممزوجا ببعض الألم لذكراها وذكرى ماضيه معها ، إلا أنه تجلد واستمسك وكاتم نفسه غصتها فلم تشعر بشىء مما دار فى نفسه حتى انصرفت .

وما هى إلا أيامٌ قلائل حتى زاره إدوار فى بيته كما وعده واعتذر

إليه عن فعلته التى فعلها معه فقبل عذره قبول من لا يرى من قبوله بُدًّا، بل زعم له حين جرى بينهما ذكر ذلك الماضى وشؤونه أن حبه لماجدولين لم يكن إلا خدعة من خدع النفس ونزعة طائشة من نزعات الشباب، وأنه قد أصبح الآن لا يشعر فى نفسه بأثر واحد من حبها، وكان إدوار قد بدأ يملّ ماجدولين ويأجُها فلم يحفل بأمرها، ولا يفكر فى ماضيها ولا حاضرها، وأصبح ولا همّ له إلا أن يجدد صداقته مع رجل قد أصبح من أصحاب الشأن العظيم والمظهر الفخم، والثروة الطائلة فصدّقه فى زعمه، وسكن إليه، وذهب فى مجاملته والتودد له كل مذهب، ثم رد له استيفن الزيارة فى بيته فى اليوم الثانى ورأى ماجدولين وحادثها وتبسط معها تبسُّط من لا يحفل بحاضرها، ولا يعنى بماضيها، ثم لم يزل يراها بعد ذلك فى منازل بعض أصدقائه، أو فى المحتفلات العامة، وحدها، أو مع إدوار فيحسن ملتقاها، ويؤثرها بعطفه ورعايته، إلا أنه كان يتجنب جهده أن يجلس معها مجلساً منفرداً، أو يتحدّث إليها حديثاً خاصا لأنه كان قد أخذ نفسه بنسيانها ونسيان ماضيها، فلا يجب أن يستثيره فى نفسه مستثيرٌ، ولأنه كان لا يزال يمسك فى نفسه بعض العتب عليها فى غدرتها التى غدرتها به فلا يحب أن ترى ذلك فى نغمة حديثه، أو لحظات عينيه، أنفة وكبرياء وذهاباً بنفسه مذهب من لا يبالى بمن لم تبال به، ولم ترع له ذماما ولا عهداً.

وجملة حاله معها أنه كان يجمع لها فى قلبه فى آن واحد بين عاطفتين مختلفتين، عاطفة الرضا، وعاطفة السخط، فهو يحبها فلا يستطيع مقاطعتها ويجد عليها فلا يريد أن تشعر بحبه إياها.

٨٤

قلب ماجدولين

ما زال الملل يأخذ من نفس إدوار حتى مل بيته واجتواه ، وأنشأ يطلب لنفسه السعادة خارجه بعد ما فقدها داخله ، فأخذ يتلهى بتلك الشؤون التى يعالج بها فقراء القلوب أمراض مللهم وسآمتهم ، فقامر ثم ضارب ثم ولع بالشراب ثم قضى بعض لياليه خارج منزله ، فاشتد ذلك على ماجدولين ، ونال منها منالا عظيما ، وساء ظنها بالحياة وما فيها ، فقبح فى نظرها كل مظهر من المظاهر المادية التى أحبتها هنيهة من الزمان واستهامت بها ، فعافت المراقص والمحافل ، وزهدت المظاهر والمفاخر ، وملت كل شىء حتى ثيابها وزينتها ، وأصبحت لا تفكر ليلها ونهارها إلا فى تلك الكلمة التى قالها لها استيفن فى بعض كتبه الماضية : « لا تصدقى يا ماجدولين أن فى الدنيا سعادة غير سعادة الحب ؛ فإن صدقت فويل لك منك فإنك قد حكمت على قلبك بالموت »

إلا أنها ردت نفسها مع الأيام على مكروهها ، واصطبرت للحالة التى طرأت عليها صبراً جميلا لا يتخلله تذمر ولا شكوى ، فقد علمتْ أن القدر قد جرى فى أمرها بما هو كائن ، وأنها قد أصبحت زوجة لرجل قد أقسمت له بين يدى الله يمين المحبة والولاء ، فلا بد لها من الوفاء له ، والإخلاص إليه ، واحتمال كل مكروه فى عشرته حتى يقضى الله فى أمرهما بقضائه .

وكان يعزيها عن شقائها بعض العزاء أنها كانت ترى استيفن من حين إلى حين ، وتحضر بعض مجالسه ومجتمعاته فتسمع فى حديثه ذلك الأسلوب الشعرى البديع ، وتلك التصورات السماوية العالية التى طالما سحرتها وملكت عليها قلبها وأهواءها ، وترى تلك الشهرة العظيمة التى تنتشر له شيئا فشيئا فى أقطار البلاد فتمتلئ نفسها إكبارا ، له وإعظاماً ، ولا يملك قلب المرأة من الرجل مثلُ الشهرة وامتداد الصيت ، وكان يداخلها شىء من الإعجاب بنفسها كلما ذكرت أنها قد نزلت فى عهد من عهود حياتها الماضية منزلة الحب من ذلك القلب الطاهر الشريف ، فتجد فى سعادة الماضى وذكراه بعض العزاء عن شقاء الحاضر .

إلا أن أمرا واحدا لم يخطر ببالها ، ولم يدخل فى أحاديثها ، وهو أن تعود إلى حبه بعد ما انفضت يدها منه ، أو أن تكون الصلة التى بينها وبينه صلة حب وغرام .

٨٥

من ماجدولين إلى سوزان

قد أطلعت منذ أيام قلائل على سر هائل ليتنى لم أطلع عليه ، وليتنى مت قبل أن أعرف منه حرفا واحدا .

قد أفلس إدوار وباع جميع ما يمتلك ولا تزال عليه بقية من الدين لا سبيل له إلى أدائها ، وهأنذا أعد عدتى لبيع جواهرى وحلاى علّنى أستطيع أن أستنقذ البيت الذى نسكنه ، ولا أدرى ما يكون شأننا بعد

ذلك ، ولقد فاتحته ليلة أمس فى هذا الشأن فراوغنى قليلا ثم اعترف لى بكل شىء وقال : إنه إنما أُتىَ من قِبل المقامرة أولا ، والمضاربة آخراً ، وأن طمعه فى الثروة واستهتاره فيها هو الذى أفقده إياها ، فعاتبتُه فى ذلك عتاباً لا أظن أننى أثقلت عليه فيه ، ولكن أتدرين ياسوزان ماذا قال لى ؟ قال إنه لم يخطئ فى حياته إلا فى أمر واحد ، هو أنه تزوج من زوجة فقيرة لاتستطيع أن تمد له يد المعونة فى ساعات شدته . ولقد صدق فيما قال ، فليس للرجل الغنىّ أن يتزوج إلا امرأة غنية تلائم نفسُه نفسها ، وليس للمرأة الفقيرة أن تتزوج إلا رجلا فقيراً يشابه عيشُه عيشها .

إننى لا أبكى ياسوزان على نفسى ؛ فقد قضيت أكثر أيام حياتى فقيرة معدمة لا أملك من متاع الدنيا شيئاً ، بل على ذلك الجنين المسكين الذى يختلج فى أحشائى والذى سألده غداً للفقر والمتربة ؛ والذل والشقاء .

لقد أصبحتُ لا أسأل الله إلا موتة عاجلة تذهب بى وبه ، وتريحنى وتريحه من شقاء الحياة وعنائها ، والويل لى وله إن عشت بعد اليوم ساعة واحدة .

٨٦

الغرفة الزرقاء

مرض إدوار على أثر تلك النكبة التى نزلت به مرضة شديدة كادت تتلف فيها نفسه ؛ ثم أبلّ بعض الإبلال فاقترح عليه استيفن — وكان قد لازمه مدة مرضه ، ومد إليه يد المعونة فى نكبته — أن يسافر معه

إلى جوتنج ليتفرج قليلا مما به ؛ ففعل وسافرت معهما ماجدولين حتى بلغت بهم العجلة ضاحية القرية ؛ فاستقبلهم فرنز وزوجته وأولاده على ضفة النهر فرحين مغتبطين ، وكانوا على موعد منهم ، فصافح استيفن فرنز وعانقه معانقة الصديق لصديقه ، وقبّل جبين جوزفين ، وضم الأولاد إليه وأنشأ يقبلهم ويدير لهم خديه فيقبلونه ويهتفون له ويقولون : لقد طال غيابك عنا فى هذه المرة يا سيدى حتى ظننا أنك قد آثرت الإقامة فى كوبلانس على الإقامة بيننا ، وقال له أكبرهم ، وكان فى الثالثة عشرة من عمره : هأنذا ألبس الرداء الجديد الذى أرسلته إلىّ فشكراً لك يا سيدى ، فسأله : هل أصبح يستطيع نشر شراع الزورق وحده بلا مساعد ولا معين ؟ قال : نعم وأستطيع أيضاً أن أطويه وقت اشتداد العاصفة ، قال: سأرى الآن ذلك أيها الملاح الصغير ، وقال أوسطهم وكان فى التاسعة من عمره : ولقد بَلِيَ حذائى يا سيدى فهل جئتنى بحذاء جديد ؟ قال : نعم لقد جئتكم جميعاً بأحذية جميلة ، وقبعات فاخرة ، ففرحوا وتهللت وجوههم ، وأحاطوا بأمهم يهمسون فى أذنها بهذا النبأ الجديد ، وتشبثت بردائه الطفلة الصغيرة وقالت له : لقد ولدت الشاة التى أهديتها إلىّ حَمْلا صغيراً أبيض اللون أسود العينين فتعال معى أُرك إياه ، فتبسم وضمها إليه وقال لها : سأذهب معك يا فكتورين عما قليل ، ثم التفت إلى ماجدولين وقال لها : إنهم يحبونى كثيراً ، وأنا الآن أعيش بينهم كأننى أعيش فى أسرتى بين أهلى وقومى ، فارتعدت ماجدولين واصفر وجهها وظلت تقول فى نفسها : « لقد أصبح سعيداً بنفسه ، وكان يظن أنه لا يستطيع أن يكون سعيداً بدونى ،

ثم ركبوا الزورق جميعاً وأخذ الملاح الصغير ينشر الشراع ويصيح باستيفن : ها أنذا يا سيدى أنشر الشراع وحدى بلا مساعد ولا معين ، فيقول له : أحسنت يا بنى أحسنت ! ... حتى عبروا النهر إلى الضفة الأخرى ، فاعتمد إدوار على ذراع استيفن ومشوا جميعاً على أقدامهم إلى المنزل ، وكان على كثب منهم ، فتقدم فرتز وكان معه مفتاح الباب ففتحه ، فدخلوا الحديقة ووقع نظر ماجدولين على حائط السور فرأتها مكسوة بغلالة بديعة من أزهار البنفسج تدور بها من جميع جوانبها ، فذكرت ذلك الكتاب الذى كتبه إليها استيفن منذ خمسة أعوام قبيل زفافها إلى إدوار ، وقال لها فيه : إنه قد كسا سور البيت الذى ابتناه لها فى جوتنج بأزهار البنفسج التى تحبها ، ثم التفتت فرأت حوض الماء المقام فى وسط الحديقة ، ورأت حوله ذلك السياج الذى قال لها استيفن فى كتابه إنه قد أقامه من حوله خوفاً على أولادهما من السقوط ، ثم لمحت فى زاوية من زوايا الحديقة كرسيا طويلا مؤلفاً من مقعدين متقابلين ، وأرجوحة صغيرة من أراجيح الأطفال ، فعجبت كل العجب من احتفاظه بهذه الآثار التى تؤلمه وتذكره بشقائه الماضى ، ثم قالت فى نفسها : ما أحسب أنه تعمد إبقاءها والمحافظة عليها ولكنه تركها وشأنها فبقيت فى مكانها على حالها .

وهنا شعرت بتلك الغضاضة التى يشعر بها الذليل فى موقف ذله ومهانته ، وظلت تقول فى نفسها : إنه ماعفا عنها ، ولا غفر لها سيئتها عنده ، ولا أمسك عن عتابها وتأنيبها ، ولا أعطاها من نفسه هذا الوجه من الرضا ، إلا لأنه يحتقرها ويزدريها ، ويراها أصغر فى عينيه من أن يأخذها

بذنب ، أو يعتد عليها بسيئة ؛ وإن هذه النظرة العذبة التى أصبح ينظر بها إليها إنما هى نظرة العزيز المترفع التى يلقيها على البائس الشقى الذى يستحق عطفه ومرحمته ، فأخذ من نفسها هذا الخاطر مأخذاً شديداً ، وأحزنها وملأ قلبها غصة وألما أنها قد فقدت كل ما كان لها فى قلبه حتى منزلة الاحترام .

وكان استيفن قد أنشأ فى طرف من أطراف الحديقة غرفا أعدها لمنامه وجلوسه ونزول ضيفانه وترك المنزل جميعه لايطرقه ولا يأوى إليه طلباً لراحة نفسه من آلام الذكرى وهمومها ، فأعد لإدوار غرفة منها ذهب به إليها ساعة وصوله ، وكان إدوار لا يزال يشكو بقية من الألم فى جسمه ، فما أخذ مضجعه من فراشه حتى استغرق فى نومه ، وأقبل الليل فعادت أسرة فرتز إلى بيتها ، ولجأ بستانىّ الحديقة إلى مخدعه ، وبقى استيفن وحده مع ماجدولين ، وهى المرة الأولى التى جلس إليها منفرداً منذ افترقا ، فعادت إلى ذهنه تلك الصورة القديمة التى كان يتخيلها فى ماضيه لسعادته وهنائه ، وظل يقول فى نفسه : هاهو البيت ، وهاهى الحديقة ، وهاهو النبت والشجر ، والليل والقمر ، والسماء الصافية ، والأشعة المترقرقة ، والنسيم العليل ، والسكون السائد ، وهاهو حوض الماء تسبح فيه الأسماك غادية ورائحة ، وها هى ماجدولين جالسة ليس بينى وبينها حائل ؛ ولكننى لا أستطيع أن أمد يدى إليها ، بل لا أستطيع أن أملأ نظرى منها ، لأن بينى وبينها على شدة هذا القرب بُعدَ مابينى وبين ذلك النجم المتألق فى أفق السماء

وظل مستغرقا فى خياله هذا ، حتى فاتحته ماجدولين الحديث وقالت له :

ما أجمل دارك يا استيفن وما أبدع منظرها ، إنها أجمل مما كنت أتوقع ؛ فخيل إليه أنها تهزأ به وتستهين بآلامه فلا تبالى أن تذكره بها ، فداخله مالم يملك نفسه معه وقال لها : إن من يعيش فى قصر جميل فخم كقصرك الذى تعيشين فيه فى كوبلانس لايعبأ بمنزل صغير كهذا المنزل ، فشعرت أنه يؤنبها ويُعرّض لها بتلك الإساءة التى أسلفتها إليه فيما مضى ، فتألمت فى نفسها ألماً ممزوجاً ببعض الغبطة والارتياح ، لأنها علمت أنه لا يزال يفكر فيها ؛ ولا يزال يضمر فى نفسه بقية من ذلك الحب القديم ، وأرادت أن تتغلغل إلى أعماق نفسه فقالت له : حيثما يجد المرء سعادته فى مكان مهما صغر شأنه فهو أجمل القصور وأفخمها ؛ فنظر إليها نظرة منكسرة كاد يقول لها فيها إنه ليس بسعيد ، وإنه أشقى إنسان على وجه الأرض ثم استردها سريعاً ، فلم تشعر بها ، وظل صامتاً ، فذهبت معه فى الحديث مذاهب أخرى ، حتى مضت قطعة من الليل فنهضت من مكانها ، ونهض بنهوضها ، وتمشيا قليلا فى أنحاء الحديقة حتى مرا بسلم الطبقة العليا فقالت له : هل تأذن لى يا استيفن أن أصعد إلى هذه الطبقة لأراها ، وهل تتفضل بالصعود معى إليها ؟ فاضطرب قليلا ثم قال لها : لك ماشئت ياسيدتى ، وصعد معها ذلك السلم الذى لم تطأه قدمه منذ خمس سنين حتى بلغا أعلاه ، فمشى إلى الغرفة الأولى وفتح بابها وقال لها : ها هى الغرفة التى كنت أعددتها لجلوسى ودراستى ولا حاجة لى بها الآن ؛ فقد اتخذتُ من بين غرف الحديقة بدلا منها ؛ ثم تركها وفتح باب الغرفة الثانية وقال : وهاهى الغرفة التى كنت أعددتها لمقام أبيك رحمة الله عليه أيام كنت أظن أنه سيساكنني فى هذا

المنزل ويعيش معى فيه . فرأت فراشاً جميلا وأثاثا حسنا وأصص زهر وريحان قد يبست وجف ورقها وتناثر فى أنحاء الغرفة ؛ فشعرت بانقباض فى نفسها لذكرى أبيها ، واغرورقت عيناها بالدموع ، ثم انتقل إلى الغرفة الثالثة ومد يده إلى مفتاحها ثم استردها وقال بصوت خافت متهدج : عفواً ياماجدولين فإنى لا أستطيع أن أفتح هذه الغرفة لأنها الغرفة التى كانت معدة لأخى أُوجين ، وقد آليت على نفسى أن لا أفتح بابها ماحييت ، فأثر فى نفسها منظره ، وأكبرت حزنه وألمه ، وقالت له : أحزين أنت حتى اليوم على أُوجين يا استيفن ؟ قال نعم حزناً لا يفارقنى حتى الموت ؛ ثم مشى إلى الغرفة الأخيرة ومد يده إلى مفتاحها بهدوء وسكون ففتحها ثم انحرف عنها قليلا وأطرق برأسه ولم يقل شيئا ، فألقت عليها ماجدولين نظرة ألمت بجميع مافيها ، فرأت غرفة جميلة رحبة قد دُهنت جدرانها باللون الأزرق ؛ وبُسط فى أرضها بساط أزرق ؛ وأُقيم فى أحد أركانها سرير من النحاس الأبيض مغطى بملاءة حريرية زرقاء ، ورأت منضدة جميلة قد صففت عليها أدوات زينة النساء ، وخزانة الملابس ، ومرآة كبيرة وكرسياً طويلا ذا مقعدين ، وبضعة مقاعد أخرى كلها أزرق اللون ، وقد علتها جميعها طبقة رقيقة من الغبار ، فعلمت أنها أمام الغرفة الزرقاء التى حدثها عنها فى بعض رسائله الماضية وقال لها إنه قد أعدها مخدعا لنومهما وأنه إنما اختار لها هذا اللون لأنه لون البنفسج الذى تحبه ، فثارت فى نفسها تلك الذكرى القديمة ، ومشت مابين قمة رأسها وأخمص قدمها رعدة شديدة كادت تتزايل لها أعضاؤها ، واشتد خفوق قلبها واضطرابه ، ثم

نظرت إليه فإذا هو مطرق صامت وإذا دموعه تنحدر على خديه يتبع بعضها بعضاً ، فهالها منظره ، وازدحمت الدموع فى عينيها تتبادر إلى السقوط ، فأخذت يده بين يديها وقالت له : ما بك يا استيفن ؟ وكأنما قد راعه أن يفضح الدمع سره الذى كان يكتمه منذ عهد طويل ، فاجتذب يده من يدها برفق وقال لها : لقد هاجنى ذكر أخى أوجين ، وأشار إليها بالنزول ، فنزلا حتى وصلا إلى مكانهما الأول من الحديقة ، فقالت له : رفه عليك قليلا ياصديق فليس فيما قضى الله حيلة ، ولا لفائت مرد ، ولقد مات أخوك ميتة كريمة لم يمتها أحد قبله ، فليكن صبرك عليه كريماً كميتته ، فرفع رأسه إليها وقال لها : إننى أستطيع أن أنسى كل عهد من عهود حياته الماضية ولا أستطيع أن أنسى تلك الأيام التى أحببته فيها وأحبنى ، وأخلصت له فيها وأخلص لى ، ولقد جمعت بينى وبينه المصائب منذ كنا طفلين صغيرين ، وألفت ما بين قلبينا الكسيرين حتى أصبحنا قلباً واحداً ؛ يشعر بشعور واحد ، ويتألم بألم واحد ، ولا تزال حاضرة أمام عينىّ حتى الساعة تلك الأيام التى قضيناها معا فى مدرسة جوتنج بعيدين عن أبوينا ورحمتهما وعطفهما لأن أمنا كانت قد ذهبت إلى قبرها ، وأبانا كان يقسو علينا ولا يحفل بنا ، وقد بؤس عيشنا بؤسا يعيى به الصغير ، ويطير له لب الكبير ، وبلغنا فى الشقاء المبالغ التى لا يبلغها إلا اليتامى المنقطعون عن الأهل والرحم ، أو أبناء السبيل المشردون فى آفاق البلاد ، وكنا نرتدى أرثّ الثياب ، ونأكل أتفه الطعام ، ولا نحتذى إلا الأحذية المرقعة ، ولا نلبس إلا القلانس المخرقة ، ولا نجد ما نستعين به على إصلاح شأن ملابسنا وأجسامنا ، فكنا نلاقى بسبب ذلك

من معلمينا أشق العقاب وأقساه ، فنحتمل الألم بصبر وجلد ، ولا نستطيع أن نعتذر إليهم عذراً سديداً نقيم به وجهنا ، لأننا إن فعلنا فقد عققنا أبانا وتركنا للألسنة سبيلا إليه ، وهذا مالا نحب أن يكون ، وكان طلبة المدرسة فى شأننا قسمين : هازئ لا يزال يسخر بنا ، وراحم لا يزال يتوجع لنا ، ودمعة الراحم كابتسامة الساخر ، كلاهما يؤلم النفس ويملؤها غصة وأسى ، فكنا نضيق بالحالين ، ونتألم فى الموقفين ، وكثيراً ما كان يأمرنا معلمونا كلما زارهم زائر كريم بالانزواء فى الركن المظلم من أركان قاعة الدرس حتى لا يخجلوا بنا أمامه فإذا انصرف عُدنا إلى مقاعدنا كما كنا ، فكنا نجد فى نفوسنا من المضض والألم مالا يعلم سبيله إلا الله ، وكان الطلبة يخرجون جميعا فى أيام الآحاد مع المعلمين للتنزه فى الأحراش والغابات أو على ضفة النهر أو فى سفح الجبل فى أزياء جميلة وشارات حسنة ، ماعدانا ، فقد كان معلمنا يتطلب علينا العللَ فى ذلك اليوم حتى يأمر بسجننا فى بيت الدجاج تبرما بنا ، واستثقالا لزينا وهيئتنا ، فإذا خلا بنا المكان اختلف شأننا اختلافا عظيما فأظل أبكى وأنتحب ، ويظل أوجين يلعب ويمرح ، لأنه كان على صغر سنه أوسع منى صدراً ، وأكثر احتمالا ، وكان لا يعرف سبيلا لتعزيتى وتسرية هموم نفسى غير هذا السبيل ، فلا يزال يغنى ويصيح ويقلد أصوات الحيوان ، ويطارد الدجاج والأوز ويفتنُّ فى مجونه ولهوه ، حتى تهدأ نفسى ، ويجف مدمعى ، ولا أرى لى بدا من المضى معه فى شأنه ، وكنت أرحمه وأحنو عليه حنو الأم على رضيعها ، فلا أستطيع أن أراه باكيا أو شاكيا أو مستوحشا أو متألما ، وكان يخيل إلىّ أننى لو رأيت

دمعة واحدة تجرى على خده لقتلت نفسى حزناً وكمداً ، وكثيراً ما كنت أتمارض ساعة الغداء أو أتظاهر بالشبع إن رأيتُ الطعام قليلا فى أيدينا حتى يستطيع أن يأخذ حظه منه ، فلا أرى على وجهه صفرة الجوع ، وطالما ضممتُ فى الليالى الباردة غطائى إلى غطائه وأسبلته عليه من حيث لا يشعر رحمة به وحنوا عليه ، حتى إذا أصبح الصباح ورآنى نائما بجانبه بغير غطاء ضمنى إلى صدره وقبلنى ، وقال إنك تقتل نفسك يا استيفن من أجلى ؟

ولم يزل هذا شأننا حتى وفد علينا إدوار وكان منكوباً بمثل نكبتنا فتقاسمنا نحن الثلاثة هذا الشقاء وتعاونا عليه برهة من الزمان حتى فرقت بيننا الأيام .

وهنا اختنق صوته بالبكاء فلم يستطع المضى فى حديثه وأطرق إطراقا طويلا ثم رفع رأسه فإذا عيناه محمرتان من البكاء فألقى على ماجدولين نظرة طويلة دامعة وقال لها : أتدرين يا ماجدولين ماذا صنعتُ بهذا الأخ الذى كنت أُحبه أكثر من كل إنسان فى العالم ، وكان يحبنى أكثر مما أُحبه ؟ قالت لا أعلم أنك صنعت به شيئاً ، قال إنى قد قتلتُه ، فذُعرت ماجدولين واصفر وجهها وقالت إنى لا أفهم ماتقول ، قال قد كتَبَ إلىّ من ميدان القتال أن سرجه بال ممزق يوشك أن يخذله فى الميدان وأنه فى حاجة إلى عشرين فرنكا ليبتاع بها سرجا جديداً وكنت قادراً عليها فضننت بها عليه فانقطع به سرجه أثناء المعركة فداسته حوافر الخيل فمات . فاستعبرت ماجدولين باكية وقالت : وا أسفاه عليه وعلى شبابه الغض وغصنه الباسق النضير ، فحدق استيفن فى وجهها تحديقاً شديداً وقال لها : وهل تدرين لم

ضننتُ عليه بهذا المال الذى سألتنيه ؟ قالت . لا ، قال: لأنى كنت لا أملك سواه ، وكنت بين أن أرسله إليه ليبتاع به السرج الذى يريده ، أو أنفقه فى السفر إلى كوبلانس لأراك ، فآثرت رؤيتك على حياته ، فنكست ماجدولين رأسها ، واحمر وجهها حياء وخجلا ، وظل جسمها يرتعد ارتعاداً شديداً ، ثم عاد إلى حديثه يقول : وهل تعلمين ماذا تم لى بعد أن سافرت إليك هذه السفرة ؟ فصمتت ماجدولين ولم تقل شيئاً ، فقال : ذهبت إليك فى ملعب الأوبرا فلم أجدك فانتظرتك طويلا فلم تأت ، فقلقت عليك قلقا عظيما ، وذهبت إلى بيت سوزان لأقف على أمرك ، فرأيت هناك وليمة حافلة فسألت عنها فعلمت أنه عرس صديقتك ، فأبيت أن أذهب دون أن أراك ولو على البعد لحظة واحدة ، ثم أنصرفُ لشأنى ، وكان لا بد لى من أن أحتال لذلك احتيالا ، فاختلطت بالخدم كأنى واحد منهم وكانت ثيابى أشبه بثيابهم حتى تمكنت من الدخول إلى فناء القصر ، ووصلت إلى باب قاعة الرقص فنظرت من زجاجها فرأيتكِ ترقصين مع إدوار تلك الرقصة التى كنت تفتتحين بها حياتك الجديدة معه ، وبينا أنا كذلك إذ دُفع الباب دفعا شديداً وخرج منه أحد الزائرين فأمرنى أمراً لم أحسن القيام به فضربنى على وجهى سوطا لايزال أثره باقيا على خدى حتى الساعة .

وهنا وضع يده على خده كأنما قد وقع السوطُ عليه فى هذه اللحظة وانفجر باكياً بصوت عال وتركها مكانها ومشى فى الطريق الموصل إلى مخدعه ، فلحقت به عند باب المخدع وتشبثت بردائه ومدت يدها إليه ضارعة وقالت له : ألا تستطيع أن تعفوَ عنى يا استيفن ؟ فجذب رداءه

منها ، وألقى عليها نظرة شزراء هائلة ، وقال لها اذهبي أيتها السيدة إلى مخدع زوجك فإنه مريض ، وربما كان فى حاجة إليكِ ، ثم دخل مخدعه وأقفل بابه ، فلبثت فى موقفها ساعة باهتة مذهولة ، ثم انصرفت إلى مخدع زوجها .

فى هذه اللحظة علمت أنه لايزال يحبها . ويستهيم بها ، وأنها تحبه حبا يستعبدها ، ويملك عليها كل عاطفة من عواطف قلبها ، وأن قد حيل بينها وبينه إلى الأبد ، فقضت فى مضجعها ليلة ليلاء مايكاد يغرب لها نجم ، ولا يطلع لها فجر ، وما كان ليله بأقصر من ليلها .

٨٧

من ماجدولين إلى سوزان

لم يبق لى بد من أن أعترف لكِ بكل شىء .

قد أصبحت أحب استيفن حبا لم أضمر له مثله فيما مضى من أيام حياتى ، لأنه حب بلا أمل ولا رجاء .

لا ، بل أعتقد أنى ماسلوته يوما من الأيام ولا نسيته ، وأنى كنت أخدع نفسى وأكذبها حينما ظننت أنى أستطيع أن أحيا بدونه ، أو أسكن إلى عِشرةِ إنسان سواه .

إنه لايزال يحبنى ويستهيم بى ، ولا يزال يذكر ذلك الماضىَ كأنه لا يزال حاضراً بين يديه ، وقد كنت أجهل ذلك منه ، ولا أرى له أثراً فى وجهه ، حتى جلست إليه منذ ليال مجلساً منفرداً فجرى بينى وبينه

حديث ثارت فيه عواطف نفسه ثورة شديدة فبكى وتألم ، وغضب واحتدم ، فعلمت أنه لم يأس شيئا ، وأنه إنما كان يكاتمنى لواعج نفسه وآلامها ، ويطوى أحناء ضلوعه على مهجة تتحرق لوعة وأسى ، فرثيت له وبكيت لبكائه ، وأكبرت فيه تلك العاطفة الشريفة عاطفة الولاء والإخلاص لامرأة قد غدرت به أقبح غدر ، وخانته أفظع خيانة ، وملأت عليه فضاء حياته بؤسا وشقاء

إنه لم يفكر فى الزواج حتى الساعة ، ولم يفتح باب الطبقة العليا من منزله التى كان أعدها لسكنانا إلا مرة واحدة منذ ليال ، وكان ذلك من أجلى ، ولاتزال غرفة العرس باقية على عهدها كما هى ، ولقد رأيتها فرأيت الغبار منتشراً فوق سريرها ومقاعدها وأستارها فشعرت عند النظر إليها بما يشعر به المائل أمام جَدثٍ بالٍ قد ضم إليه ، وطوى به بين تربه وأحجاره .

لقد خسرتُ ياسوزان كل شىء ، ولم يبق فى يدى من جميع أمانىّ وآمالى أمل واحد ، فقد ضاعت الثروة التى بعتُ سعادتى بها ، وتنغَّصَ علىَّ الزواج التى وضعت فيه جميع آمالى ، وخرج من يدى ذلك الرجلُ الذى أحببته أكثر من كل إنسان فى العالم ، والذى لا أستطيع أن أحب إنسانا سواه ، ولا أعلم ماذا بقى لى فى ضمير الدهر بعد ذلك من مخاوف وأهوال .

إننى أشعر بخوف شديد ترتعد له مفاصلى ، وأظن أن ساعة العقاب قد دنت ، ولقد أذنبتُ ذنباً عظيما ، فلابد أن يكون عقابى عظيما .

٨٨

من ماجدولين إلى سوزان

قد حلَّت النكبة الكبرى ، فقد تركنى إدوار وسافر إلى جهة لا أعرفها سوى مايقول بعض الناس من أنه ركب البحر من هامبورج إلى أميركا ، ولا أعلم أصدقاً مايقولون أم كذباً ! ؟

وكان استيفن أحسن الله إليه قد أصلح له بعض شأنه بعد نزول تلك النكبة به ، وبذل له من المعونة مالا يبذله أخ لأخيه ، ولا حميم لحميمه ، ولكنه لم يَثلْ من عثرته هذه حتى عاد إلى سيرته الأولى واندفع فى المقامرة اندفاع الجنون ، فما هى إلا أيام قلائل حتى استدان نيفا ومائتى ألف فرنك ولم يبق له بد من السقوط ، فبعت جميع جواهرى وحلاى علَّنى أستنقذه من سقطته فلم أصنع شيئاً ، ثم استيقظت صباح يوم من الأيام فذهبت إلى مخدعه فلم أجده ، فسألت عنه الخدم فأخبرنى أحدهم أنه لمحه خارجاً فى الغلس من باب القصر وبيده حقيبة سفره ، ولا يعلم أين ذهب ، ثم علمت بعد ذلك أنه باع القصر إلى أكبر غرمائه وأخذ بقية ثمنه وهرب وترك سائر الغرماء وشأنهم دون أن يوفيهم ديونهم ، فعرفت أنه — وقد فعل هذه الفعلة التى لا يقدم عليها رجلٌ شريف — غيرُ عائد من بعدها أبداً ، ولم أرَ بدّاً من أن أقوم عنه بوفاء بقية ديونه ضنا بكرامته وإبقاء على شرفه ، فبعت فى سبيل ذلك البيتَ الذى ورثته عن أبى فى ولفاخ والمزرعة التى بجانبه ، وقد سألت عنه فى كل مكان وسافرت للتفتيش عنه فى كل جهة

أعلم أن له شأنا فيه أو صلة بها فلم أقف له على أثر ، ولا يعلم إلا الله كم ذرفتُ من الدموع وكابدتُ من الآلام منذ حلت تلك النكبة بى حتى اليوم ، ولقد أرسل إلىّ بالأمس مالك القصر الجديد ينذرنى بمغادرته بعد شهر واحد ، ويلح فى ذلك إلحاحا شديداً ، ولا أدرى ماذا أصنع ولا أين أذهب ، فليس لى قريب آوى إليه ، ولاحميم أرجو معونته ، ولا أملك ما أستعين به على قضاء ما قُدّر لى أن أقضيه فى هذا العالم من أيام حياتى ، وقد انقطع استيفن عن زيارة كوبلانس فأصبحت لا أراه ، ولا أسمع به ولا أعلم سبب انقطاعه ، ولقد حدّثتنى نفسى كثيراً بالانتحار فحال بينى وبين ذلك أننى إن قتلت نفسى قتلت معى هـــذا الجنين المسكين الذى لاذنب له ؛ وكثيرٌ على الأم أن تمتد يدها لقتل ولدها ، فتعالىْ إلىَّ ياسوزان أو ائذنى لى أن آتى إليك ، لا ، بل لابد من مجيئك إلىَّ ، لأننى لا أستطيع أن أحتمل مشقة هذا السفر البعيد وأنا فى الشهر الأخير من حملى .

انى أنتظر كتابا منك بعد أيام قلائل ، فلم يبق لى فى العالم من أعتمد عليه أو أرجو مودّته سواك ،

٨٩

من ماجدولين إلى سوزان

كنتُ أنتظر أن يأتينى منك كتاب بالأمس فلم يأتنى ، فليت شعرى ماذا حدث ؟ أمريضة أنت ؟ أم شغلك عنى شأن عظيم لا يسمح لك بمراسلتى ؟ اكتبى إلىَّ على كل حال فقد ؛ بلغتْ بى الشدّة منتهاها ، وانقطع

عنى الناس جميعاً . فلا أرى أحداً من صواحبي ولا من أصدقاء زوجي .

الحياة مظلمة فى عينى ، ولقد بكيت كثيراً حتى جفت مدامعى ؛ وفكرة الانتحار تعاودنى اليوم أكثر من ذى قبل ، فانظرى فى أمرى ياسوزان ، واكتبى إلىَّ أنك قادمة أو ائذنى لى بالسفر إليك فإن لم يأتنى منك كتاب غداً ، فلا أعلم ماذا يكون شأنى بعد غد .

٩٠

من فردريك إلى ماجدولين

أكتب إليك كتابى هذا وسوزان فى أشد حالات مرضها ، وقد أمرنى الطبيب أن أجنبها كل مايؤثر فى نفسها من سرور أو حزن ، وقد جنبتها كل شىء حتى الاطلاع على الرسائل التى ترد علينا من صواحبها ، وقد سهرت بالأمس فقصصت كتابك الأخير الذى أرسلته إليها عمداً فألممتُ بطرف من الشدة التى تكابدينها فأسفت لذلك كثيراً . وهممت ان أطلعها على الرسالة أو أكتب إليك على غير علم منها بحضورك إليها ، ولكنى أشفقت عليها أن يقتلها الحزن لمصابك أو الفرح برؤيتك ، فرجائى إليك أن تنتظرى بحضورك بضعة أسابيع حتى أحتال للأمر أو تهدأ عن سوزان علتها . والسلام عليك من صديقك الذى يرثى لك ، ويتألم لألمك

٩١

الجـــزاء

فرأت ماجدولين ذلك الكتاب فرابها أمره ، ووقع فى نفسها أن

سوزان ليست بمريضة ولا عاجزة عن قراءة رسائلها كما يقول زوجها ، وانها إنما تريد مدافعتها والتخلص منها ، فهالها الأمر وتعاظمها وظلت ساعة بين الشك واليقين حتى دخلت عليها فتاة من صواحبها وصواحب سوزان كانت تختلف إليها من حين إلى حين فسألتها ماجدولين متى كان آخر عهدها برسائل سوزان ، فقالت : قد جاءنى منها كتاب بالأمس تهنئنى فيه بعيد ميلادى وتقترح علىّ أن أسافر إليها لأقضى عندها فى « برلين » فصل الربيع ، فكتبتُ إليها أشكر لها تهنئتها ، وأستعفيها من السفر . فصمتت ماجدولين ولم تقل شيئاً حتى انصرفت الفتاة فقالت بينها وبين نفسها : لاعتب عليها فى ما فعلت ، إنما هى الإرادة الإلهية تأبى إلا أن تجازينى غدراً بغدر ، وكفراناً بكفران

٩٣
الدموع الأخيرة

استيقظ سكان قرية ولفاخ فى صباح أحد الأيام فإذا بهم يرون تلك الفتاة التى فارقتهم بالأمس وهى أنضر الفتيات وجها ، وأسعدهن حالا ، قد عادت إليهم صفراء متضعضعة شاحبة اللون ، بالية الثوب ، تمشى مشية الذليل المهين ، وتقتلع قدميها فى مسيرها اقتلاعا ، فعجبوا لأمرها ورثوا لها ، ولم تزل سائرة فى طريقها حتى مرت أمام ذلك البيت الذى قضت فيه أيام طفولتها وصباها ، وسعدت فيه بالحب الشريف الطاهر أياما طوالا حتى فارقته ففارقها هناءُ الحياة ورغدها ؛ فخفق قلبها خفقة الألم والحزن ، ووقفت أمامه ساعة تقلب نظرها فى جنباته وأنحائه ، فرأت السكون مخيما

والوحشة سائدة ، فعلمت أنه لايزال مهجوراً ، وكان باب الحديقة مفتوحا فحدثتها نفسها بدخولها ، فدخلتها ، وخطت فيها بضع خطوات ، فلمحت البستانىّ وزوجته جالسين إلى أصل شجرة من الأشجار العظام يطبخان طعامهما ، فمشت إليهما حتى صارت على كثب منهما ، فأنكراها إذ رأياها ، ثم عرفاها ، فانتفضا من مكانهما انتفاضاً ، ومشيا إليها فحياها ، ونظر الرجل إليها نظرة واجمة مكتئبة وقال لها : ما الذى طرأ عليك ياسيدتى ؟ فأفضت إليه بمجمل قصتها ، ثم قالت له : أريد أن استأجر الغرفة العليا من المنزل لأقضى فيها شهراً أو شهرين ، وربما لا أحتاج إليها أكثر من ذلك فاستأذن لى صاحب البيت فى أمرها . فاستعبر الرجل باكيا وظل يعجب لتقلبات الأيام ، وتبدل صورها وألوانها . ويندب ذلك الزمن الذى قضاه سعيداً فى خدمتها وخدمة أبيها ، وما هى إلا ساعة حتى أعد لها الغرفة التى أرادتها ، فصعدت إليها فوجدتها باقية على عهدها أيام كان استيفن يسكنها وذكرت ذلك اليوم الذى صعدت إليها بعد سفره وأصلحت من شأنها وبللت تربتها بدموعها حزناً على فراقه ، وظلت تقول فى نفسها : قد كنت أبكى قبل اليوم فراقه ، أما اليوم فقد أصبح ذلك الفراق قطيعة دائمة لا واصل لها ، فمن لى بدموع تعينى عليها ؟ وخلت بنفسها تتذكر أيامها وعهودها ، وتناجى همومها وأشجانها ، وتذرف آخر ما أبقى لها الدهر فى أجفانها من دموع . ومن هو أولى بالبكاء والهم منها وقد ضربها الدهر بجميع ضرباته وتنكر لها كل وجه من وجوه الحياة ، فهجرها زوجها وخانتها صديقتها ، ونقم عليها الرجل الذى تحبه ، وفقدت الثروة التى بذلت فى سبيلها سعادتها ، وأصبحت لاتستطيع أن تطلب الراحة من

طريق الموت ، لأنها لا تستطيع أن تقتل ولدها ، ولا أن تجدها فى الحياة لأنها لا تملك ما تستعين به على عيشها ، وما هى إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض فلم يحضرها غير زوجة البستانى وعجوز من جاراتها القديمات فولدت طفلة جميلة لم تبتسم عند رؤيتها إلا لحظة واحدة ، ثم أخذت تبكيها بكاء الثاكل وحيدَها ساعة موته ، وما كادت تنهض من نفاسها حتى جاءها الخبر بأن إدوار قد انتحر شنقا فى فندق من فنادق « شيكاغو » كان ينزل فيه منذ سافر إلى أميركا ، على أثر ليلة قضاها فى المقامرة وخسر فيها جميع ما كان بيده من المال ، فسقطت عند سماع الخبر مغميا عليها وهى تقول : وا يُتمَ ولداه » .

ثم استفاقت بعد حين فإذا هى تمثال صامت جامد ، لا تنطق ولا تبكى ولا تشكو ولا تتألم ، ولا تضم طفلتها إلى صدرها إلا إذا أزعجها بكاؤها ، ولا تطلب الطعام فى غداة ولا عشى ، ولا تتناول منه حين يقدّم إليها إلا المضغة أو المضغتين ، ترفع يدها عنه ، وتمر بها الساعات الطوال وهى ذاهبة ببصرها فى السماء لا يعلم إلا الله أين تذهب ، ولا أين تتغلغل نفسها فى ظلمات هذا الوجود ، فإذا ثابت إليها نفسها سألت البستانىّ هل أتاها كتاب ، أو سأل عنها أحد ؟ فيجيبها أن : لا ، فتعود إلى صمتها وذهولها

٩٣

أصبح استيفن بعد انتقاض جرح قلبه عليه فى تلك الليلة التى حادث فيها ماجدولين ثائراً مهتاجا ، لا يهدأ ولا يستريح ، ولا يسكن إلى نوم ولا يقظة ، ولا يهنأ باجتماع ولا خلوة ، فبدا له أن يسافر إلى بعض

مقاطعات الشمال ليروح عن نفسه همومَها وآلامها ، فسافر سفرة طويلة زار فيها كثيراً من المدن واجتمع بكثير من علماء الموسيقى والمغنين وكتّاب الروايات الغنائية الذين سمعوا به ولم يروه ، فاحتفلوا به احتفالا عظيما ، وأجملوا مودّته وعشرته ، ونظم فى تلك السفرة بعض القطع الشعرية الجميلة ولحنها ، ولحن كثيراً من أغانى الروايات التمثيلية التى لا تزال خالدة حتى اليوم ، فازداد صيته انتشاراً ، وبلغ من العظمة أوجها الأعلى وأجمع الذين سمعوا غناءه أو توقيعه أن سماء المانيا لم تطلع فيها منذ مات « بيتهوفن » شمس مثل شمسه ، ولا أشرق فيها نجم أسطع من نجمه ، وظل فى سياحته هذه بضعة أشهر حتى ورد إليه فى أحد الأيام كتاب من أحد أصدقائه فى كوبلانس يخبره فيه خبر إدوار ، ويقص عليه قصة سفره وانتحاره ، فحزن عليه وعلى مصيره حزناً شديداً ، وبكاه بكاء الوفىّ الكريم الذى لا يأبى أن يقف فى موقف الموت كل شأن من شؤون الحياة ، ولم يذكر له فى تلك الساعةِ من ماضيه إلا شيئاً واحداً فقط ، وهو أنه كان صديقه ورفيق طفولته وصباه ، وأنيس وحدته فى أيام بؤسه وشقائه ، لا يزيد على ذلك شيئاً ، ورأى أن لا بد له من العودة ليرى ماحلّ بماجدولين بعد نزول تلك النكبة بها ، وليمدّ إليها يد معونته فى بأسائها التى صارت إليها ؛ فسافر إلى كوبلانس فقضى فيها ليلة ، ثم ذهب إلى جوتنج وظل يتسقط أخبارها حتى عرف عنها كل شىء ، وعلم أنها تعيش مع طفلتها عيش البؤس والشقاء فى الغرفة العليا التى كان يسكنها من بيتها الأول ، فأسى فى تلك الساعة مَوجدته عليها ، واستحال غضبه ونقمته إلى رحمة وشفقة ، فركب عجلته فى الصباح وسافر إلى ولفاخ حتى بلغها ضحوة النهار ، فأخذ

فى طريقه إلى بيت الشيخ مولر حتى بلغه ، فسأل البستانىّ عنها فقص عليه مجمل قصتها ، ووصف له حياتها الغريبة التى تحياها منذ عادت إلى القرية ، وذكر له صمتها وسكونها ، وذهولها واستغراقها ، واستبدادالهم بها استبداداً يكاد يقتلها ، ويأتى على حياتها ، فقال له استأذن لى عليها فإنى أحب أن أراها ، قال : إنها تقضى أكثر أوقاتها جالسة على ذلك المقعد الذى كنتما تجلسان عليه معاً فى أيامكما الماضية ؛ وقد تركتها الساعة هناك ؛ فاذهب إليها إذا شئت ؛ فمشى إليها حتى رآها جالسة على الهيئة التى وصفها الرجل ؛ فلم تشعر به حتى صار أمامها ، فانتفضت إذ رأته انتفاضة تزايلت لها أعضاؤها ، وتساقطت فيها نفسها ، فلم تستطع النهوض من مكانها ، وأرتج عليها فلم تنطق بحرف واحد ، فجلس بجانبها وقلبه يذوب حسرة وأسى ، وأخذ يعزيها عن نكبتها ، ويتوجع لما حلّ بها ، ويعظها بالصبر على مصابها ، فثابت إليها نفسها شيئا فشيئا ؛ ونظرت إليه نظرة منكسرة وقالت له : قد كنت أحتمل هذه النكبات كلها بصبر وجلد لو أنك عفوت عنى يا استيفن .

فأطرق مليا ثم رفع رأسه إليها وقال لها : أما العفو فإنى لا أستطيعه لأنى لا أستطيع أن أنسى ؛ فاصفر وجهها اصفراراً شديداً ؛ وشعرت أن روحها تتسرب من بين جنبيها قطرة قطرة ، ونظرت إليه بعينين يترقرق فى إنسانيهما الدمع وقالت له : ألا يُذكرك يا استيفن هذا المكان الذى نجلس فيه بشىء من ماضينا ؟ قال لا يذكرنى إلا بشىء واحد ، وهو أنى شهدت فيه ذلك المشهد الذى جمعنى فى جميع أمانىّ وآمالى ، وقتل قلبى قتلة لم يحى من بعدها حتى اليوم ، قالت : إنك تقسو علىّ كثيراً

يا استيفن ولو شئتَ لرجعتني وأشفقت علي .

فنظر إليها نظرة شديدة وقد تمثلت أمام عينيه جميع آلامه الماضية دفعة واحدة وقال لها : ذلك شأن المرأة في كل زمان وفي كل مكان ، تزعم أنها ضعيفة واهنة ؛ وأن الرجل قوي مقتدر ، فهي تسأله عن كل شيء ؛ ولا تسأل نفسها عن شيء ؛ ألم تكوني قاسية عليّ يوم تركتني في هذا المكان وحدي منذ خمسة أعوام أقاسي أعظم ما قاسى امرؤ في حياته من الهموم والآلام ، وأخذت بيد خطيبك على مشهد مني ومرأى وذهبتِ به إلى غرفتك دون أن تلتفتي إليّ التفاتة واحدة لترى ما حل بي من بعدك ، وهل أنا باق على قيد الحياة أم ذهبت النكبة بما بقي من رمق ؟ ألم تكوني قاسية عليّ أيام أرسلت إليك تلك الرسائل التي ضرعتُ إليك فيها ضراعة لا تحتملها نفس من نفوس البشر فأغفلتها وأهملتها ولم تعبئي بدموعي الغزار التي سكبتها فيها ، ولم تكتبي إليّ إلا كلمة واحدة بعد حين قطعت بها آخر خيط كان في يدي من خيوط الرجاء ؟

إني لا أزال أذكر حتى الساعة أنك سألتني في تلك الرسالة أن أتناسى ذلك الماضي وأن تحل الصداقة بيننا محل الحب ، فها أنذا قد جئت إليك باسم تلك الصداقة التي تواثقنا عليها منذ ذلك العهد أتفقدُك وأتعهد شأنك وأُهيئ لك حياة تحييها مع طفلتك في أي مكان تشائين آمنة غدرات الدهر ونكباته ما مدّ الله في أجلي . فاستعبرت باكية ومدت يدها إليه ضارعة وقالت : أهذا كل ما بقي لي في قلبك يا استيفن ؟ فهاجت وجده مدامعُها ، وانبعثت من مكامنها في لحظة واحدة جميع عواطف قلبه المختلفة ؛ وظلت تتداول نفسَه واحدة بعد أخرى ؛ فذكر حبه إياها ، وحاجته إليها

وأنه لا يستطيع أن يعيش سعيداً فى الحياة بدونها ، ثم ذكر خيانتها وغدرها ، وقسوتها عليه ، وزرايتها به وبآلامه ودموعه ، فجمت عاطفةُ الغضب من نفسه عاطفةَ الحب ، ولكنه مالبث أن رأى دموعها المنهمرة على خدّيها ، ومنظر بؤسها وشقائها ، ويدبها الممدودتين بالضراعة إليه ، حتى عاد إلى عطفه وإشفاقه ، وحدّثته نفسه أن يأخذها بين ذراعيه ، ويضمها إلى صدره ، ويقول لها : قد نسيتُ كل شيء ياماجدولين ، فتعالى إلىّ فإنى لا أستطيع أن أعيش سعيداً فى الحياة بدونك . ثم مرت بخاطره مرور البرق تلك الساعة التى وقف فيها على باب غرفتها ليلة عرسها وسمعها تلقى بنفسها بين ذراعى زوجها وتقبله وتستقبل قبلاته ، فثارت فى نفسه عاطفة العزة والأنفة التى لم تفارقه فى يوم واحد من أيام حياته وقال فى نفسه : إنى لا أمد يدى إلى فضلات الرجال ، ولا ألبس أكفان الموتى .

وكذلك ظلّ يتقلب ساعة بين يدى هـــذه العواطف المختلفة وهو صامت مذهول ، وماجدولين ناظرة إلى شفتيه نظر المتهم إلى شفتى قاضيه ، تنتظر تلك الكلمة التى تفصل فى أمرها ، فترفعها إلى سماء السعادة التى لا سماء فوقها ، أوتهوى بها فى مهواة الشقاء التى لا قرار لها ، ثم مدّت يدها إلى يده فأخذتها برفق وضمتها إلى صدرها وأنشأت تقبلها ، وتبللها بدموعها ، فتناسى فى تلك الساعة كل شيء وحنا عليها وأهوى بفمه إلى فمها ، حتى إذا لم يبق بين تلامس شفتيهما إلا مر الهواء بينهما إذ سمعها تقول له وهى ترتعد بين يديه « أنتَ حياتى التى لا حياة لى بدونها » ، وهى بعينها الكلمة التى سمعها منها منذ خمسة أعوام وهى تقولها لزوجها ليلة زفافها فى غرفة عرسها ، فما رنت فى أذنه حتى وثب على قدميه وثبة الهائج المختبل ، وانتزع يده

من يدها ، ودفعها عنه دفعاً شديداً ، فسقطت تحت المقعد ، وقال لها بصوت شديد قارع : لم يبق لكِ فى قلبى شىء أيتها السيدة منذ ذلك اليوم الذى وضع الكاهن فيه يده على رأسك ورأس زوجك وبارككما ودقت على أثر ذلك أجراس الكنيسة مؤذنة بانقضاء كل شىء .

ثم تركها مكانها ومشى خافض الطرف ، مطأطىء الرأس ، حتى وصل إلى باب الحديقة فرأى البستانىّ واقفاً فى مكانه فأخرج من جيبه كتابا مختوما وقال له : أعط هذا لماجدولين ، ثم ركب عجلته وذهب فى سبيله

فمشى البستانىُّ إليها فرآها ساقطة تحت المقعد تعالج سكرة كسكرة الموت ، فما زال بها حتى رجعت إليها نفسها ، فأعطاها الكتاب فأخذته من يده صامتة ، وصعدت إلى غرفتها وقد لبس وجهُها ذلك اللونَ الذى يغشى وجوه المنذرين بالموت ؛ فقضت ليلتها ساهرة بجانب مصباحها ، تكتب مرة ، وتذرف دموعها أخرى ، وتضم طفلتها إلى صدرها فيما بين ذلك ، حتى انصدع عمود الصباح .

٩٤
الكارثة

قال فرتز لزوجته والشمس تشرف على الدنيا من وراء غدرها والكون يمسح عن عينيه سِنة الكرَى : أما أنا فإنى باق هنا لأنى أريد أن أصطاد لاستيفن نوعا من السمك قال لى صباح الأمس إنه يحب أن يكون على مائدته اليوم ، واذهبى أنت إليه ، وانتظريه حتى يستيقظ ، ولا تأخذى معك من الأولاد غير طفلك الرضيع ، وأغلب ظنى أنه لا يستيقظ من نومه

إلا متأخراً، فقد عاد أمس من تلك السفرة التى سافرها إلى ولفاخ حزيناً مكتئبا كثير الهم والشجن ؛ فسألته عن شأنه فلم يخبرنى بشىء ، فجلست إليه أحدثه أحاديث مختلفة رجوت أن أُسرى بها عن نفسه ، فلم يصغ إلىّ ، حتى انتصف الليل ، فأذنى بالذهاب إلى منزلى ، فتركته وهو يعالج النوم فلا يجد سبيلا إليه . قالت : مسكين هذا الرجل ، ما أحسب أن أحداً شقى فى هذه الحياة شقاءه ، أو لاقى فيها مالاقاه ، والناس يحسبونه سعيداً مغتبطا ، ويحسدونه على نعمته وهنائه ، قال : نعم لقد فتك ذلك الغرام القديم بنفسه فتكة لا أحسب أنه بارئ منها أبد الدهر ، فوا رحمتاه له ، ووا أسفا عليه ، اذهبى إليه ياجوزفين وانتظرى يقظته ، واحذرى أن يزعجه بكاء طفلك ، وربما لحقت بك بعد قليل . فذهبت حاملة طفلها على يدها حتى دنت من باب الحديقة فمرت على مقربة منها مرور البرق امرأة مقنعة فى أخلاق رثة مشعثة ، تسرع فى مشيتها وتتعثر فى ذيلها ، فعجبت لأمرها ولكنها لم تحفل بها ، ودخلت الحديقة فراعها أن رأت بين يديها فى دهليز الباب سفطا صغيراً كأن فيه شيئا يضطرب ، فدنت منه فرأت طفلا رضيعا ملفّفا بثيابه يمتص ثدياً صناعية موضوعة بجانبه ، فذكرت تلك المرأة التى رأتها منذ لحظة تسرع فى مشيتها كالخائفة المذعورة ، وقالت فى نفسها إنه طفلها ما من ذلك بُدّ قد أثمت فيه وحاولت التخلص من عاره فألقته هنا ، وهتفت بالبستانى وكان يعمل فى ناحية أخرى من الحديقة فلباها ، فسألته عن السفط ، فدهش إذ رآه وقال إنه لم يره إلا الساعة ، فلم تر أن تصنع شيئاً دون أن ترى رأى استيفن ، فذهبت الى مخدعه وأشرفت عليه فرأته مستيقظا فى فراشه ، فدعاها حين رآها ، فدخلت اليه وقالت له : قد كنت

أظن أنك لا تستيقظ اليوم إلا ضحوة النهار ، قال: إنى لم أنم حتى الساعة ، فقصت عليه قصة السفط وأخبرته خبر المرأة المقنعة التى رأتها ووصفت له حالتها فى اضطرابها وتخبلها فداخله ريب عظيم ، ونفض غطاءه عنه نفضاً وخرج مسرعا فى مباذله حتى بلغ مكان السفط فرآه ورأى الطفل فى مضجعه منه ، ورأى بجانبه هَنَة بيضاء فتأملها فإذا كتاب مختوم ، فأخذه وقرأ فى عنوانه « من ماجدولين إلى استيفن » ففضه بسرعة وأمرّ نظرَه عليه إمراراً فلمح بين سطوره كلمة « الموت » فصرخ فى وجه جوزفين : أين ذهبت تلك المرأة التى حدثتنى عنها ؟ قالت : ذهبت فى هذا الطريق ، وأشارت إلى طريق النهر : فصرخ صرخة عظمى وقال : إنها ماجدولين ، وإنها قد ذهبت الى الموت ، وألقى الكتاب من يده ، وعدا عدواً شديداً حتى أشرف على النهر ، فرأى خلقاً كثيراً مجتمعين على ضفته ، وكلهم يشير الى الماء بأصبعه ، فنظر حيث يشيرون فرأى الغريقة تضطرب فى أيدى الأمواج ، وتمدّ يدها ناحية الضفة كالمستغيثة ، وكانت الزوبعة ثائرة ، والريح تعصِفُ من كل جانب ، ورأى صديقه فِرِتز يحتثُّ زورقه إليها لإنقاذها ، فأخذ يهتف ويقول : أدركها يافرتز ، أنقذها يا صديقى ، إنها ماجدولين ، ثم نضا ثوبه عنه وهمّ بإلقاء نفسه فى الماء ، فأشفق عليه الناس أن يصيبه مكروه فاعترضوا سبيله ، فدفعهم عنه دفعا شديداً ، واقتحم النهر وظل يسبح وراء الزورق ، والموج يدنو منه مرة ، ويناى به أخرى حتى بلغه بعد لأى ، فتشبث به ، وكان الزورق قد دنا من مكان الغريقة ، والغريقة تطفو وترسب ، ويتموّج شعرها على سطح الماء مرة بعد أخرى .

فى هذه الساعة ، والقلوب خافقة ، والنفوس ذاهلة ، والناس يهتفون

بالدعاء مرة ، ويصرخون صرخات الفزع أخرى ، ثارت موجة هائلة حول مكان الغريقة كالطود الشامخ ، ولبثت لحظة تعِجّ وتصطخب ، فصاح الناس بصوت واحد رحمتك اللهم وإحسانك ، ثم انحسرت ، فإذا سطح الماء أملس منبسط ، وإذا الغريقة لاعين ولا أثر .

ومارأى استيفن هذا المنظر حتى جُنّ جنونه ، وألقى بنفسه فى الماء ، وغاص حيث غاصت ، فاندفع فرتز وراءه ، وهبط مهبطه ، وما زالا يرسبان مرة ، ويطفُوان أخرى ، ويصارعان فى هبوطهما وصعودهما جبابرة الأمواج صراعا شديداً ، ثم انفرج الماء عنهما ، فإذا هما صاعدان يحملان الغريقة فوق أيديهما ، ولا يعلمان أحية هى أم ميتة ؟ وما زالا يسبحان حتى بلغا الضفة فطرحاها ، وأكب الناسُ عليها يتسمعون ضربات قلبها ؛ ويتلمّسون أنفاسها . واستيفن واقف ناحية يشخص بصره إليها ، ويتنظر قضاء الله فيها ؛ ثم انتبه فإذا القوم جاثون من حولها ، وقد رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم ، وأخذوا يهمهمون بصلواتهم ؛ فعلم أن الأمر قد انقضى : فسكن للحادث سكوناً عميقاً لا تتخلله زفرة ولا أنّة ، وجثا بجانب الجاثين يصلى بصلاتهم ، ويدعو بدعائهم ، فأبكى منظره الناس جميعاً ، وهالهم من سكونه وجموده فوق ما كان يهولهم من جزعه وبكائه ، ثم أخذوا ينصرفون واحداً بعد آخر ؛ حتى إذا لم يبق منهم أحد نهض استيفن من مكانه ومشى إلى الجثة فاحتملها على يده وسار بها إلى المنزل ؛ وفرتز يتبعه صامتاً ، فصعد بها إلى الطبقة العليا ودخل إلى تلك الغرفة الزرقاء فأضجعها على ذلك السرير الذى كان بالأمس سرير عرسها ، فأصبح اليوم لحدها الأخير .

وجثا على درجات السرير جُثِيَّ العابد على درجات الهيكل ، وظل على حاله تلك بضع ساعات لا يطرف ولا يتحرك ، حتى حلت ساعة الدفن ، فنهض من مكانه وأكب على الجثة وكشف الغطاء عن وجهها ؛ وتناول من فمها تلك القبلة التى كانت تُحرمها عليه الحياة ، حتى أحلها له الموت ؛ ثم سقط مغشياً عليه .

٩٥

من ماجدولين إلى أستيفن

ماذا أصنع بالمال من بعدك يا استيفن ، بل ماذا أصنع بالحياة جميعها بعد مافقدتك ، وانقطعت أسباب دنياى من أسباب دنياك .

كنت أرجو أن أعيش لك وأن أُقدم إليك فى مستقبل حياتك هناء أفضل من الهناء الذى كنت ترجوه فى ماضيك ، لأكفر بذلك عن سيئتى التى أسلفتها إليك ، فحُلت بينى وبين ذلك ، لأنك كنت واجداً علىَّ ، وكنت ترى ألا بد لك من الانتقام لنفسك ، فقضيت بذلك علىّ وعلى نفسك فى آن واحد ، لأنى أعلم أنك تحبنى ، وأنك لا تستطيع أن تهنأ بالحياة من بعدى .

كنت أشعر أن بين جنبىّ ثروة من الحب تملأ فضاء حياتك هناء ورغداً ، وكنت أرى أن فى استطاعتى أن أمنحك فى كل ساعة من ساعات حياتك من السعادة مالا تستطيع امرأة فى العالم أن تمنحه رجلا فى الكثير من الأعوام ، ولم أكن أرجو على ذلك أجراً سوى أن أراك سعيداً بين يدى ، وأن أعيش بجانبك عيش النبتة الضعيفة بجانب الدوحة العظيمة

يفيء عليها ظلها ، ويترقرق عليها نسيمها .

لِمَ لمْ تعف عنى يا استيفن ؟ ووالله ما أحببت أحداً فى الحياة غيرك ، ولا سكنت نفسى إلى عشرة إنسان سواك ، ولم يستطع الرجل الذى نقمت منى زواجى منه ، وحاسبتنى عليه حساباً شديداً أن ينتقص ذرة واحدة من ذلك الحب الذى أضمرته لك فى قلبى مذ عرفتك ، فلو أنك أغضيت عن هفوتى ، وأذنت لحلمك أن يسع جهلى ، لوجدت بين يديك فتاة عذراء بقلبها وعواطفها ، لم تمسسها يد ، ولا عبث بفؤادها عابث ، ولا فرق بينها وبين تلك الفتاة القروية الساذجة التى أحببتها فى ولفاخ حباجها ، وعاهدتها على المحبة والولاء .

كانت الكأس مترعة بين أيدينا ، وكان منظرها جميلا رائقاً تأخذه العين ، ويهفو له القلب ، وكان جديراً بنا أن نتساقاها قطرة قطرة حتى نأتى على القطرة الأخيرة منها . ثم نموت معاً سعيدين بنشوتها ، كما عشنا سعيدين بتساقيها ، ولكنك كنت شقيا سيء الحظ فدفعتها عنك بقدمك دفعاً شديداً فكسرتها ، وأرقت ما فيها ، فأصبحنا لا نجد لذة الحياة إذا عشنا ، ولا نهنأ بضجعة الموت إذا متنا .

لِمَ لم تعف عنى يا استيفن ، وقد عاقبنى الدهر بذنبك عقابا أليما ، وأخذ لك منى فوق ماتستطيع أن تأخذ لنفسك بنفسك ، فسلبنى الثروة التى فتنتنى عنك ، والزوجَ الذى مالأتهُ على الغدر بك ، والهناء الذى زعمتُ أنى أجده فى جوار غير جوارك ، وأحال تلك الشرارة من الحب التى كانت تلمع فى قلبى فتضيء ظلمتَه إلى نار آكلة تحرقه وتضطرم فى أنحائه ، وتتغلغل فى أعماقه وأطوائه ، ولم يترك فىّ موضعا واحداً يسع

عقوبتك وانتقامك .

أتدرى يا استيفن من هى تلك المرأة التى جلستَ إليها بالأمس تقرعها وتؤنبها ، وتعدّد عليها ذنوبها وآثامها ، وتتلذذ بمنظر ذلها وضراعتها ؟

إنها لم تكن إلا شبحا من الأشباح الضئيلة المتهافتة ، قد ذهب الدهر بجميع قواها ، وضعضع جميع حواسها ومشاعرها . ولم يترك لها من آثار الحياة إلا عينا تنظر ولا ترى ، وأذنا تسمع ولا تعى ، ونفسا ذاهلة عن كل شىء حتى عن نفسها ، وروحا تتسرب من بين جنبيها شيئا فشيئا ذاهبة فى سبيلها .

تلك هى المرأة التى قسوت عليها ، ولم ترحم بؤسها وضعفها ، فمددت إليها يدك القوية القادرة وطعنتها وهى جريحة مثخنة تلك الطعنة النجلاء التى نَفذَت قلبها ، وقضت عليها القضاء الأخير .

قد غفرت لك كل شىء يا استيفن ، لأنى أحبك ، ولأنى أعلم أنك ماقسوت علىّ هذه القسوة كلها إلا لأنك تحبنى ، فامنحنى عفوك ومغفرتك وأنزلنى من نفسك المنزلة التى كنتُ أنزلها من قبل ؛ والتى أبذل اليوم حياتى فى سبيلها ، فإن كنت لابد آخذاً الموتى بذنوبهم فلا تأخذ بذنبى تلك الطفلة اليتيمة المسكينة التى لاسند لها ولا عضد ، فهى وإن كانت ابنة المرأة التى خانتك ، فهى ابنة المرأة التى أحبتك ؛ وإنى أُعيذها بكرمك وفضلك أن تذوق طعم الشقاء على عهدك ؛ أو أن تحل بها كارثة من كوارث الدهر بين سمعك وبصرك .

أطعِمها وتصدّق عليها ، فلطالما أحسنت إلى أبويها من قبلها ، واجعل لها من صدرك الرحيم ملجأ تجد فيه حنان الأم ، ورعاية الأب ولا تكلها

إلى نفسها تصارع أهوال الحياة وآلامها فتصرعها، وتولّ بنفسك أمرها في الساعة التي تجتاز فيها تلك العقبة الكبرى من عقبات الحياة حتى لا تسقط سقطة تشقى بها أبد الدهر، واذكر لها دائماً أن أمها كانت تحبها حبا جما، وأنها ما آثرت الموت على الحياة إلا لأنها عجزت عن أن تعيش بجانبها، ولأنها كانت شقية مُرَزَّأة فأشفقت عليها أن يطيش إليها سهم من سهام شقائها.

الوداع يا استيفن، الوداع يا أحب الناس إليّ، إني أفارق هذه الحياة وأنت آخر من أفكر فيه، وكل ما آسف عليه، فاذكرني ولا تنسني، وتعهد بالزيارة قبري من حين إلى حين، إن كان مقدراً لي أن يكون لي قبر على ظهر الأرض، واحتفظ بالوديعة التي أودعتك إياها فهي تذكاري الدائم المقيم عندك، وليهوّن عليك فقدي أن روحي قد امتزجت بروحك امتزاجا لا يغيره فناء ولا بِلى؛ فلئن فرقت بيننا الأقدار في هذه الدار فسنلتقي في الدار الأخرى لقاء لا ينغصه علينا موت ولا فراق.

الوداع يا استيفن، وآخر كلمة أقولها لك في آخر ساعة من ساعات حياتي: «إني أحبك، وإني أموت من أجلك».

٩٦
المقبرة

استطاع استيفن أن يستفيق من غشيته في أصيل اليوم الثاني؛ ففتح عينيه ودار بهما حوله فرأى فرتز وزوجته وأولاده جلوسا تحت قدميه يبكونه ويتوجعون له؛ فظل شاخصاً ببصره هنيهة ثم التفت إلى فرتز وألقى

عليه نظرة طويلة وقال له : هل دفنتموها ؟ فأطرق فرتز واجما وقال بصوت خافت : نعم ياسيدى منذ الأمس ، قال وأين طفلتها ؟ قال قد كفلتها جوزفين وهى تتولى إرضاعها مع طفلها ، قال: وأين ذلك الكتاب ؟ قال : هاهو ذا ياسيدى ، وأعطاه إياه ، فأمره بالانصراف إلى منزله ، فانصرف هو وأسرته ، فلما خلا استيفن بنفسه أخذ يقرأ الكتاب ونفسه تتطاير لوعة وأسى ، حتى فرغ منه ، فبكى ما شاء الله أن يفعل ، ثم أخذته كظمة شديدة فذهل عن نفسه وظل مستغرقا فى ذهوله بضع ساعات حتى انتصف الليل ، فثار من مكانه بغتة وكأنما طاف بعقله طائف من الجنون ، وخرج إلى الحديقة فمشى فى أنحائها يتسمع فلم يشعر بحركة ؛ ورأى البستانىّ نائما فى غرفته ورأى فأسه على بابها فتناولها وفتح باب الحديقة بهدوء وخرج ، فلما استقبل الفضاء أخذ سمْتَه إلى المقبرة حتى بلغها ، وكان الجو مكفهرا والريح عاصفة والسحب تحجب وجه القمر ولا تنحصر عنه إلا حيناً بعد حين ، ثم لاتلبث أن تعود إلى تراكمها وتكاثفها ، وكان يحيط بالمقبرة من جهاتها الثلاث سور متهدم كثير الثغرات والفجوات ، ويمتد مع جهتها الرابعة نهرُ جوتنج وقد قامت على ضفته أشجار عالية غبياء تعصف الريح بفروعها وأوراقها عصفا شديداً فيتألف من حفيفها وخرير ماء النهر الجارى بجانبها صوتٌ غليظ أجش يملأ القلوب روعة ورهبة ، فلم يزل استيفن سائراً فى طريقه حتى لاحت له رؤوس تلك الأشجار ، وسمع حفيف أوراقها ، وخرير المياه المتدفقة من تحتها : فخيل إليه أنها أشباح سوداء من الجن تتقدم نحوه فى جوف الليل راقصة مترنحة ، وتدمدم بأصواتها المخيفة المريعة ، فشت فى جسمه رِعدة الخوف إلا أنها لم تمنعه من المضىّ فى وجهه

فاستمر فى سبيله حتى دخل المقبرة ، وكان القمر يظهر حيناً فيرشده إلى الطريق ؛ ثم لايلبث أن يتوارى فى غمار السحب فيقف عن المسير ، فإذا تراءى له رأى على ضوئه نواويسَ الموتى وقد جفت فوق تربتها تلك الأشجار القصيرة التى أغفل غارسوها أمرها بعد أن بَلِىَ فى قلوبهم حزنهم على موتاهم ؛ ولم يزل يتصفح أوجه القبور حتى رأى بين يديه قبراً حديثاً لاتزال تربته مخضلة فأكبَّ عليه يتصفح جوانبه فقرأ على أحدها على شعاع ضعيف بعثه إليه القمر فى تلك الساعة اسم ماجدولين ، فجثا على ركبتيه وهمهم بصلاة قصيرة ؛ ثم نهض قائماً على قدميه وتناول الفأس التى أتى بها معه وضرب بها الأرض ضربة شديدة ؛ فلم يسمع لضربته صوتاً لشدة عصف الرياح وزفيفها فى تلك اللحظة ؛ ثم أخذ يحفر حتى ضرب ضربة أخرى رنت رنيناً شديداً ملأ أرجاء المقبرة . فاقشعر بدنه ؛ وبرد دمه فى عروقه ؛ وسقط على ركبتيه ، وسقطت الفأس من يده ، لأن الضربة كانت أصابت التابوت الذى يحوى الجثة ؛ فخيل إليه أنها أصابت جمجمةَ الميتة ؛ وكان القمر قد برز من وراء غمامته فى تلك الساعة وأضاء المقبرة كلها ، فتمثل له أن القبور قد تفتحت جميعها وأن الموتى قد أخرجوا رؤوسهم منها ، وأخذوا ينظرون إليه بعيون ملتهبة متوقدة ؛ فطار من رأسه مابقى فيه من الصواب ، وترك الفأس مكانها ، وركض ركضاً شديداً وهو يتخيل أن الموتى يتأثرونه ويركضون وراءه ، حتى وصل إلى المنزل متطرحا من الكلال ، وهو يصيح « ماكفانى أن قتلتُها حتى مثلت بها » وسمع البستانى صيحته فاستيقظ وذهب إليه فرآه على تلك الحالة ؛ فقال له مابك يا سيدى ؟ فهدأ قليلا عندما رآه ، ونهض من مكانه وقال له : اتبعنى ، فتبعه الرجل صامتاً

لا يعلم أين يريد ، حتى بلغ المقبرة ، وكان القمر لا يزال مشرقا فى جنباتها فمشى إلى ذلك القبر فانحنى عليه ، فرأى أثر الفأس فى التابوت ولم ير شيئاً مما كان تخيله ، فسكن وهدأ ، وعلم أنه إنما كان فى ثورة من ثورات الجنون ، فأمر الرجل أن يعيد التراب إلى ما كان عليه ، فأعاده ، ثم أمره أن يأخذ فأسه ويعود إلى المنزل ففعل وجثا هو بجانب القبر يلثم تربه وثراه ، ويلصق خديه بصفائحه وأحجاره ، ويبكى بكاء شديداً حتى اشتفت نفسه ، ثم انصرف لسبيله وهو يقول : قد كنت أرجو أن أُدفن بجانبك يا ماجدولين فلم أوفق إلى ذلك وأحسب أن ذلك منى غير بعيد .

وأصبح منذ ذلك اليوم خائر النفس ، منقبض الصدر ، كئيباً مستوحشا ، ينظر إلى الحياة وما فيها نظر الغريب النازل بدار لم يطرقها من قبل ، ولم يأنس بالمقام فيها ، فهو يعد عدته للرحيل عنها ، ثم مازال يَلِجُّ به الأمر حتى أصبح يستوحش من الناس ؛ ويتبرم بمرآهم ، ويستنكر سماع أصواتهم ، فانقطع عن الاختلاف إلى من كان يختلف إليه من أصدقائه ومعارفه ، وأبى أن يقابل أحداً من زائريه ، وأمسى لا يفارق خياله فى نومه ويقظته وذهابه ومجيئه منظرُ ماجدولين وهى تغرق فى النهر ، وغدائرُها الذهبية الصفراء طافية على وجه الماء ، ويداها تتحركان حركات الاستغاثة فلا تجد مغيثا ولا معينا ، فكان يجد فى نفسه لتلك الذكرى ألما مُمِضا يقيمه ويقعده ، ويذهب براحته وسكونه ، فيصرخ كلما تراءى له ذلك الخيال : نعم أنا الذى قتلتها ، وانتزعت حياتها من بين جنبيها ، وفرقت بينها وبين فلذة كبدها ، فويل لى ! ما أشقانى ! وما أسوأ حظى ! لقد كتب لى أن أقتل بيدى جميع الذين يحبونى على ظهر الأرض ، وأن أبقى من بعدهم

شقيا معذبا أبكيهم وأندبهم ، لا أستطيع أن أنسامم ، ولا يقيض لى أن ألحق بهم .

ولقد استيقظ صباح يوم من الأيام ضيق الصدر ، كثير الضجر ، فخرج من المنزل هائما على وجهه ومشى فى طريق ممهدة بين المزارع لايدرى أين يذهب ، ولا أى غاية يريد ، واستمر به المسير بضع ساعات فإذا هو أمام قرية ولفاخ ، فهاجت فى نفسه تلك الذكرى الماضية . ومشى إلى بيت الشيخ مولر ، فراعه وأدهشه أنه لم ير أثراً لذلك البيت ، ولا لتلك الحديقة ، فلا غرفَ ولا قيعان ، ولا سقوف ولا جدران ، ولا أشجار ولا أغراس ؛ بل رأى أنقاضا مبعثرة ، وجذوعا متناثرة ، وأحجاراً ذاهبة ههنا وههنا ، فعلم أن مالك البيت الجديد قد هدمه ، وانتزع أشجار حديقته وأغراسها ، فأحزنه المنظر وآلمه ، ووقف أمامه مطرقا خاشعاً وقوف العابد أمام محرابه ، وللبلى والدروس جَلالٌ فى النفس فوق جلال الجدة والعمران ، وظل على ذلك ساعة ، ثم أخذ يدور بعينيه فى تلك العرَصات الخالية يتلمس أثراً من آثار تلك المعالم التى قضى فيها أيام سعادته الأولى كما يتلمس السارى فى ظلمة الليل نجمة القطب فى أطباق السحب فلم يجد شيئاً ، فهتف صارخا : ماذا صنع الدهر بى وبها ؟ لقد أثكلنيها وأثكلنى كل شىء بعدها حتى آثارها ، وظل يناجى تلك الأطلال الدوارس ، ويستنطق ثوَيها وأحجارها . ويسائلها عن أهلها وساكنيها ، فلا يجيبه غير الصدى المتردد ، حتى عَىَّ بموقفه ، فانصرف ولقلبه وجَبات كأنها شقائق برق فى السماء لوامع .

٩٧

بيتهوفن

انقطعت أخبار استيفن عن كوبلانس وأنديتها ومجامعها ، وكان غرةَ جبينها المتلألئة ، وشمس جمالها الساطعة ، فتساءل عنه أصدقاؤه ومعارفه ، وصنائع أياديه وفواضله ، والمعجبون بذكائه ونبوغه ، حتى عرفوا قصته ، وما كانوا يعرفون شيئاً منها قبل اليوم ، فهالهم الأمر وتعاظمهم ، وأشفقوا أن تختطف يد الدهر من أيديهم تلك الحياة النضرة الزاهرة التي لم يتمتعوا بها إلا قليلا من الأيام ، فمشى بعضهم بذلك إلى بعض ، واجتمع منهم جمع عظيم ضم بين حاشيتيه كثيراً من كبار الموسيقيين ، ونوابغ الممثلين ، ورجال الشعر والأدب ، فأجمعوا رأيهم على زيارته فى قريته ، وألا يزالوا به حتى يهجر عزلته ويعود إلى حياته الأولى بينهم ، فكتبوا إليه أنهم وافدون لزيارته غداً ، ثم ركبوا فى أصيل اليوم الثانى عجلاتهم ؛ واستصحب كثيرٌ منهم نساءهم وفتياتهم ؛ وذهبوا إلى القرية فاستقبلهم استيفن على باب داره باسماً متطلقاً كأنه لا يضمر بين جنبيه لوعة ولا أسى ؛ وكأن قلبه لا يذوب بين أضالعه ذَوْبَ السبيكة فى بُوتقتها ؛ فطمعوا فيه إذ رأوه ، وخُيل إليهم أنه قد برئ مما به أو كاد ، وأن هذه الصفرة الرقيقة التى لا تزال تلبس وجهَه إنما هى أثر من آثار ذلك الماضى سيذهب مع الأيام ، وكان قد أعد لهم فى الحديقة مائدة عظيمة للعشاء ، فجلسوا إليها وكانوا نيفاً وثلاثين رجلا وامرأة ؛ وجلس هو بينهم يحدثهم ويُطرفهم بملحه ونوادره ، وتجنب فى أحاديثه معهم كل ما يتعلق بكارثته ، فلم يجرؤ أحد منهم

أن يفاتحه فيها حتى فرغوا من الطعام فتفرقوا فى أنحاء الحديقة زمراً زمرا يرتاضون ويسمرون ، حتى مضت قطعة من الليل ، فاقترح أحدهم أن يؤتى بالبيانو إلى فضاء الحديقة ليوقع عليه من يشاء منهم ، فأتى به ، فجلس إليه الموسيقى « فردريك » ووقع عليه لحناً من ألحان الموسيقار العظيم بيتهوفن ، فطرب له السامعون طرباً عظيما ، وقال أحدهم : لقد كان بيتهوفن الرسول الإلهى الذى بعثه الله إلى البشر ليخاطبهم بلغته ، فهو الرجل الذى استطاع وحده من دون الموسيقيين جميعاً أن ينطق بلسان الطبيعة ، ويردد أنغامها وأهازيجها ، وأن يكون فى غنائه هادئاً كالماء ، وصافياً كالسماء ، وعميقا كالبحر ، وصادحا كالطير ، وخافقا كالنجم . فقال الموسيقى « مورات » نعم ولكنه كان سيئ الحظ ، عاثر الجد ، فقد قضى حياته فقيراً معدما يسعى إلى الكفاف فى العيش فلا يجده ، وخاملا مغموراً ، يطلب الشهرة من طريق الفن فلا يظفر بها ، حتى مات شريداً طريداً فى وطن غير وطنه ، وبين قوم وأسرة غير قومه وأسرته ؛ فقال الشاعر « سيدروف » مَن منكم يحفظ تاريخ حياته الأخيرة فيقصه علينا ؟ فقال استيفن : أنا أقصه عليكم ، لأنى أعلم الناس به ، فقد كان أستاذى « هومل » رحمة الله عليه صديقه الذى عاشره فى آخر أيام حياته حتى مات وتولى دفنه بيده ، وكان كثيراً مايقص علىّ ذلك التاريخ وهو يبكى بكاء شديداً ، فأنا أرويه لكم كما كان يحدثنى به . ثم أقبل عليهم وأنشأ يقول :

لقد قسا الدهر على بيتهوفن قسوة عظمى لم يقسُها على أحد من قبله من رجال الفنون والآداب ، فقد وضع للعالم تلك الموسيقى السماوية العالية التى حاكى بها الطبيعة فى نغماتها ورناتها ؛ وصوّر فيها أدق عواطف

القلوب وخواطرها ، فلم يحفل بها الناس كثيراً ، ولم يأبهوا لها ، وكانوا قد ألفوا قبل ذلك تلك الموسيقى الصناعية المتكلفة التى كان يأنق الموسيقيون الماضون فى تنسيقها وتدبيجها تأنق النحات فى صنع الدمية الجميلة التى لا روح فيها ، وافتتنوا بها افتتانا عظيما ، فلم يستطيعوا أن يفهموا غيرها ، أو يهشوا لشىء سواها ، ولم يكن مصابه بجهل الناس إياه واحتقارهم له بأقل من مصابه بحسد حساده من أبناء حرفته ، واضطغانهم عليه ، بل لم يكن له مصاب غير هؤلاء ، فهم الذين وقفوا فى وجهه ، واعترضوا سبيله ، واستقبلوه حين وقف عليهم بتلك القيثارة الجميلة الرنانة بابتسامات الهزء والسخرية ، وذهبوا كل مذهب فى النيل منه ، والولع به ، والغض من شأنه ، وما كانوا يجهلون فضله ومقداره ، وقيمة ما استحدثه فى الفن من بدائع المبتكرات وغرائبها ، ولكنهم عجزوا عن الصعود معه إلى ذروته التى صعد إليها فلم يكن لهم بد من أن يثير حول كوكبه الساطع المتلألئ فى سماء الموسيقى هذه الغبرة السوداء من المثالب والمطاعن ، فلا يرى الناس أشعته ، ولا يشعرون بمكانها حتى أن « هايدن » نفسه وكان أكثرهم اعتدالا وأدناهم إلى العدل والإنصاف لم يستطع أن يسمح لنفسه بأن يقول عنه فى تقريظه أكثر من أنه « عازف ماهر » فكان مثله فى ذلك مثل من يقول عن شاعر مثل شاعرنا « جيتيه » أنه « يحسن الإملاء »

ولم يزل هذا شأنهم معه حتى تغصوا عليه حياته ، وذهبوا براحة نفسه وسكونها ، وملأوا قلبه وساوس وأوهاما ، فساء ظنه بنفسه ، وأصبح يرتاب معهم كما يرتابون فى اقتداره ونبوغه ، ولولا أن صديقه « هومل » كان مرآته الصادقة التى يرى فيها نفسه من حين إلى حين لنفض يده من

الموسيقى نفض اليائس القانط ، ولحرمت الأمة الألمانية هذه القيثارة البديعة الساحرة التى لم يخلق الله لها شبيهاً فى العالم مذ خلقت الدنيا حتى اليوم ، فويل للأشرار الخبثاء ، ماذا كانوا يريدون أن يصنعوا ، وماذا كان يكون شأن الموسيقى فى العالم لو تم لهم ما أرادوا ؟

ولم يستطع بيتهوفن أن يصبر طويلا على هذه المظلمة الفادحة التى نالته وضاق ذرعه بتلك النظرات المؤلمة التى أصبح الناس ينظرون بها إليه كلما مشى فى طريق ، أو ظهر فى مجتمع ، فلم يطق المقام بينهم ، ولا العيش فيهم ، فظل يتنقل فى أنحاء البلاد غدواً ورواحا ، لا يهبط بلدة حتى يطير به الضجر إلى غيرها ، ولا تطلع عليه الشمس فى مكان حتى تغرب عنه فى مكان آخر ، وكان له فى مبدإ أمره ثروة صالحة يعود بها على نفسه وذوى قرباه ، ولكنه كان من أصحاب الملكات الشعرية ، والشعر والحزم لا يجتمعان فى رأس واحد ، فلم يزل به إسرافه وتخرقه حتى أضاعها ، فأصبح لا يملك أداة من أدوات الرزق غير قيثارته ، وقيثارته سلعة كاسدة فى سوق الفنون لا يبتاعها منه أحد فزهد المجامع والمحافل ، وعاف المدائن والقرى ، وفر بنفسه إلى الغابات والأحراش وقلل الجبال وضفاف الأنهار ؛ وهنالك فى خلواته ومعتزلاته حيث لا يسمع صوتاً غير صوت الطبيعة ؛ ولا يرى وجها غير وجه الله ، أخذ يبث قيثارته آلامه وأحزانه ويسكب مدامعه الغزيرة بين مثانيها ومثالثها ، ويضع وهو جائع طاوٍ صفر اليد والأحشاء تلك الموسيقى العظيمة التى يعيش الموسيقيون اليوم ببركتها عيش السعداء ، وينعمون فى ظلالها بنعمة العيش الرغيد .

وكثيراً ما كان يستمر به المسير حتى يصل إلى جزر الدانوب فيهيم

إلى ضفاف ذلك النهر أياما طوالا لا يفترش إلا العشب ، ولا يلتحف غير الظل ، ولا يطعم إلا ما يقذف به إليه النهر من أحيائه ؛ حتى يمر به صديقه « هوملى » فيعود به إلى العمران .

ولم يقنع الدهر منه بذلك حتى رماه فى آخر أيامه بالصمم ، فلم يأسف لهذه النكبة كثيراً ، بل قال فى نفسه : إنى أحمد الله على ذلك فقد كفانى نصف شرور الناس فلعله يكفينى نصفها الآخر ؛ فلا أرى وجوههم ولا أسمع أصواتهم . ولقد صدق فيما قال ، فقد أخذ الناس يسمونه بعد نزول تلك الكارثة به بالموسيقى المجنون ، فلم يسمع شيئاً مما يقولون .

وأصبح منذ ذلك اليوم هادئاً ساكنا لا يشكو ولا يتضجر بل لا يشعر ولا يتألم ، وذهب إلى غابة قريبة من مدينة « بادن » فعاش فيها وحيداً منفرداً لا يسمع إلا صوت قلبه ، ولا يصغى إلا لتلك النغمات الداخلية التى تتردد بدون انقطاع فى أعماق نفسه ، ولا يرى أحداً من الناس غير صديقه « هوملى » من حين إلى حين فإذا جاءه طرح عليه ما وضعه من الألحان فيحمله عنه إلى الناس من حيث لا يشعر . وهو باق فى مكانه لا يفارقه

وكان الناس قد أصبحوا يألفون أنغامه بعض الشىء ويصغون إليها ، لا لأن حساده قد هدأوا عنه ، أو انقطعوا عن مناوأته والغض منه ؛ بل لأن للطبيعة سلطانا فوق سلطان الضغائن والأحقاد ، ولأن السحب المتلبدة فى آفاق السماء لا تستطيع أن تطفىء نور الشمس ، بل تحجب ضياءها عن العيون لحظة من الزمان ؛ ثم لا تلبث أن تنقشع عنها ، فإذا هى ملء العيون والأنظار .

ولم يقض فى عزلته هذه زمنا طويلا حتى ورد عليه كتاب من ابن

أخت له فى « فينا » كان قد تبناه فى صغره وأحبه حبا كثيراً يقول له فيه : إننى متهم بتهمة عظيمة لا سبيل لى إلى الخلاص منها إلا بحضورك ، فسافر إليه دون أن يقابل صديقه « هومل » ولم يكن معه من المال ما يقوم بنفقات سفره ، فكان يمشى على قدميه حينا ، ويركب عجلات النقل أحياناً ، حتى نال منه الجهد ، وأصبح عاجزاً عن المسير ، وكان الطريق إلى « فينا » لا يزال بعيداً فوقفت ذات ليلة ببيت صغير منفرد فى ظاهر إحدى القرى فوقف ببابه وأخذ يقرعه قرعا خفيفاً ، فخرج إليه صاحب البيت وسأله ما شأنه ؟ فقال له : إننى شيخ أصم غريب عن هذه الديار ، وقد أظلنى الليل وعجزت عن المسير فلا أستطيع المضىّ فى سبيلى ، فائذن لى بمضجع آوى إليه بقية ليلتى ، وإن شئت فأمر لى بكسرة خبز أسدّ بها رمقى ، فأشفق عليه الرجل وأوى له وأحله من بيته أكرم محل وأسماه ، وكان للرجل ابنتان فى سن الشباب فقامتا بين يديه تخدُمانه حتى رجعت إليه نفسه ، فدعوه إلى المائدة فأكل معهم ، ثم مشى إلى مصطلى فى أحد أركان القاعة فجلس إليه يصطلى ويجفف ثيابه ، وكان صاحب البيت من المولعين بالموسيقى والمغرمين بتوقيعها ليلهم ونهارهم ، فما فرغ من الطعام حتى جلس أمام البيانو وأخذ يقلب دفتر الموسيقى الذى بين يديه حتى وقع على ما يريد منه ، فأشار إلى ابنتيه أن تأخذ قيثارتيهما ، ففعلتا ، وأخذوا يعزفون جميعاً بنغمة واحدة ، فاغتبط بيتهوفن بمنظرهم ، وإن لم يسمع من غنائهم شيئاً ، وكل ما استطاع أن يفهمه من شأنهم أن لذلك اللحن الذى يوقعونه سلطاناً عظيما على نفوسهم فقد رآهم متأثرين عند توقيعه تأثراً شديداً ، ورأى صاحبة البيت وخادمتها قد تركتا ما كانتا تشتغلان به من شؤون البيت وأعماله ووقفتا للاستماع ،

وقد سكنت أطرافهما ، وتهلل وجهاهما ، وذهبتا ببصرهما فى السماء كأنما تتبعان أثر تلك النغمات فى طريقها إلى الملإ الأعلى ، حتى انتهت القطعة ، فاغرورقت عينا الفتاة الصغرى بالدموع ، وألقت الكبرى بنفسها بين ذراعى أمها ، وبكت بكاء شديداً ، فنهض بيتهوفن من مكانه ومشى إليهم وقال لهم : إننى لم أستطع أن أسمع شيئا من ألحانكم أيها الأصدقاء ، ولكننى استطعت أن أفهم أنها ألحان جميلة مؤثرة فتأثرت معكم ، وطربت لطربكم ولقد كنت قبل أن تحل بى هذه النكبة التى ترونها أحب الموسيقى حبا شديداً ، ولا يلذ لى فى الحياة شىء مثل استماعها ، فهل تأذنون لى أن أنظر فى دفتر الموسيقى لأقرأ تلك القطعة التى كنتم توقعونها ؟ فأومأ إليه بالإيجاب فأكب على الصحيفة فما وقع نظره على القطعة ورأى اسم صاحبها فى رأسها حتى اصفر لونه ، وارتعدت يده ، وارفض جبينه عرقا ، ثم أخذ يبكى بكاء شديداً . فانتبه القوم إليه ، ونهضوا من مكانهم مذعورين ، وأحاطوا به يسألونه ماخطبه ، فأشار بأصبعه إلى عنوان القطعة فلم يفهموا مايريد ، فقال لهم : إنها قطعتى أيها الأصدقاء ، وأنا الموسيقى بيتهوفن ، فدهشوا جميعاً ، وظلوا ينظرون إليه باهتين مذهولين ، ثم رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم ، وجثوا بين يديه خاضعين متخشعين ، وتناولوا يده وأخذوا يقبلونها واحداً بعد آخر ، فكانت هذه الساعة هى الساعة الوحيدة التى ذاق فيها لذة الاحترام فى حياته ، وكانت هى بعينها الساعة التى رفرف على رأسه فيها طائر الموت ، فقد شعر فى تلك اللحظة بوخزة مؤلمة فى جنبه ، فتساقط فى مكانه ، فتلقوه على أيديهم ، واحتملوه إلى سريره ، وسهروا بجانبه الليل كله يعللونه ويستشفون له ؛ فيستفيق مرة ؛ ويستغرق فى

غشيته أخرى ؛ حتى الصباح .

وكان صديقه هومل قد عرف أمر سفره فتبعه فى الطريق التى سلكها وظل يسائل عنه فى كل مكان حتى عرف القرية التى وصل إليها ، والبيت الذى نزله ؛ فصعد إليه فرآه فى سكرته التى يعالجها ، فجلس بجانبه يبكيه ويتوجع له ، حتى انتبه له بيتهوفن بعد حين ، فابتسم له إذ رآه وقال له : هل جئتنى بقيثارتى يا هومل ؟ قال نعم يا سيدى وهاهى ذى ، فتناولها منه وتناهض متكئا على إحدى يديه حتى تمكن من الجلوس ، وأنشأ يوقع على مسمع من القوم لحنه المحزن المشهور « رب لم أشقيتنى وما أشقيتُ أحداً من عبادك » فما أتمه حتى ارتعدت يداه ، وجحظت عيناه ، وسال العرق من جبينه متحدراً ، فسقط على وسادته وقد غشيته غشية الموت ، ثم فتح عينيه بعد لحظة فرأى صديقه هومل بجانبه فأمسك بيده ونظر إليه نظرة طويلة وقال « ألم أكن فى حياتى عظيما يا هومل » ؟ قال : بلى وأكبر من عظيم ، فتهلل وجهه بالبشر وأسبل عينيه وهو يقول « الآن أموت سعيداً » ثم قضى .

وفى اليوم الثانى حمل ذلك الرجل العظيم إلى مقبرة تلك القرية الحقيرة فدفن فيها ، ولم يشيع جنازته غير صديقه هومل وأفراد تلك الأسرة التى مات بينها ، وكان هذا كل حظه من الحياة .

٩٨

لحن الموت

ماوصل استيفن فى حديثه إلى هذا الحد حتى اصفر لونه ، وتغضن

جبينه وأطرق برأسه إلى الأرض ؛ فانتبه إليه القوم فإذا هو واضع يده على قلبه ، وإذا دموعه تنحدر على خديه متتابعة ؛ فقال له أحدهم : مابك يا استيفن ؟ فرفع رأسه بعد هنيهة وقال : إنما أبكى على هذا الرجل المسكين الذى عاش فى حياته شقيا ، ومات مسكينا ، ولم يبتسم له الدهر فى يوم من أيام حياته ابتسامة واحدة يكافئه بها على يده التى أسداها إلى هذا المجتمع كأنما قد كتب للعاملين على وجه الأرض جميعا أن يعيشوا فيها عيش الأشجار العظيمة فى الصحارى المحرقة ، تظلل الناس بوارف ظلها ، وهى تصطلى حر الهاجرة وأوارها ، ولو أن القدر أنصفهم ووفاهم أجورهم لما سعدَ أحدٌ فى الحياة سعادتهم ، ولا هنىء فيها هناءهم .

فصمت القوم جميعاً ، وقد شعروا أنه إنما يحدث عن نفسه ، ويرسل فى حديثه بعض الزفرات التى تعتلج فى صدره .

وإنهم لكذلك إذ نهض من مكانه بغتة ومشى بقدم هادئة مطمئنة حتى وصل إلى كرسى البيانو فجلس عليه ، ثم التفت إلى القوم وقال لهم : هل تأذنون لى أيها الأصدقاء وقد قصصتُ عليكم تاريخ حياة بيتهوفن أن أسمعكم لحنه الأخير الذى وقعه فى آخر ساعات حياته ؟ فتهللت وجوههم فرحا ، وقد ظنوا أنه إنما يريد أن يسرِّىَ عن نفوسهم تلك الكآبة التى غشيتها منذ الساعة ؛ فقالوا جميعاً : نعم !

فبدأ يوقع ذلك اللحن « رب لم أشقيتنى وما أشقيتُ أحداً من عبادك » ويغنيه بصوت ضعيف خافت ، ثم أخذت عواطفه تشتعل شيئا فشيئا ، فعَلا صوته ، وأنشأت نغماته تنتشر فى أجواز الفضاء ، فسمع القوم تلك الموسيقى السماوية العالية التى لم يخلق الله لها مثيلا ، والتى هى غاية ما أنتجه

العقل البشرى ، فأطرقوا برؤوسهم إجلالا لهذه العظمة المشرفة عليها من سمائها ، وخيل إليهم أنهم لايرون بينهم مغنيا يوقع على أوتاره ، بل ثاكلا متفجعاً يذرف مدامعه ، ويصعد زفراته ، حتى الموسيقى « مورات » همس فى أذن أحد الجالسين بجانبه قائلا « إن الرجل لايغنى بل يموت ، وإنى أشم من أنفاسه رائحة الكبد المحترقة » وكان كلما استمر فى غنائه اشتد تأثره ، والتهبت عواطفه ، وتلون صوته بلون الأنين المحزن ، حتى فنى عن نفسه وعما حوله ، واستولت عليه حالة غريبة من الذهول والاستغراق .

وما أتى على النغمة الأخيرة ، وكانت أعلى النغمات وأطولها وأذهبها فى أجواز الفضاء ، حتى نهض القوم جميعاً على أقدامهم وأخذوا يصفقون تصفيقاً شديداً ويهتفون « ليحيى استيفن » .

وإنهم ليصفقون هذا التصفيق الشديد ويدعون له الحياة الطويلة ، ويتدافعون إلى مكانه لتهنئته وتمجيده ، إذا بهم ينظرون إليه فيرونه مائلا برأسه على ظهر كرسيه ، وقد اقشعر وجهه ، وتغيرت سحنته ، وأمسك بكفه على أحشائه ، فطارت ألبابهم ، وطاشت عقولهم ، ومرت بخواطرهم جميعاً مرور البرق تلك الصورة التى مات عليها بيتهوفن فى قصته التى قصها عليهم منذ الساعة ؛ فتشاءموا وانقبضت نفوسهم ؛ وأحاط به جماعة منهم فاحتملوه إلى سريره ، وحضر الطبيب ففحصه ثم نظر إليهم نظرة اليأس ، فأطرقوا واجمين مكتئبين واحتاطوا بسريره ينتظرون قضاء الله فيه ، ففتح عينيه بعد ساعة ودار بهما حوله ونطق باسم « فرتز » وكان حاضراً فلباه ، فنظر إليه طويلا ثم نطق باسم « ماجدولين الصغيرة » فما لبث أن جاءه بها ، فضمها

إلى صدره وقبلها قبلة امتزجت فيها عاطفة الرحمة بعاطفة الذكرى ، وظل ينظر بعينيه إلى السماء مرة وإلى فرتز أخرى ، كأنما يوصيه بالطفلة ويستشهد الله على ذلك ، ثم التفت إلى القوم وقال بصوت ضعيف متهافت «أشهدكم أيها الأصدقاء أن جميع ما أملك يدى قسمة بين هذين » وأشار إلى فرتز والطفلة : ثم عاد إلى ذهوله واستغراقه وأخذ يجود بنفسه وظل على ذلك ساعة ثم فتح عينيه مرة أخرى فرأى القوم يبكون من حوله ويتفجعون له ، فمرت بشفتيه ابتسامة خفيفة ، كأنما اغتبط بمنظر تلك العظمة التى تجلت له فى دموع هؤلاء العظماء وأخذ يقلب عينيه فيهم ، فتقدم نحوه الموسيقى فردريك وكان أعظم القوم شأناً وأكبرهم سنا ، وقال له : هل توصى بشىء يا مولاى ؟ فحاول النطق فلم يستطعه ، فظل يعالجه حيناً حتى استقاد له ، فأنشأ يقول أوصيك يا فردريك أن تجمع ألحانى جميعها فى كتاب واحد ، وأوصيك يا سيدروف أن تكتب تاريخ حياتى كما يعلمه فرتز ثم تنشره فى الناس ، وأوصيك يا فرتز أن تدفنى مع ماجدولين فى قبرها وأن تتولى شأن هذه الطفلة الصغيرة وتحميها مما تحمى منه أهلك وولدك حتى إذا يَفَعت زوجتها من الزوج الذى تختاره لنفسها وأوصيكم جميعاً ألا تحزنوا على موتى ، فإننى وإن قضيت حياتى شقيا فها أنتم أولاء ترون الآن أننى أموت بينكم سعيداً . وكان هذا آخر ما نطق به ، ثم أسلم روحه .

وكذلك انتهت حياة هذا الرجل العظيم الذى قتل الحب جسمه ولكنه أحيا نفسه وسجلها فى سجل النفوس الخالدات

٩٩
النهـــاية

أما أسرة فرتز فقد سعد حالها . وأصبحت فى نعمة واسعة من العيش لاينغصها عليها إلا ذكرى ذلك المحسن الكريم ، وأما ماجدولين الصغيرة فقد تولى فرتز شأنها ورباها مع ولده « برنار » الذى رضعت معه فى صغره تربية قروية ساذجة بعيدة عن مفاسد المدنية وآفاتها حتى شبا فتحابا حبا شريفا طاهراً فانتهى بهما الأمر إلى الزواج فعاشا أسعد عيشة وأهنأها ، وأما المنزل فقد اشترته جمعية الموسيقى الملوكية فى برلين وحفظته تذكاراً لاستيفن ، ولايزال حتى اليوم مزاراً يزوره الناس ويشاهدون فيه آثار ذلك التاريخ الذى دوّنه الشاعر « سيدروف » وبرون صديقه ، وأزهار البنفسج المنتشرة فى أنحائها ، والحوض المقام فى وسطها ، والسياج الدائر من حوله ، والمقعدَ الذى جلس عليه استيفن وماجدولين ليلة عاتبها وغاضبها والغرفة الزرقاء التى كانت غرفة عرس ماجدولين أولا ، ولحدها أخيراً ، ومكتبة استيفن ، وقيثارته ، والبيانو الذى وقع عليه فى ساعته الأخيرة لحن الموت .

فإذا فرغوا من زيارة المنزل ذهبوا إلى المقبرة فزاروا ذلك القبر الذى دفن فيه هذان الشقيان البائسان . فيبلل تربته بالدمع منهم من نُكب فى حياته بمثل نكبتهما ، أو عاش فيها شقيا كعيشهما .

تمت